مواهب الرحمن في تفسير القرآن

تأليف

عبد الكريم محمد المدرس

عُني بنشره

محمد علي القره داغي

المجلد الخامس

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

بقية الجزء الثالث عشر

<3>

سورة الرعد، مدنية، وآياتها ثلاث وأربعون نزلت بعد سورة محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (1) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4)﴾

قوله تعالى: ﴿المر﴾ الكلام فيه معنىً وإعراباً مثل ما تقدم في أمثاله.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن معنى

ذلك أنا الله أعلم وَأرى ﴿تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ﴾ الإشارة إلى آياتها باعتبار أنها لتلاوة بعضها، وكون الباقي في معرض التلاوة صارت كالحاضرة مع الملك. والمراد بالكتاب السورة أو القرآن أو اللوح. أي تلك الآياتُ آياتُ السورة أو القرآن أو اللوح المحفوظ ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ مبتدأ وخبر، والمراد وكل ما أنزل إليك من الله تعالى من آيات هذه السورة أو غيرها هو الأمر الثابت المطابق للواقع منشأً ونزولاً وغايةً. فهي من الله لا من غيره، ونزل مع الملك الأمين لا مع الأرواح الخبيثة. وغاية النزول غاية شريفة هي إرشاد المكلفين إلى طريق سعادة الدارين ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ ممن نزل لإرشادهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بذلك الحق المبين لأن سوء استعدادهم وغلبة الشهوات النفسية عليهم جَعَلتهم كمن لا عقل له ولا نظر ولا فكر في شيء يدل على أنه الحق، فإن هناك أشياء محسوسة وأشياء معقولة يدل كل منها على أن العالم له صانع واجب الوجود موصوفٌ بالكمال، منزه عن النقص وكل فعلٍ من أفعاله مقرون بحكمة كما سَرَدَها بقوله الكريم:

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي رفع المواد العالية المسماة بالسماء، وتجمعُ على سماوات مرتفعا بعضها فوق بعض، وعددها سبع، وهي شداد لا تنخرق ولا تتمزق. أما عددها فلآياتٍ منها: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ وأما أن بعضها فوق بعض فلقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾. وأما أنها شداد فلقوله تعالى ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ واما أنها لا تتمزق ولا تنخرق فلقوله تعالى ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ فصريح هذه الآيات الإبداعية تدل على أن السماوات

أجرامٌ علوية واسعة بعضها فوق بعض وبعضها متصل بالبعض، وأنها موجاتٌ مكفوفة وثابتة على حد محدود بجاذبية خاصةٍ تحافظ على شخصيتها، فليست السماوات السبع عبارة عن السيارات السبع التي تسبح في مدارات مختلفة حسب موازينها الخاصة، بل إنها مع كبر حجمها كجوهرة محدودة في بحرٍ محيط، ولا يعلم مقدار طولها وعرضها إلا الله، وان الشمس والقمر وسائر الكواكب مكشوفة أولا كلها في السماء الدنيا الأولى التي هي أقرب السماوات إلينا لقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ وإن جرم الكرسي فوق السماوات السبع لقوله ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وأن الجنة فوق السماوات لقوله تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ ولقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15)﴾ وهي فوق الكرسي وتحت العرش: ((سقف الجنة عرش الرحمن)) إلى غير ذلك من الآثار. وان الماسكة هي قوة جاذبية لا تدرك بالأجهزة المادية لقوله تعالى ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.

وأن العرش فوق الكل لظاهر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي إستولى عليه. أو على معنى آخر أراده الله تعالى موافقاً لنزاهته من التحيز والتمكن ومن الحاجة إلى ما يماسه وغير ذلك مما لا يليق بذاته الواجب الوجود. وهذه المفاهيم واضحة ظاهرة لكل ذي عقل وإدراك وبصيرة. وأما كشفها والإحاطة بما فيها فهو عائد إلى الله سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي ذللهما لما أراد منهما من الحركة المستمرة ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي لمدة معينة محدودة ببقاء هذا العالم، إذ عند انتهائه وقيام الساعة لا تبقى هذه السماوات ولا الشمس ولا القمر ولا باقي الكواكب، إذ يشرق العالم بنور يَخلُقُه الله تعالى

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ ونور الله تعالى المخلوق لإضاءة العالم يكفي لإنارة سمائه وأرضه بطوله وعرضه، فإن عالم الآخرة عالم الخلود وعالم البقاء بدون الأمراض والأعراض، وعالم كذلك لا يتناسب إلا مع إشراق رباني ونور سبحاني، وذلك هو العالم الثاني والدار الآخرة التي خُلِقَت للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا، وذلك العالم هو العالم الذي يليق بلقاء ذاته الكريم والنظر إلى الرب العظيم كما قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وكما أفاده بقوله الكريم ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ فالواجب على المؤمن الوقوف على هذه الظواهر والتوقف عن التأويلات الزائفة التي لا قيمة لها في الواقع، فكم من وجوه أبْدَوْها وبعد مدة وجيزة ثبت أنها أغلاطٌ واخلاط؟ وقوله تعالى ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ظاهره جريان كل من الشمس والقمر. أما جريان القمر فلا كلام فيه. وأما الشمس فكان الناس القدامى يقولون بحركتها كما هو مذكور في كتبهم. وأما الأخراء فكانوا يؤولون جريانها بجريانٍ في الحس لا جريانا واقعيا لأنهم اعتبروها مركزا لحركاتٍ السيارات حولها واعتقدوا سكونها في محلها، لكن اليوم بدأ القول بأنها مع مجموعتها الشمسية في حركة في العالم كما يعلمها الله تعالى.

وقوله تعالى ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ جملة مستأنفة وجواب لما يقال: من الذي يدبر أمر هذه السماوات وما فيها من النيرات والمصابيح؟ فقال: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي الله الذي يدبر أمر العالم العلوي والسفلي. والمقصود أن الله سبحانه وتعالى كما خلقها ورفعها وزينها بمصابيح كذلك دبر أمرها وسيدبرها ويدبر شئونها إلى أجل مسمى إذ وجب الإعتراف بالمعلول عند الإعتراف بالعلة والتصديق بالمدلول عند التصديق بالدليل، فما دام علمنا أن هذه المواد العلوية والسفلية ممكنات مستوية الوجود والعدم في ذاتها 8 وانما رجح وجودها على عدمها واجب الوجود وعلمنا أنها حادثة والحادث. يحتاج الى المحدث.. علمنا أنها ذاتا وصفة حدوثاً وبقاء مربوطة بخالقها العالم بها القادر على التصرف فيها. وقوله تعالى ﴿يُفَصِّلُ الْآَيَاتِ﴾ أي ينزل آيات الكتاب المبين مفصلة واضحة لمن تدبر فيها. أو يفصل الآيات الكونية الدالة على وجود الواجب وكماله لمن يستدل بها بإمعان وتفكر. وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي لعلكم تتفكرون في عظمة الباري وقدرته الغالبة على

الممكنات فكما خلقكم وأوجدكم من العدم كذلك إلى الوجود، وتلقون ربكم وتحاسبون على أحوالكم واعمالكم وتستفيدون من هذا التدبر شعورا بالمسؤولية وتستسلمون للرسول الأمين الآتي بالكتاب المبين. ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ أي خلقها ممدودة محدودة، وجعل لها طولا وعرضا وأطرافا ومناطق على وضع خاص مناسب لمعيشة الحيوانات عليها، وموافق لرعاية الشروق والغروب ومعرفة الأبعاد بين البلاد حتى يسعد البشر عليها بإدراك المعلومات من العالم العلوي والسفلي، وبتطور في مراتبها، ويستدل بها على نظام خالقها، وأن الله لم يخلق هذه المواد العزيزة عبثا بل كل جزء من أجزائها فيه حكمة ورحمة، ويستفاد منه بركة ونعمة، فيتمتع بتلك النعم ويشكر الخالق المنعم على الوجه الأتم. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي جبالا ذوات استقرار في محالها على قواعدها الرصينة حتى تكون وسيلة لتوازن أطرافها في الحركات، ولا تميد بكم في المدارات، وتستفيد من الثلوج والأمطار والهواء الصافي النقي فيختزن فيها العيون، وتأخذ مجراها في سطوح الأرض وتتكون الانهار، وتستغل في الزراعات والبساتين والغابات والأشجار ﴿وَ﴾ جعل فيها ﴿أَنْهَارًا﴾ يستفاد منها بشتى وجوه الإستفادة ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي جعل من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة في الدنيا صنفين مختلفين في اللون الأسود والأبيض، <9>

أو في الطعم كالحلو والحامض، أو في المقدار كالصغير والكبير، أو في الحرارة والبرودة إلى غير ذلك من وجوه الاختلاف... ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أي جعل الليل غاشيا ساترا للنهار، فيصير الجو مظلما ويستريح المتعبون بالنهار في دار القرار، ويخرج المختفون في النهار إلى وسائل معيشتهم في الديار ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإن جولان النفس في المعلومات المخزونة عندها ووجدان المواد المناسبة للاستدلال بها، أو التعريف لمجهولاتها يفيد أصحاب العقول القوية فوائد فرائد وعوائد توضع على الموائد فيأخذ اللاحق من السابق وجوه الحقائق. ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾ الممدودة كما ذكر ﴿قِطَعٌ﴾ منها ﴿مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ وهي مختلفات في الصورة النوعية والصفات فمنها نقية تنبت الزرع والأشجار ومنها فاسدة خبيثة لا تنبت إلّا الأشواك بدون الثمار ﴿وَجَنَّاتٌ﴾ أي وفي الأرض جنات أي بساتين كثيرة ﴿مِنْ أَعْنَابٍ﴾ أي من أشجار الكرم يستفاد منها رطباً ويابساً جامداً وسيالاً ﴿وَزَرْعٌ﴾ من كل نوع من أنواع الحبوب ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ﴾ جمع صنو وهو الفرع الذي يجمعه وفرعا آخر أصلٌ واحد، وأصل الصنو المثل ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ أي ونخيل غير مضمومة بعضها إلى بعض وغير متفرعة من أصل واحد ﴿يُسْقَى﴾ ما ذكر ﴿بِمَاءٍ﴾ واحد لا اختلاف في طبعه ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ بإرادتنا بدون تأثير شيء آخر في ذلك الإختلاف. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ شمول قدرة الباري للمكنات كلها على حد سواء.

﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (5) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (6) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7) اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (10) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11)﴾

قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ عبارة تستعمل في إظهار التعجب من شيء غريب يستحق أن يتعجب منه، فيقول الباري سبحانه. وتعالى خطابا لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم وإن ترد أن تتعجب من شيء مناسب فعجب أي فأمر عجيب غريب لم يسبق له في عقول العقلاء استقرار ﴿قَوْلُهُمْ﴾ في مقام إستنكار البعث ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ ورفاتاً لا يتميز فيه العظم من العصب ولا العصب من اللحم ولا اللحم من غيره ﴿أَئِنَّا﴾ في ذلك الطور والدور ﴿لَ﴾ حادثون ﴿فِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي إنهم يعدون أنفسهم من العقلاء مع أنهم بعد رؤية آثار قدرة الله في الكائنات الغالبة على إماتة الأحياء وإحياء الأموات يستنكرون الإحياء مرة ثانية، ولا يتفكرون أن الله قبل

وجود أية مادة من المواد وأية صورة من الصور خلق المادة وصورتها وتصرف بالوجوه المختلفة فيها فأحيا بعضا منها وأبقى بعضا على حالها، ثم أزال الحياة عن الأحياء وهي في كل دور مسخر؛ لتأثير القادر العليم الخبير ومع ذلك ينكر تصرف الباري فيها بإحيائها بعد فناء تلك الصورة، ولا يدرى أن من قدر على الإيجاد قبل الوجود قادر على إعادة الوجود في ذلك الموجود، لأن القابل باق والفاعل أبقى والقدرة لم تتغير، فإنكار التأثير في وقت دون آخر مكابرة لا طائل تحتها. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أي أولئك المنكرون للبعث وإنشاء الخلق الجديد بعد ما رأوا الآيات الدالة على أنه يسير على الله القدير هم الذين كفروا بربهم واستمروا على الجهالة العمياء في الدنيا، ﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ في الآخرة جزاء لهذه البادرة المنكرة ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا ينفكون عنها أبدا.

ثم ذكر الباري تعالى بعد بيان كفرهم وسوء عاقبة أمرهم بعض أحوالهم الفاسدة فقال ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي يطلبون منك استعجال العقوبة قبل الحسنة وهي الستر والأمان والعافية ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ وقد مضت وانقضت من قبل زمان مجيئهم إلى الدنيا المثلات وهي جمع مثلة بمعنى العقوبة الفاضحة. يعني لو لم تسبق قبلهم العقوبات ولم تقرع أسماعهم أخبار حوادث الكائنات كانت لهم معذرة في الجراءة وطلب بعض المصائب لكن مع سبق ذلك وقرع السمع مما هنالك يطلبون إنزال العقوبة عليهم، وإن ذلك مما يتعجب منه العاقلون ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ أي مع وجود ظلمهم على أنفسهم بارتكاب الكفر والمعاصي، فما داموا تابوا إلى الله وانتهوا عن تلك المعاصي فالله غفور رحيم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على من عاند واستمر على المعاصي ولم يزل إلى أن جاءه الأجل لأنه مقتضى كلامه ومنتهى نظامه وأحكامه.

ثم ذكر حالا أحرى بالتعجب من الأولى وهو أنه ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي على محمد ﴿آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ مثل آيات عيسى وموسى من قلب العصا حية تسعى ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ يعني فإذا فوجئت بذلك فاسكت واصبر إنما أنت منذر مرسل للإنذار من سوء عاقبة أولئك الناس، ولست مخولاً بإظهار المعجزة كما يريدون ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ يبشر قومه وينذرهم، فمن آمن به فهو المهتدي للصراط المستقيم ومن كفر به فهو الخاسر الذي خسر رأس مال العقل والحلم ورجع إلى سواء الجحيم.

ثم ذكرهم ببعض صفات الباري تعالى حتى يهتموا بها فينتبهوا وقال ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ﴾ بالذات بدون الحاجة إلى أي جهاز وآلة ﴿مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ من الذكر أو الأنثى أو الصنفين ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي وبما تنقصه الأرحام وما تزيده في الجثة والأعضاء ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ﴾ متلبس ﴿بِمِقْدَارٍ﴾ محدود لا يزيد ولا ينقص منه ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ﴾ العظيم الشأن ﴿الْمُتَعَالِ﴾.

ولما كان الشيء عندنا هو الموجود، والكل أداة الإحاطة صار معنى الآية الشريفة: إن كل موجود عيني جوهرا أو عرضا له في مراحل حدوثه وبقائه كمية محدودة مشخصة لا يزيد عليها ولا ينقص منها، فتستوعب الآية دقائق وجود الأعيان والأعراض وتفيد أن زيدا مثلا في مبدإ حدوثه ومسافة بقائه وآخر أمَدِهِ في كل دقيقة له مقدار مقرر في علمه تعالى لا تتبدل ولا تتحول. هذا إذا فسرنا الشيء بالموجود الخارجي، وأما إذا فسرناه بما يعم الشخص والصنف والنوع والجنس مطلقا، فمعناها أن كل جنس مطلقا وكل نوع وكل صنف وكل شخص من الصنف له أفق خاص لا يزيد عليه ذلك الشيء ولا ينقص، وأوسع الآفاق أفق الجنس العالي، ثم المتوسط، ثم السافل، ثم النوع، ثم الصنف، ثم الشخص. ومعنى ذلك إحاطة علم

الله وقدرته بجميع الكائنات بحيث لا يشذ شيء عنهما سواء كان مشهودا عندنا أو غائبا، وبذلك يتناسب مع قوله تعالى ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ ويدخل في ذلك أحوال الإنسان وأعراضه وأمراضه وأغراضه وأعماله وآجاله وآماله ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ فإذا آمن الإنسان بذلك استراح واطمأن قلبه ولم يبق عنده قلق من كل ما يجري عليه في مبدإ حياته إلى منتهاها، ولا ييأس من روح الله لأن كل آن وكل دقيقة وكل ساعة له ميزان خاص مقرر في علمه تعالى، فقد يكون حاله في الآنات التالية غيرها في الحالات السابقة.

ويترتب على إحاطة علمه تعالى قوله ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ﴾ أي أخفاه في نفسه ولم يتلفظ به، أو تلفظ به ولم يسمعه نفسه، أو تلفظ به واسمعه نفسه فقط دون غيره ﴿وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ بحيث أسمعه من يليه أو أسمعه نفسه ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ أي من يبالغ في الإختفاء علاوة على ما عليه من غشاء ظلمته ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أي ظاهر فيه من سرب إذا ذهب في طريقه؛ فإن من كان عالما بالغيب والشهادة لا يخرج عن علمه شيء مما ذكر. وقوله ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ أي لمن تقدم ممن أسر بالقول إلى آخره ملائكة معقبات تعتقب في حفظه وصيانته من المضار والمصائب ﴿يَحْفَظُونَهُ﴾ من بين يديه ومن خلفه حراس له أمامه ورقباء خلفه يحفظونه حفظا ناشئا ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي من أجل إصدار الأمر من الله تعالى لهم بحفظه، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ ودائرة الحفظ تسع الحفظ من الماديات والمعنويات من شياطين الجن والإنس ومن الأعداء والسباع والحشرات والأمراض.. وذلك مربوط بأمره تعالى ليلا ونهارا ويبدو ذلك بكثرة في صيانة الصبيان والبله الذين لا يقدرون على رعاية أنفسهم، وإلا فلو لم يكن عليه حفظة من

الله لتاه الإنسان في متاهات وتراكمت عليه المصائب والبليات، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين.

والأخبار الدالة على هذه المحافظة كثيرة وفيرة مؤيدة ومفسرة للآية الكريمة، فإن قيل ما وجه هذا الحفظ وما معناه؟ فإن كل مقدر لابد أن يكون، وكل ما لم يقدر لم يكن كما قال صلى الله عليه وسلم: ((ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن)) ! قلنا: إن ما شاء الله وقضاه وقدره منها ما هو مربوط بشرائط وأسباب معلومة لنا، ومنها ما هو مربوط بشرائط وأسباب غير معلومة لنا، وتيسير تلك الأسباب كلها من الله سبحانه، فاذا أراد شيئا هيأ أسبابه، وإذا لم يهيئ أسبابه فمعناه أنه ما أراده، ومن أسباب الصيانة والحفظ شعور الإنسان وانتباهه وسعيه في أسباب أمنه وراحته. ومنها الملائكة المأمورون بها كما في الآية الكريمة. ومنها الدعوات والصدقات فإن تسببها في حصول المأمول بأمر الله تعالى ثابت محقق لا مجال لإنكاره من أهل الشعور، كما أن الباري تعالى جعل على العيون أجفانا، وعلى الألسنة شفاها، وعلى المنافذ أوكية وعلى الدور أبوابا فالماديات والمعنويات متظاهرة ومتضافرة في هذا الموضوع. وينص على ذلك قوله تعالى ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ والصدقات والنذور من جملة أسباب الأمان والصيانة، وما ورد من «أن الحذر لا يغني عن القدر» فحق لا شبهة فيه، ولكنه في ما إذا أبرم الله القضاء فإنه هو الفاعل المختار، ومنه العوارض والآثار، فعلى المؤمن العاقل أن ينتبه لهذه الأمور ويشرح لها الصدور حتى يتنور بنور الحق ويسلك مسلك الحبيب أكرم الخلق في رعاية الأسباب وإعداد المعدات، وإلا فلم يشرب العطشان، ولم يأكل الجوعان، ولم يكتسب الانسان أسباب معيشته في طول الزمان؛ فالملائكة من جملة الأسباب، والإكساب من جملة الأسباب، وأدعية الصالحين من

جملة الأسباب، وبركات أهل التقوى وعصمة الصبيان واحترام الشيوخ من أهل الصدق والإيمان، من جملة أسباب جلب الخيرات ودفع البلايا والمصائب وكذلك التوسل بالأرواح الطيبة النقية التقية فإن بركاتها وأنوارها ظاهرة في حياتها ومماتها، وإلا فلم يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بمن معه من أصحابه أن يسرعوا في الخروج من ديار ثمود وينتقبوا ولا يتفرجوا عليها مع مضيّ قرون وأحقاب على هلاكها ودمارها، أليس ذلك دليلا على استحباب التبرك بالعدوة في بدر مهبط الأنوار ونزول الملائكة الأنصار؟ والنقطة الوحيدة التي هي قطب دائرة الإيمان والأمان هي التصديق بأن كل ما كان وما يكون من هذه الأنواع فهي أسباب موجودة مرتبة والفاعل والمؤثر والخالق هو الله تعالى لا غيره.

قال السعد في تهذيبه: ولما كان الموجد عندنا هو الله تعالى وحده فمعنى العلية والتأثير في الممكن هو التسبب العادي انتهى. أي لما كانت الممكنات مستندة إلى الله تعالى إبتداء فمعنى مباشرة الأسباب هو التسبب العادي، أي مباشرة أسباب الجذب والدفع حسب جريان عادة الله تعالى بها.

ويدل على وجوب رعاية الأسباب ومباشرتها بصورة مشروعة نافعة والسلوك على مسلك سنة الله تعالى في خلقه قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ فإن هذه الآية أو الجملة الجميلة تليق بأن تكتب بالنور على الصدور. ومعناها: إن الله تعالى هو الذي خلق الانسان من العدم وزوده بالصفات العالية، وعلمه ما لم يعلم، وألهمه التحرير بالقلم، والمشي على القدم، وهداه بعد العقل السليم الى الشرع الشريف الذي جاء به الرسول الكريم وشرع له طريق الشورى في المهمات والإعتصام والوحدة لدفع النائبات والإبتعاد عن العقائد الفاسدة والأعمال السيئة الكاسدة وسوء الأخلاق من الشقاق والنفاق، وأن يرى خيره في خير بني مبدإه الأمين،

وينقاد في أحواله وأعماله لدستور رب العالمين. فإذا نظروا إلى ما شرعه الله تعالى وتفكروا في ما يستفاد منه من الآيات البينات والبراهين القاطعة والأدلة اللامعة، وسعوا في تحصيل النتائج الخيرية، ودفع المصائب والبلية، وتحولوا من سيئ إلى حسن، ومن الحسن إلى الأحسن، وغيروا ما بأنفسهم من الرذائل وتنوروا بالفضائل فقد وعد الله تعالى، ومن أوفى منه بالعهود؟ إنه يغير ما بهم من النقصان ويرقِّيهم إلى قمة الكرامة والإحسان. وهذه سنته في كل فرد وجماعة، ولكن التنصيص على القوم إشارة إلى أن خير الخيرات هي نتائج أعمال الجماعة، فإنها رحمة وجالبة لكل خير ونعمة ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ لجريان علمه بسوء إستعدادهم وفساد عقائدهم وأعمالهم وابتلوا بالنفاق والشقاق وسوء الأخلاق، وإظلام القلوب بالكروب، والإستمرار على الأعمال المشينة، وعدم المبالاة بنصائح الناصحين ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ أي فلا رد له ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ يلي أمرهم، فإنه تعالى في الحقيقة صاحب كل شيء ووال عليه يتولاه برفق ورحمة ولطف، ولا سيما للصالحين. ولذا قال تعالى ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (12) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (13) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (14) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (15)﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ من جملة ما أنزله الله تعالى من صفات ذاته وأفعاله الدالة على كماله في كل باب من الأبواب، سواء من ناحية علمه الشامل للغيب والشهادة، وحفظه لعباده بالمعقبات فيقول هو الذي يريكم البرق إخافةً لكم من الصاعقة وإطماعاً لكم في الغيث النازل المفيد لأرزاقكم، فالقادر القوي الذي سخر السماوات وما فيها لإحداث ما يريد هو الذي يُعْبَد وحدَه لا من لاحظ له من الوجود الثابت والجود المفيد. هذا، وأوَّلْنا الخوفَ والطمع بالإخافة والإطماع حتى يتحد العامل والمفعول من أجله في الفاعل فيتحقق شرط النصب، ومنهم من لم يشترط هذا الشرط ونصبهما مع بقائهما على معناهما المعروف الذي هو من صفاتنا. ففي شرح الكافية للرضي وبعض النحاة: لا يشترط تشاركهما في الفاعل، ويسندون هذا الرأي الى سيبويه ويستدلون عليه بظواهر النصوص والآثار الواردة، ومنها هذه الآية التي نفسرها هنا.

ثم إنهم فسروا الخوف والطمع بالخوف للمسافر من أذى المطر والطمع للمقيم في نفعه، وبالخوف من العذاب والطمع في الثواب أو الخوف من الصواعق والطمع في النباتات النابتة النامية بها ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ﴾ أي الغمام المنسحب في الهواء ﴿الثِّقَالَ﴾ بالماء وجمعه، وإن كان الموصوف مفردا لكونه اسم جنس في معنى الجمع، ويذكر ويؤنث فكأنه جمع سحابة ثقيلة ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ والرعد اسم للصوت المعلوم. وفي إسناد التسبيح إليه تجوز أي يسبح سامعوه ويتلبسون بحمده على حدوثه لدلالته على القوة القاهرة في جمع السحب وإصعادها، واحتكاك بعضها ببعض، وحدوث ذلك الصوت المهول منها، وعلى النعمة الوافرة مما يحدث بالأمطار النازلة منها. أو تجوز

على طريق الإستعارة تشبيها لدلالة الرعد بنفسه على تنزيهه تعالى عن الشريك بالتسبيح والتنزيه اللفظي، ودلالته على فضله ورحمته بحمد الحامدين. ومنهم من يقول: إنه إسناد حقيقي والرعد اسم للملك الموكل بإدارة هذا الصوت وإنشائه ويناسبه قوله تعالى ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أي ويسبح الملائكة الكرام عليهم السلام من هيبته تعالى وإجلاله جل جلاله ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ جمع صاعقة وهي النار النازلة من السحاب مع صوت شديد ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ إصابته فتحرقه وتهلكه، وتلك النار تحدث من إحتكاك أجزاء السحاب بعضها مع بعض. ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ أي أولئك الذين كفروا وكذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم يجادلون في الله أي في وجوده، أو في وحدته، أو في تأثير قدرته، أو في الجميع ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ أي والله هو شديد المماحلة والمكايدة. لا يعارضه أحد إلا هلك.

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أي اختص به الدعاء والطلب لدفع البلاء والغلاء وإنزال الرحمة والنعماء، فهو الذي يدعى فيجيب، وأنه هو السميع القريب ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي الأصنام الذين يدعوهم المشركون ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي من دون الله ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ﴾ أي للمشركين الداعين ﴿بِشَيْءٍ﴾ من آمالهم ومقاصدهم المطلوبة ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ أي إلا إستجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه من بعيد يطلبه ليأتي ويصل إلى فمه ﴿وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ أي وليس كذلك الماء ببالغ إلى فيه لأن الماء جماد لا يشعر بعطش العطاش وطلبهم حتى يستجيب لهم ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي في ضياع وخسار وعدم افادة.

واستشكل عدم استجابة دعواتهم باستجابة دعاء إبليس عندما قال ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37)﴾. وأجيب بأن المراد

دعاؤهم في شأن الآخرة ورفع العذاب عنهم. وقد يقال: إن الإستجابة نوعان: نوع مقرون باللطف والرفق والرحمة بالداعي، فهذا هو المسلوب إجابته عن الكفار، وقسم فائض من إنعامه العام والرفق بكل ذي روح، ولو من السباع الضارية والحشرات العادية والكفار الغاوية، فهذا يشمل الكل، ولكن لا من باب إستجابة الدعاء.

ثم قال الباري تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ولله تعالى وحده لا لغيره أو مع غيره يسجد ويخضع ويعبد من في السماوات والأرض من الملائكة والجن والإنس ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ طائعين في حال الإسلام وكارهين في حال القهر والاستسلام فان الشخص المؤمن بالله ساجد طوعا خوفا وروعاً، ويخضع ويتذلل ويبتهل إليه تعالى لرفع عذابه وعقابه ونيل خيره وثوابه، والشخص الحي الكافر والمتمرد المعاند له تعالى والجامد الذي لا شعور له حادث مسخر لتصرفه تعالى ومتذلل له أينما كان.

﴿وَ﴾ معنى السجود هو الخضوع للمعبود اي لا يسجد هؤلاء بانفسهم فقط بل ويسجد كذلك ﴿ظِلَالُهُمْ﴾ الحادثة مع الطول تارة ومع القصر اخرى هذا للماديات، وأما لغيرها فالمراد بها الآثار والتفرعات الناتجة منها، والمقصود أن كل موجود حادث فهو في إدارة ربه، ومنقاد لحكمه، ومطيع لشوكته، ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ خلافا لسجود الكل. والمراد إما الوقتان المعلومان نفسهما، فإن الوقت الأول يشبه زمان بداية الخلق، والثاني يشبه زمان إنتهائه، أو المراد بهما الإستمرار في هذا الإنقياد والتذلل في كل وقت وحين.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (16) أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (17) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (18)﴾

قوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا الأمر والإستفهام للإنتباه، وأخذ الجواب الحق وتقرير أن خالقهما وصاحب شئونهما هو الله الذي لا إله إلا هو القادر على كل ممكن عال أو سافل، ولذلك يأمر الله سبحانه وتعالى حبيبه أن يجيب عن الإستفهام بقوله ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ يعني أن العالِمَ حقيقة بشخصية الخالق هو نفسه لا غيره، ومنه يسري العلم إلى غيره، وإذا أنت أقررت وقررت أن خالقهما هو الله، وأخذتَ العلم بهذا الأمر المهم منه تعالى يُقرّ العقل السليم في أي زمان ومكان بذلك فحينئذ لك المجال أن تستفهم الناس المشركين إستنكارا على انحرافهم عن ذلك الأمر الحق، ولذلك قال له صلى الله عليه وسلم ﴿قُلْ﴾ يا حبيبي ﴿أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ لمناصرتكم حالكونهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ﴾ وهي أعز الأشياء عليهم

لو كانوا عقلاء ﴿نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ فضلا عن إنفاع الغير وإضراره.

﴿قُلْ﴾ لهم للمثيل بعد تحقيق الفرق بين المحسوسين المتقابلين: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ المشرك الجاهل بالعقائد الحقة والموحد العارف بها ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ حتى تستوي غياهب الكفر والضلال ومراتب الأنوار والهدى، فإن جهل المشرك وعلم الموحد معنويان، والعمى والإبصار ماديان ومحسوسان باعتبار مبدإ الإنتزاع، وكذلك الظلمات والنور محسوسان والكفر والإيمان معقولان، فإذا أدركتَ الفرق الواضح بين الأعمى والبصير، وبين الظلمات والنور أدركت الفرق بين المشرك والموحد والكافر والمؤمن. وكلمة ﴿أَمْ﴾ في قوله تعالى ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ منقطعة بمعنى بَلْ للاضراب، وهمزة الإستفهام يعني ابَل جَعلوا أي أولئك المشركون لله جل جلاله الرفيع شركاء من الأوثان والأصنام خلقوا المواد العلوية والسفلية كخلقه تعالى لها فالتبس عليهم خلقه تعالى بخلقهم، وجعلوا لهم خلقا وإيجادا كما لله تعالى واعتقدوا إستحقاقهم للعبادة كاستحقاقه تعالى لها، والإستفهام إنكاري لأن إنتفاء ما بعدها محقق. ﴿قُلِ﴾ لإعلان الحق وبيان الواقع ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الجواهر والأعراض، ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

ثم أخذ يذكر من أفعال الباري تعالى ما تنقاد له العقول وتعترف بأن فاعلها هو الفعال لما يريد. فقال ﴿أَنْزَلَ﴾ أي الله تعالى ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي من جهتها على ما هو المشاهد ﴿مَاءً﴾ أي مياها كثيرة تعم الأقطار والأقاليم، أو نوعا منه وهو الماء الذي ينبت به النبات ﴿فَسَالَتْ﴾ به أي بذلك الماء ﴿أَوْدِيَةٌ﴾ كثيرة أراد تخصيصها به بحسب حكمته، ونسبة السيلان اليها مجاز لأنها محل سيلانه ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا﴾ أي غثاء يطرحه الوادي اذا جاش الماء واضطربت الأمواج ﴿رَابِيًا﴾ أي عاليا منتفخا فوق الماء،

وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ إبتداء جملة أخرى، أي ومن المعادن التي يوقدون عليها في النار أي في المجمر الموضوع على النار، لطلب حلية تتحلى بها النساء والصبيان كثيرا والرجال قليلا، أو لطلب ما يتمتع باستعماله كالأواني والكؤس زبد. مثل زبد الماء المائج ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أي مثل ذلك الضرب البديع يضرب الله مثل الحق والباطل ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ الرابي على الماء السائل، أو على المواد المعدنية التي يوقد عليها النار ﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ فيفوت خاليا عن الفائدة ويتفرق في الهواء، أو في الأرض وينمحي بدون منفعة فيه ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ من الماء الصافي عن الغثاء، أو الجواهر الخالصة المعدنية من الذهب والفضة وغيرهما ﴿فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ ويبقى فيها للسقي والزرع وغيرهما، أو للحلية وسائر الأمتعة النفيسة ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ في كل باب لإرشاد العباد.

ولما بين الباري تعالى شأن كل من الحق والباطل شرع في بيان أهل كل منهما وهم المستجيبون لله وغير المستجيبين له فقال: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ﴾ ولَبُّوا دعوته إذا دعاهم إلى الحق ﴿الْحُسْنَى﴾ أي المثوبة الحسنى وهي الجنة ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ وعاندوا وفسدوا وأفسدوا لهم مصيرٌ شر مصير ومآل شر مآل فيقعون في العذاب والعقاب والنكال والوبال في المآل ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ عن أنفسهم ليتخلصوا من العذاب الذي ابتلوا به، ولكن لو افتدوا به وبأضعافه ما تقبل من أحد منهم، لأنهم أصروا على العقيدة الفاسدة والعقدة النفسية الخالدة، والجزاء على وزان الأعمال، ولا نجاة لهم ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ أي حساب سيء جدا لا يسامح منهم قيد ذرة لابتعادهم في الدنيا عن كل خير ومبرة ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ والمستقر جهنم.

وفي تلك الأمثال عبرة للمعتبرين، وعظة للمتعظين، وذكرى للمتذكرين، ذلك أن الله سبحانه وتعالى إستدل بالآيات الآفاقية والأنفسية على وجوده ووحدته وكمال صفاته، ثم وعد الملبين له الجنات والدرجات وأوعد المتمردين بالعذاب والدركات، وأفاد أن ذينك المآلين ليسا أزمنة مؤقتة يخلص منها وإنما هما مآل موصوف بالدوام والخلود، وقرر في تضاعيفها أن الثراء والمال ورفعة الحال أشياء تافهة لا قيمة لها عند أولي العقول النيرة النابهة، وأن ما ينفع هو العقيدة السليمة والعمل الصالح والخلق العالي.

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (21) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (23) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (24) وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (25)﴾

قوله تعالى ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ﴾ يعني أبعدَ بيانِ حال الفريقين من المؤمنين والكافرين يكون مَنْ يعلم ﴿أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ وهو القرآن الكريم <24>

هو ﴿الْحَقُّ﴾ لا ريب فيه ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ لا يبصره ببصره ولا ببصيرته، وابتلى بسوء سريرته، ولا يؤمن بالله الواجب الوجود، ولا يؤمن أنه هو الخالق المعبود، ولا يصدق بأن الرسول هو الواسطة الصادقة بين الخالق المعبود، ولا يصدق بأن الرسول هو الواسطة الصادقة بين الخالق والخليقة في تبليغ العقائد والأحكام؟ وجواب الإستفهام كلا ومعاذ الله لا يستويان لأن الإيمان موقوف على التذكر و﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ الذين يوفون بعهد الله عهدا روحيا في ما مضى من الأوقات، وعهدا على أيدي الرسل أولي الكرامات أي أصحاب العقول الخالية عن الإرتياب ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ أي بما عاهدوا الله عليه من الإيمان بوجوده ووحدته والتزام شريعته ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ الذي وثقوا به بينهم وبين الله أو بينهم وبين الناس على الوجه المشروع. ومنها المبايعات والمراهنات والإيجارات والشركات والعقود الجارية بينهم في الأحوال الشخصية وغيرها فإن العالم مبني على النظام والنظام لا يفيد إلا مع الإلتزام وهذا الإلتزام هو الفارق بين أهل الحق والباطل ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ كنفقات الزوجات وأفراد العائلة والمماليك وأجور العمال وصلة الأرحام ورعاية حقوق الأساتذة والأصدقاء الاوفياء ومن له حق على الإنسان ديناً أو دنيا ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي يخافون وعيده من عدم الوفاء بالملتزمات، أو الخلل في الوفاء بها ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ من إضافة الصفة الى الموصوف، أي يخافون الحساب السيئ، والحساب السيئ هو المحاسبة على الأعمال السيئة، وإلا فمحاسبة الباري لعباده كلها حسنة ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على مكاره ترد عليهم من الإلتزامات والوفاء بها من أداء الصلوات في الأوقات الحرجة، وإسباغ الوضوء، والغسل في المكاره، والصيام في وقت التعب، والمصابرة مع الأعداء في الحرب، والرباط في الثغور، ورعاية الواجبات بالشعور، وإنما صبروا عليها ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي طلبا لمرضاته لا للرياء والسمعة وغيرهما من الرذائل <25>

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة والمسنونة ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا﴾ لا يعلم به إلا الله ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ إذا استحب الإعلان ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي يدرؤن بالأقوال والأعمال والأخلاق الحسنة الأقوال والأعمال والاخلاق السيئة، فإذا سمعوا الشتام تصامموا، وإذا رأوا الاعمال البذيئة تعامَوا، وإذا عوملوا بالإعتداء عفوا عن المعتدين ﴿أُولَئِكَ﴾ الناس الموصوفون بالنعوت المذكورة ﴿لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي العاقبة الحسنة لأصحاب هذه الدار وتلك العاقبة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ﴾ من أبواب المنازل المعدة لهم قائلين لهم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ سلاما خالدا من كل بلاء وآفات مادية ومعنوية وذلك جزاء لكم ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ على مشاق ترك المحرمات وأداء الواجبات ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي فنعم الدار الواصلة إليهم في العاقبة، وهي الجنة، أو فنعم عاقبة الدنيا الجنة.

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أي ذلك حال الذين وفوا بالعهود ووقفوا عند الحدود، وأما الذين ﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ أي أبطلوا العهد الذي عاهدوا الله عليه من الإيمان والإحسان وترك المحرمات وأداء الواجبات ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ وهو الإعتراف بالإلزام في عالم الأرواح، أو بتوديع العقل السليم، أو بالقبول من الأنبياء والرسل في عهودهم ونوابهم العلماء الأمناء بعدهم ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ أي ما أمر الله بوصله على غرار ما قدمناه ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بذور الإشراك والمعاصي وتعدي الحدود وترك العهود ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ والطرد الأبدي النازل عليهم من الله ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي سوء عاقبة الدار والدار الدنيا وسوء عاقبتها الموت بلا إيمان أو الدار الآخرة وسوء عاقبتها عذاب جهنم أعاذنا الله تعالى بفضله منه.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (26) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (27) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (29) كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (30)﴾

قوله تعالى ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ إستئناف لبيان أن البسط في الرزق ليس من محبة الله تعالى للمرزوق والقبض فيه ليس عن كراهيته له، وإنما ذلك من جريان الإرادة الأزلية التابعة لعلمه تعالى باكتساب المرزوق رزقه ومعيشته، فمنهم من يتيسر له أسباب البسط، ومنهم من لا يتيسر له ذلك، مع أن شيئا من البسط والقبض ليس من أسباب الحب والكراهية. وعلى أي حال فالبسط في الدنيا، وإن كان يفرح به الناس على العادة، لكن الفرح به ليس من أخلاق المؤمن المخلص لأن العاقبة الحسنة في إطاعة الله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا﴾ أي أهل مكة، أو الكفار مطلقا، أو أهل الدنيا مطلقا، بالحياة الدنيا لقصور نظرهم فيها. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي في جانب نعيمها ﴿إِلَّا مَتَاعٌ﴾ قليل يسير حقير لا قيمة له.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أهل مكة أو منافقو أهل المدينة: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آَيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ وذلك من أقصى مراتب الجهالة، وأقسى مراتب القلوب الغافلة، فإنهم لو كانوا ينظرون إلى نشأته عليه الصلاة والسلام ونموه ونمو شريعته والقرآن النازل عليه الهادي للعقول إلى الطبائع وما وراءها وإلى أخلاقه وسيرته لعلموا أنه هو عين الأعيان، وكلام الله النازل عليه أعظم آية وأجلى برهان. ﴿قُلْ﴾ في جواب أولئك الناس الذين عميت أبصارهم عن إبصار الحقائق وبصائرهم عن إدراك الدقائق: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ إضلاله لعلمه أزلاً بغفلته عن سلوك مسالك الحق ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي أقبل إلى الله وهداه، وترك شهواته وهواه. يعني لو لم يكن هذا الضلال العميق لم يكن كلامكم ذلك الكلام الخريق ﴿الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ والذين هداهم الله وأنابوا إليه وكانت لهم مكانة لديه هم الذين آمنوا بالله ورسوله وما جاء به من عند الله، ويداومون على ترك المحرمات وأداء الواجبات، ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ﴾ أي تستقر وتستكن بذكر الله قياما وقعودا ركوعا وسجودا ويقظة وهجودا ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ لا بغيره من المتاع الحقير الذي يميل إليه الطبع الحقير. والمراد بذكر الله تعالى كل فكر وقول وعمل يقرب صاحبه من الله، سواء كانت ترك المحرمات لله، أو أداء الواجبات لله، أو إرشاد الناس إلى الخير لله، أو ذكر توحيده وتقديسه وتمجيده وتوحيده وتهليله وتسبيحه وتكبيره لله.

﴿الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآَبٍ﴾ أي يقال لهم طوبى لكم وحسن مآب. فهو دعاء لهم بالطيب في العيش الخالد الأخروي والهناء. وقال القرطبي: الصحيح أنها شجرة في الجنة واحدة بالذات متفرعة منها فروع وأغصان تعم حدائق الجنة، أو نوع من الأشجار توجد في حدائقها. ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإرسال العظيم المؤيد بالقرآن

الكريم والخلق العظيم ﴿أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ كثيرة أي ليس إرسالك إليها أمراً خارقا للعادة، ولم يسبق مثله، بل سبقت أمثاله، فإن الله تعالى ما خلى أمة إلا وقد خلا فيها نذير، وكل ذلك توفير لنعمة الله وتوسيع دائرة رحمته وبسط لمائدة نعمته وإنما أرسلت ﴿لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من آيات القرآن لتوجيه العباد بحسن الإرشاد إلى الإعتراف بواجب الوجود ووحدته ورسله وشريعته وينبثق من ذلك نور وشعور بالمسؤولية أمام الله العلام، فإن الكائنات لا تبقى بدون نظام، ولا نظام بدون التزام. ﴿وَهُمْ﴾ مع هذه الجهود الجبارة ﴿يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ ويستنكرون العهود والأيمان والإيمان. ﴿قُلْ﴾ معرضا عن أهواء الخلق ومتوجها إلى هدي الخالق: ﴿هُوَ﴾ أي الرحمن الذي يكفرون به ﴿رَبِّي﴾ خلقني وسواني وهداني وأيدني بالعقل السليم، وأنعم علي بالرسول الكريم ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا واجب ولا خالق ولا معبود إلا هو ﴿عَلَيْهِ﴾ لا على غيره ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ حق التوكل ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿مَتَابِ﴾ أي مرجعي فإنه إلى الله تصير الأمور.

قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآَنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (31) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (32) أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (34)﴾

قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ معناه إن هذه الفرقة الضالة الفاسدة يتعللون بما ليس بعلة ويعتذرون بما ليس معذرة، ولا يريدون إلا إستمرارهم على استكبارهم، فهم في نفسية خبيثة فاسدة بحيث ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا﴾، أي قرآنٍ كان، ﴿سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ بظهور آثار عظمة الله ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ قطعا مختلفة فجعلت أنهارا وغابات وعيونا وأشجارا مرتبة مثمرة مظللة ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ بأن يقرأه أحد عليهم فيحيوا، ويتكلم معهم وظهرت هذه الخوارق بذلك الكلام المنزل ما آمنوا به وأصروا على عنادهم واستكبارهم لأن فكرتهم صارت عقدة نفسية، ولا تحل العقدة النفسية إلا النجدة القدسية ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ﴾ الذي يدور عليه الهداية والإضلال وسائر أمور العالم في الماضي والحال والإستقبال ﴿جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من الرسل ومن معه عن إيمان أولئك المتمردين المعاندين ولم يعلموا ﴿أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ ولو لم تظهر له تلك الآثار العجيبة، ولكن الباري بحكمته السارية لم يشأ ذلك، فما دام الأمر كذلك تبين أن القلم قد جف ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا﴾ من سوء الأعمال ﴿قَارِعَةٌ﴾ أي ما يقرعهم من صاعقة سماوية كما خلت، أو من قاصفة جوية، كما نراها، فتقع عليهم بالذات وتهلكهم ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ﴾ على سيئات أعمالهم وآثارهم ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ بتحقيق عذاب يوم القيامة الموعود ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ بمعنى الوعد كالميلاد بمعنى الولادة.

ويا أيها الرسول ليس هذا الإستكبار مختصا بهم معك ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ﴾ كثيرين ﴿مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أجلت عذابهم إلى وقت معلوم مقرر ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بعد أن جاء وقت عذابهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ لا يعلم كيفيته إلا من ذاقه أو شاهده ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ومراقب عليها وعلى أعمالها لمن لا حياة فيه ولا شعور ﴿وَجَعَلُوا﴾ أي الكفار ﴿لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ من هذا القبيل ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ تبكيتٌ إثرَ تبكيت أي سموهم منْ هم؟ وماذا أسماؤهم؟ وفي البحر: إنهم ليسوا ممن يذكر ويسمى، إنما يذكر ويسمى من ينفع ويضر لا ما لا ينفع ولا يضر.

﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أم منقطعة أي أبل تخبرون الله تعالى بشركاء مستحقين للعبادة لا يعلمهم سبحانه وتعالى؟ وهذا أمر مستحيل لأنه يخرج عن علمه تعالى شيء، فإذا ليسوا بشيء ﴿أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وقوله ﴿أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ كلمة أم فيه أيضا منقطعة أي بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول الذي لا مدلول له في الواقع ونفس الأمر؟ ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ إضراب عن الإحتجاج عليهم، أي ليسوا أهل حجة ودليل يناظرون ويستدل عليهم بالأدلة، بل هم قوم سفهاء الأحلام توارثوا شيئا من الأوهام وجعلوها حقائق ودقائق عليها، واستمروا عليها. والمكر يحتمل أن يراد به مكرهم بأنفسهم لأنهم إحتالوا على أنفسهم باعتناق هذه التقاليد الباطلة بشبهة أنها أخذوها من آبائهم، أو مكرهم بغيرهم أيضا لأنهم يغررون بها أناسا جَهَلَةً لا علم لهم بالحقائق الإعتقادية ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي مُنعوا بسوءِ إختيارهم عن سلوك سبيل الحق وأضلهم الله ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يهديهم إلى الخير ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالتقلب في نار الحسد والعناد والقتل والأسر وسائر المصائب إنتقاما منهم ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ لشدته وبقائه ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾

أي من حافظ. يحفظهم وناصر ينصرهم وملجأ يلتجئون إليه، إذ ﴿إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (35) وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (36) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (37)﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ المثل في أصل اللغة صفة مشبهة بمعنى الشبيه. وجاء بمعنى المَثَلِ السائر، أي الكلام الدائر المشهور بين الناس مثل ((لا يلدغ المؤمِن من جحْرٍ مرتين)) وذلك في الاستعارات التمثيلية المشتهرة. وجاء بمعنى الصفة الغريبة، وهو معنى مجازي مأخوذ من المثل بالمعنى المذكور آنفا بعلاقة الغرابة لأن المثل إنما يسير بين الناس لغرابته، وهو في هذه الآية على هذا المعنى، أي الصفة الغريبة العجيبة للجنة التي وعد المتقون أنها منازل غالية وقصور عالية، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فتسقي الأشجار وتنمو وتنضج بها الثمار ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ لا مقسومة على الموسم ﴿وَظِلُّهَا﴾ كذلك لا تتناثر الأوراق منها بالرياح والمهالك و﴿تِلْكَ﴾ الجنة العزيزة ﴿عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ربهم ولم يكفروا به، ولم يشركوا به، ولم يعصوا أمره ونهيه، أي تلك عاقبة حالهم وجزاؤهم في مآلهم ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ﴾ بالله ﴿النَّارُ﴾ وبئس القرار.

﴿وَالَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ نزلت في مؤمني أهل الكتابين كعبدالله بن سلام وكعب وأضرابهما من اليهود، والثمانين المشهورين من النصارى، وهم أربعون بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بالحبشة. فالمراد بالكتاب المعنى الشامل للتوراة والإنجيل ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾. لأن الله لما شرح صدورهم للإسلام وآمنوا بالرسول فبالطبيعة الإسلامية يفرحون بالكلام المنزل عليه لأن الإيمان مستلزم للمحبة، والمحبة سارية في المحبوب وفي ما له علاقة صحيحة به ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي أحزابهم الكفرة الفجرة المارقين ﴿مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ أي بعض ما أنزل إليه وهُوَ الذي لا يوافق أغراضهم الفاسدة ﴿قُلْ﴾ يا حبيبي: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ فمن لا يؤمن بالله أو يشرك به فليس منّا ولسنا منه ﴿إِلَيْهِ أَدْعُو﴾ المكلفين لا إلى غيره ﴿وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ ـي ومرجعي وَحدَه ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا﴾ أي ومثل إنزال الكتابين السابقين أنزلنا القرآن، حالكونه حكما من الله ﴿عَرَبِيًّا﴾ باللغة. وكما أن الهدي في السابق ما كان موافقا لتلك الكتب فالهدي في عصرك هو ما وافق كتابك، وما عداه هو من الأهواء الباطلة التي لا تفيد ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بأن ما أنزل إليك هو الحق ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ يحفظك عن عقابه. والآية تعريض بالناس الموجودين، وإلا فمعاذ الله أن يتبع سيد المسعودين غير ما أمره الله رب العالمين.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآَيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (38) يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (39) وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (40) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (41) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (42) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (43)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ روي أن اليهود عَيَّرَتْ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: نرى هذا الرجل مهتما بالنساء والأولاد وما يتعلق بهما مع أن شأن الأنبياء الزهد عنها وقطع العلاقة والتوجه الصرف إلى الدين وقدسياته. فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ من آدم إلى عصرك هذا ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا﴾ حرائر ﴿وَذُرِّيَّةً﴾ بنين وبنات وحفدة مكرمين ومكرمات، ولم يقدح ذلك في جلالة رسالتهم، ويعلم القادحون أن مسألة الأزواج والجواري في عهد أنبياء بني إسرائيل كانت على نسبة متصاعدة، فما بالهم لم تقدح فيهم وتَقْدَح فيكَ وأنت واحد منهم؟ ثم إنهم لم يزنوا الأمر بالقسطاس المستقيم، فمن الذي قال إنّ أهل النبوة والرسالة والتقوى والجلالة يجب أن يُحْرمَوا من الطيبات التي احلها الله لعباده؟ ثم إن الإشتغال بتلك العلاقات في ساعات محدودة معدودة لا يمنع من الإشتغال بالدين والدعوة إلى الله وإلى الأعمال الصالحة والأخلاق السليمة. فهذه الدعاوى كلها خالية من رعاية الحق والعدل، وإنما هي ناشئة عن الاستكبار والعناد والجهل.

﴿و﴾ إذا أرادوا من وراء هذه الدعاوى أنه لو لم يكن لهم هذه العلاقة كان لهم مجال أنْ يأتوا بآيات من الله تعالى

لإرغام الناس على الإيمان فذلك أيضا شيء باطل لأنه ﴿مَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ كائنا ما كان ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِآَيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ سواء كانت الآية معجزة تعجز الناس عن الإتيان بمثلها أو دعاءً مستجابا لتدمير المتمردين أو آيات بالغة في تنوير افكار الناس، فإن كل ذلك في قبضة قدرة الباري تعالى. وإذا أتى اللوم على بعض منهم لابد من إتيانه على الآخرين، وحاشاهم عن ذلك! وقد أعلن أنه ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وأن ارسال الرسل من سنة الله تعالى في الكائنات بحسب الآجال المتسلسلة و﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (38) يَمْحُوا اللَّهُ﴾ تعالى بحسب حكمته ﴿مَا يَشَاءُ﴾ محوه من الفروع السابقة ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما يشاء ثبوته، وأما الأصول فهي مقررة لا تبديل لها أبد الآبدين ﴿وَعِنْدَهُ﴾ أي عند الباري جل شأنه ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ وهو اللوح المحفوظ الجامع لكل شريعة مقررة في أي زمان من الأزمان، ومادام الأمر كذلك فلا مجال لأي قائل في أي قول بالنسبة إلى المرسلين.

ثم بعد تقرير المعنى المذكور في الآية الشريفة أن هذه الآية الكريمة معترك آراء العلماء والعقلاء من حيث أن الله تعالى إذا تعلق علمه الأزلي بشيء فلا يقبل الزوال والتغير وإلا انقلب العلم جهلا وتعالى عنه فما معنى ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ والجواب: إنه بعد وجود النصوص الدالة على هذا المعنى كهذه الآية، وآية ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ وبعدما تواتر من أدعية الرسول عليه الصلاة والسلام لكثير من الناس بطول العمر ومزيد العلم والعمل الصالح، ودعائه للوقاية من شر القضاء وبعد الأحاديث الكثيرة الواردة في أن الصدقات تدفع البلاء وتزيد العمر، بل وفي تقرير الباري سبحانه ترتب المسببات على الأسباب.. لا وجه قطعا للتردد في أن القضاء منه مبرم لا تعلق له بأي شيء وأي سبب من الأسباب المعروفة عند الناس، ومنه ما يتعلق بالأسباب والشروط التي ترتب عليها

المشروط والمسبب. ومن جملة القضاء المعلق ربط الشفاء للمرضى بإجراء العمليات، وشرب الأدوية، وإسعافهم حسب الأصول، وربط كل أمر ذي علاقة بشرط أو علة أو سبب عادي بذلك، وإن إنكار ذلك مكابرة مع النقل والعقل..

والحاصل إن بعض القضاء جرى بحيث لا يتعلق بشيء من الأشياء التي تقبل الجذب والدفع، وهذا النوع مبرم نافذ ولا يفيد في مقابله أي عمل إيجابي أو سلبي، وبعض منه مربوط بوجود أسباب كزيادة رزق فلان بسعيه في تحصيله، وزيادة عمره بسبب تداويه ومباشرة أسباب الصحة، وزيادة العلم بسبب زيادة السعي في تحصيله، وزيادة الأحباب بسبب كثرة المجاملة. والخيرات الواصلة منه إليهم..

وكما أن هذا النوع من القضاء قضاء معلق قد جرى علمه الأزلي بأن فلانا يأتي بالأسباب والشرائط فيتحقق القضاء فيه، وبعضهم لا يأتي بها فلا يتحقق فيه ذلك، فالمحو لقضاء تعلق علمه تعالى بأن فلانا باشر سبب محوه، والإثبات لقضاء تعلق علمه بأنه باشر سبب إثباته، ونحن لا نعلم ذلك، وانما نعلم على القواعد الإعتيادية أو العلمية أن ذلك الشيء سبب لذلك أو مانع عنه، وعلينا إذا اطلعنا على تلك القواعد السعي بقدر الإمكان، فما تحقق في حقنا عَلِمنا أن علمه تعلق بوجود أسبابه وقد صار، وما لم يتحقق علمنا أن علمه تعالى لم يتعلق بسعينا في تحصيله.

وأما الحديث الشريف الوارد في بعض النذور بأن ذلك لا يرد شيئا من القضاء فقد يجاب عنه بأنه محمول على مادة جرى القضاء فيها بتحقيق الشيء المعهود، ومعلوم أنه لا رادّ له، أو المراد به أن هذا المنذور وإن كان له سببية ما في دفعه لكن المؤثر في الواقع هو الله تعالى لا السبب وهو عين مذهب أهل الدين أو أنه يراد به استكراه النذور بصورة المعاوضة.

والمقابلة، وإلا فردُّ الصدقات للبلايا معلوم بالتجارب عبر القرون والأزمان.. نعم إن الله سبحانه وتعالى يعلم أزلا من الذي يأتي بالأسباب ومن الذي لا يأتى بها، فالأمر بالنسبة إليه محقق مقرر مبرم معلوم لا خدشة فيه قطعا، فالمحو والإثبات من شئونه الفعلية الجارية الثابتة بقوله تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، وبعبارة أخرى من مكتوبات اللوح المحفوظ، والثباتُ وعدم التبدل بالنسبة إلى علمه الأزلي اللازم لذاته الجليل المعبر عنه بأم الكتاب. هذا والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل.

﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾

أصل إمّا: إن ما، وكلمة إن للشرط، وما زائدة لتأكيد معنى الشرط، ولذلك لحقت نون التأكيد بالفعل، والفعل مضارع باب الإفعال للمتكلم مع الغير، وأصله لرئينك كنكرمنك، حذفنا الهمزة للتخفيف، بعد نقل كسرتها إلى ما قبلها، والفاعل نحن، والكاف مفعول أول، وبعض الذي نعدهم مفعول ثان. والمراد به بعض ما وعدناهم من إنزال العذاب. وقوله أو نتوفينك معطوف على الشرط السابق، وحاصل المعنى وكيفما دارت الحال أي إن أريناك بعض الذي وعدناهم من العذاب في الدنيا، أو توفيناك وأخرنا عذابهم فعلينا ذلك وما عليك إلا البلاغ فلا تهتم بما وراء ذلك ونحن نكفيكه ونكمل ما وعدناك به من الظفر وفتح مكة وسائر البلاد، فظهر أن قوله تعالى فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ليسا جوابين للشرطين، لأنهما لا يترتبان عليهما وهو ظاهر، فيحتاج إلى تأويل وهو أن يقدر لكل شرط منهما ما يناسب أن يكون جزاء له مترتبا عليه، وإجمال الجوابين ما ذكرناه أي فلا تهتم بهم. وتفصيلهما: وإما نرينك بعض الذي نعدهم فذلك يشفيك من ألم أعدائك لأنه دليل صدقك، وإما نتوفينك قبل حلوله بهم فلا لوم عليك ولا عتب. وقوله تعالى ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ دليل على الجوابين.

والذي وقع من الشرطين هو الأول الحادث في غزوة بدر الكبرى. وقوله تعالى ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ أي ليس عليك إلا تبليغ ما أنزلنا عليك لا تحقيق مضمون الوعيد. وقوله ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ أي محاسبة أعمالهم السيئة والمؤاخذة بها دون جبرهم على اتباعك أو إنزال ما اقترحوه عليك من الآيات. وفي كل من الجملتين حصران: الأول هو المستفاد من تقديم الخبر؛ أي عليك البلاغ لا على غيرك، وعلينا الحساب لا على غيرنا. والثاني: هو المستفاد من كلمة إنما فيكون المقصور في الجملة الأولى الأمر الثابت على الرسول صلى الله عليه وسلم والمقصور عليه البلاغ أي إنما عليك البلاغ فقط لا تحقيق المقترح منهم. وفي الجملة الثانية المقصور هو الأمر الثابت على الله بمقتضى وعده وسنته والمقصور عليه الحساب، أي إنما علينا محاسبتهم في الآخرة دون جبرهم على اتباعك أو إنزال مقترحهم فافهم هذه المعاني فإنها نافعة.

ثم أشار الباري تعال إلى ظهور تباشير الظفر فقال عزَّ من قائل ليدركوا او يفتهموا بالعيون ليبصروا ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ﴿أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ أي أرض الكفرة ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ وجوانبها بأن نفتحها شيئاً فشيئاً، ونلحقها بدار الإسلام أفبعد ذلك يشكون في سيطرة الإسلام؟ ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ﴾ بما يشاء على من يشاء ﴿لَا مُعَقِّبَ﴾ ولا مُغير ﴿لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ في الآخرة فكما حكم عليهم بالدمار والتباب في الدنيا يحكم عليهم بالحساب والعقاب في الآخرة.

﴿وَقَدْ مَكَرَ﴾ الكفار ﴿الَّذِينَ﴾ خلوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي من قبل كفار مكة بأنبيائهم ورسلهم وبالمؤمنين من أتباعهم، ولم يفد المكر الماكرين، ولم يمنع رسالة الرسل الشاكرين ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ﴾ إبداعه وإضراره بالناس من الأنبياء والرسل وغيرهم ﴿جَمِيعًا﴾ فلا قدر له ولا قيمة ﴿يَعْلَمُ﴾ الله ﴿مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ <38>

من الخير والشر ومن الخديعة والمكر ولا تأثير لشيء من مكاسبهم في أي شيء من مطالبهم إلا بإذن الله، وتنتهي السيئات والحسنات ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي العاقبة الحميدة في دار القرار، هل لهم أو للأنبياء والرسل وأتباعهم الأبرار ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جهلا وتعنتا وعنادا وتزمتا: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ يا محمد، قيل إن قائله رؤساء اليهود، وقيل أسقف يمنيّ سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تجدني رسولا في الإنجيل؟ فقال: لا. فأنزل الله الآية. ﴿قُلْ﴾ في رد من قال هذا القول: ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه إذا شهد بشيء فمن عداه كالفيء ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ لإلزام أصحاب العناد والعتاب، وليس الحق مربوطاً بقول الخلق. <39>

سورة إبراهيم، مكية، وهي اثنتان وخمسون آية نزلت بعد سورة نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (2) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (3) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4)﴾

﴿الر﴾ أنا الله أعلم وأرى ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ هذا كتاب مبين. وهو القرآن العظيم أنزلناه إليك ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ أي الجن والإنسان ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ أي ظلمات الجهل المركب من العقائد الباطلة ﴿إِلَى النُّورِ﴾ أي العلم وهو العلم بالعقائد الحقة، وذلك الإخراج ثابت ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ لأنه لا تأثير للأسباب إلا بإرادة الله تعالى وخلقه وإيجاده وقوله ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ بدل من قوله إلى النور بدلَ الكل من الكل. أي هذا العلم هو

الشرع الشريف الجامع للعقيدة والعمل الذي هو صراط مستقيم قرره الله سبحانه وتعالى لسلوك المسلمين عليه ليصلوا إلى منزل الرحمة الأبدية والنعمة السرمدية، وهذا الصراط قرره ربٌّ عزيزٌ غالب على ما أراد وفعالٌ لما يريد، وحميدٌ في كل فعاله، إذ لا يشوبها عَيْبٌ، وذلك. عبارة عن ﴿اللَّهِ﴾ فقوله ﴿اللَّهِ﴾ بالجر على قراءة السبعة بدل مما قبله ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ والمراد بما في السماوات وما في الأرض الظرف والمظروف فإن التعبير لبيان حيازة الله لكل موجود ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ﴾، الذين يكفرون بوجود ذلك المالك أو بوحدته ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ لا يتحمل إلا بالإلجاء.

ثم جاء بصفات لأولئك الكافرين تؤهلهم لِذلك العذاب الشديد بقوله ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآَخِرَةِ﴾ وهذه الصفة مِلاك الجهل والسفاهة، فإن من لم يتفكر في ملكوت السماوات والأرض ونظامهما وميزان دورانهما وما يجري على نظام متقن عجيب بديع حتى يعترف بخالق حي قيوم قادر ويشعر بمسؤليته إزاءه وإزاء سائر ما خلقه الخالق، ولم يعرف نفسه إلا بصفة كائن حي مرزوق يعيش مدة ويموت ويمحى مستحق لذلك العذاب الشديد وبقوله ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني علاوة على ما سبق مما كان مدلوله عدم الإيمان برب العالمين أضافوا صفة فاسدة إلى ذلك وهي أنهم يصدُّون الناس ويمنعونهم عن سلوك سبيل الله وهو الدين الإسلامي القويم، وأي جريمة أشنع من تجهيل الناس وتعطيل حواسهم ومشاعرهم عن ادراك الحق واتباعه بالأوهام والخرافات والشبهات؟ وقد كان كفار مكة كذلك، إذ كلما رأوا واحدا آمن بالله وبرسوله مَنَعُوه، فإن امتنع وإلا عَذَّبوه وهجروه. وبقوله ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يعني علاوة على كفرهم بالله وصدهم عن سبيل الله يَرمون نفس الدين والصراط بالإعوجاج. وأنه ليس مما

يناسب الإنسان ويحتمل أن يكون هذا الكلام من تتمة الصدّ والمنع، أي يجعلون هذا الوصف المفتَرى دليلا على وجوب صد الناس عن دين الإسلام وأن يكون كلاما مستقلا ودليلا قائما بذاته لأن الدين المعوج الذي لا استقامة فيه على مزاعمهم الباطلة لا يجوز اعتناقه، ويجوز أن يكون اضافته إلى الصد بالنسبة للأقوياء، وإلا فالضعفاء يمنعون قهرا بدون تعليل واستدلال أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ عن الوصول الى الصراط المستقيم لأن في طبائعهم نفورا عن الدين، وزاد عليها التقليد الأعمى، وأضيف اليهما العناد والاستكبار.

وَمَا أَرْسَلْنَا في الأمم السابقة والأزمنة الغابرة مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ أي إلا متكلما بلغة من أرسل إليهم لِيُبَيِّنَ لَهُمْ الشريعة بيانا شافيا لأمراض القلوب كافيا لهم الحقائق ذلك لأن الاتفاق لغتي المتكلم والمخاطب وتوافقهما في اللهجات التعبيرية والأمثال والآداب الحكمية والمصطلحات القومية دَوْراً هامّاً في الإفهام والتفهيم والإرشاد والتعليم وكان غايتنا من إرسالك إلى قومك ذلك المعنى المطلوب، وكان الواجب عليهم والمناسب لسعادتهم أن يسمعوا ويَعُوا ويطيعُوا لأن كلامنا منزل على أفصح لهجة من لغتهم وهي لغة مضر، والمبلغ. أفصح إنسان في العرب وأوضح بيانا منهم وأشرح صدرا من حكمائهم وشعرائهم وخطبائهم، مع أن كثيرا منهم تمردوا وعاندوا فضلوا وأضلوا فتبين من تجارب عصور النبوة والرسالة أنه فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ ضلاله وَيَهْدِي إلى الحق بعنايته مَنْ يَشَاءُ هدايته وهو العزيز الغالب على ما أراد والحكيم في صنعه مع العباد.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (5) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7) وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (8)﴾

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا﴾ أي ومن جملة أولئك الرسل الذين أرسلناهم بلغة قومهم موسى بن عمران عليه السلام ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ أي أخرج قومك ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي من ظلمات الجهل التي أتت عليهم من سيطرة فرعون وأشياعه وهي ظلمات عبادة الأوثان والركون إلى المادة ونسيان المعنى. وظلمات الإسترقاق والتسخير لخدمة من لا تأتيهم إلا بالوهن على الوهن والضعف على الضعف إلى نور الحرية والعمل للذات المثمر لكرامة صيانة تراث النبوة في النسل، وإلى نور عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، كما قررها في الأرض جدهم إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ أي بأيام نعمه وبلاياه، أي ذكرهم بأن الله كما بيده إفاضة النعم على عباده في أيام ومواسم، كذلك بيده إنزال المصائب والنقم في أيامٍ وأزمنةٍ، فلا تيأسُوا من روح الله ولا تأمنوا مكره ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التذكير ﴿لَآَيَاتٍ﴾ عظيمة ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي لكل إنسان كثير الصبر على بلائه وكثير الشكر على نعمائه فإذا جاءه بلاء ينتظر الجلاء، وإذا جاءته نعم يشكره عليها حتى لا يعقبها نقم ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ امتثالا لما أمره به الله تعالى:

اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ أي يبغونكم ويولونكم سوء العذاب حيث سلبوا عنكم كل الحريات الدينية والدنيوية وحقروكم وسخروكم في الخدمات الصعبة وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ حتى لا يبقى فيكم مُطالِبٌ للحقوق مُحارب وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ لا رحمة بكم ولا بهن بل ليستخدموهن في المهن البيتية وسائر الأمور وَفِي ذَلِكُمْ الأفعال الشديدة بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ لا يتحمله إلا مضطر متعود على الإعتساف و اذكروا إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ أي أذن إيذانا بليغا وأعلن إعلانا بالغا درجته لَئِنْ شَكَرْتُمْ على نعمة إنجائكم من فرعون وأتباعه لَأَزِيدَنَّكُمْ نعما على النعم فنزيدكم نعمة السلطة على الوطن بعد أن خلّصناكم من سطوتهم وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ بتلك النعمة إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ وعوده عليكم لا يحتاج إلى زمان مديد وَقَالَ مُوسَى لقومه: إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ من الناس جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ مستوجب للحمد بذاته تعالى فشكركم له تعالى مما تحتاجون إليه أنتم وليس هو محتاجا إلى ذلك.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (10) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (12)

قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ قال بعض المفسرين: من تتمة كلام موسى عليه السلام لقومه بعدما نَصَحهم بالأوجه السابقة. وقال بعض منهم: إنه استئناف كلام من الله تعالى، وتوجيه خطاب وعتاب للمشركين ومن حاذى حذوهم، فيقول في مقام النصح والوعيد: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ﴾ كفروا ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وقوله ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ بدل مما قبله أي وهم قوم نوح ﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ﴾ عَدَداً أو عدداً ﴿إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالآيات الواضحة لبيان العقائد والأحكام، أو بالمعجزات الواضحة التأثير وواضحة الدلالة على أنها من الله تعالى، وأن من نزلت عليه رسول من الله. ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي فرَدوا أناملهم في أفواههم وعضوا عليها غيظا وحقدا ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ على زعمكم يعني لسنا مؤمنين ولا نؤمن بالكتاب الذي تزعمون أنكم أرسلتم إلينا به لتبليغه ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ وإنا بلا شبهة وتردد في قلوبنا شك مورث للقلق العميق في ما تدعون إرسالكم به إلينا فلسنا مؤمنين لا بالله الذي أرسلكم ولا برسالتكم، ولا بالكتاب الذي تقولون أنكم أرسلتم به إلينا.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ في استنكار ما أبدوه من وجود الشك والريب فيما جاؤا به: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هل يصح وهل ينبغي<45>

أن يكون لكم شك وتردد في الذات الجامع للكمالات المنزه عن النقائص الـمُعْلَم باسم الجلالة، الموصوف بفاطِرِ السماوات والأرض ومبدعهما من العدم إلى الوجود مع أن كل عاقل له نور وشعور ويتفكر بقلبه وينظر بعينه في آثار قدرة الله تعالى اللائحة على العالم على نظامٍ ثابتٍ مستمر يعلم ويتيقن أن هذه الكائنات، وأن هذه الحركات، وأن هذا الليل والنهار، وأن هذا الدوران والإستمرار لا يمكن إلا من خالق حي قيوم قادر قهار؟ ! والحال أنه ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى عبادته وإطاعته ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ بسببه ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي ويؤخر مماتكم وانتقالكم من هذه النشأة إلى وقتٍ سماه الله وعينه لانتهاء أمدكم. ومعنى الآية أن طول حياتكم معلقة بإيمانكم، فإن آمنتم تأجل الموت إلى أمد مديد وإلا عجل الله لكم بالاستئصال والعذاب الشديد. ﴿قَالُوا﴾ أي القوم الذين أرسل الرسل إليهم ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ من غير اختصاص بمزية وفضل ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا﴾ وتمنعونا بما تدعوننا إليه ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آَبَاؤُنَا﴾ من الأوثان والأصنام فأتونا بسلطان مبين على رسالتكم ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ كما تقولون ولكن كلامكم هذا لا يوجب مطلوبكم وهو مساواتنا معكم في كل الأمور، فإن الله يمنّ على من يشاء من عباده المستوين لغيرهم في البشرية ببعض المواهب والمزايا فجعلنا من هذه الزاوية مشمولين لرحمته وشرفنا برسالته ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ﴾ أي بحجة من الحجج فضلا عما اقترحتموه إلا بإذن الله ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ في شئونهم كافة. فما ادعيتم من استوائنا معكم في البشرية صحيح، ولكنه لا يوجب منع المواهب الخاصة كالرسالة وغيرها، وما ندعيه من الرسالة حق ولكنها لا يوجب أن نقدر على شيء من الآيات إلا بإذن الله. فلنعد جميعا الى الإعتدال ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ أي وقد أرشد

كلا منا إلى طريق سعادته في دنياه من أسباب معيشته بشتى أصناف المكاسب من الزراعة والتجارة والصناعة والفنون الدقيقة الأرضية والسماوية من علم الانواء وغيرها، وفي دينه عن طريق نجاحه بالنوافل وأصناف الخيرات والمبرات باليد وباللسان وبسائر الجوارح والقوى ولا يدري أحد من أين جاء هذا المدد والتوفيق ومن أين حصل هذا الثراء والترزيق ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾ ومادام الله عاملنا وجاملنا وهدانا سُبُلَنا فوالله الذي لَه الأمر كله لنصبرن ﴿عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ فإنها أمر مؤقت يذهب ويفنى ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لأنه مصدر كل خير في الدنيا والدين.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (14) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (16) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (17) مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (18)﴾

قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي وقال قادة الذين كفروا وسادَتُهم ﴿لِرُسُلِهِمْ﴾ مُتَوعَدين لهم مستكبرين ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ وهذا الكلام مبني على التوزيع. أي وقال قائد القوم

الكافرين في كل زمان لرسول ذلك الزمان لنخرجنك من أرضنا أو لتعودن الى ملتنا. فالحلف جار على المنفصلة الحقيقية وهي إخراجهم عن الأمة مع بقائهم على مهمة الرسالة أو بقائهم فيها مع العود الى الكفر.

﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ في تلك الحالة الحرجة أن اثبتوا على المهمة مع علو الهمة، ولا تهتموا بوعيد أولئك المتمردين فوالله ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ المتوعدين لكم بحيث لا يبقى لهم أي مجال ومقال ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ﴾ التي طغوا فيها ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد إهلاكهم ﴿ذَلِكَ﴾ الإيحاء ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ أي لرسول خاف موقفي الرهيب ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ وهم الرسل الكرام وأتباعهم المؤمنون الصادقون الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه لأنهم هم المؤمنون الذين يخافون الموقف الذي تقام فيه العباد للحكم يوم القيامة، وهم الذين يخافون وعيد الباري سبحانه وتعالى وعقابه، وهذا الخوف خوف الهيبة والرهبة والإجلال فلا ينافي كونهم معصومين مبشرين بلقاء الله تعالى يوم الآخرة، فإن أهل الشرف هم أهل المخافة.

﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ أي وبعد أن أوحى إليهم ربهم بما ذكر طلبوا الفتح من الله تعالى بقوة القلب والعزيمة الصادقة لأنهم علموا أن الوقت وقت التضرع والابتهال الى ذي الجلال، ولعلهم عند الإيحاء إليهم بما ذكر أمروا أيضا بالإستفتاح حتى يكون إهلاك الظالمين على حسب دعواتهم ويكون له منة عليهم. ويؤيد هذا المعنى قراءة واستفتحوا بصيغة الأمر أي فاستفتحوا. وتقبل الله طلب الفتح والنصر منهم ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ معاند للحق متكبر طاغ على الاستغناء.

﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي حالكونه من قدامه وبين يديه جهنم أي أن خيبته لم تكن خاتمة آلامه بل كانت مقدمة لعذابه وعقابه ونكاله ووباله ﴿وَيُسْقَى﴾ بعد عطشه من حرّ جهنم ﴿مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ وهو الذي يسيل من أجساد أهل النار أو من ماءٍ مستكره يصد عنه ويعرض لأنه

لا يطفئ حر العطش وحال ذلك الماء أنه يتجرعه طالبه ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ ولا يقرب له إساغته واحداره من الحلقوم الى محله المعتاد لشدة حرارته أو لاختلاطه بمواد مانعة عن الإنحدار بسهولة ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي ويقاربه الموت من كل جهة وجانب. يعني أنه يقع في هول شديد ويحاول الخلاص بشتى الوسائل، لكنه أينما توجه وَجَدَ بوادِرَ الهلاك ولم يأنس الخير والخلاص ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي والحال أنه ليس بميت حقيقة ولم يبق مجال عروض الموت لأن تلك الدار دار الخلود ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي إذا اعتبرنا الأحوال السابقة أحوال الكفار في البرزخ فالمراد بقوله ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ﴾ زمان مجيء الآخرة ويكون غلظ عذابه مبنيا على انتهاء حسابه وعلمه بدوام عقابه وعذابه، وان كانت أحواله في الآخرة فمعناه ليس له مجال تخفيف العذاب لأن الكفار لا يخفف عنهم العذاب، بل في كل زمان وأوان يعذبون فيه يكون وراء ذلك عذاب غليظ قوي يناسب حالهم وكفرهم واعتقادهم الإستمراري في أيام دنياهم. أعاذنا الله بفضله ورحمته عن كل عقيدة فاسدة وعمل سيئ.

ولما كان المقام مقام أن يسأل كيف يكون هذا الجزاء الشديد المديد للكفار في ذلك اليوم مع أن كثيرا منهم كانت له الأعمال الحسنة كصلة الأرحام وإطعام الطعام والطاعة حسب أصول أديانهم وتسوية الطرق وإنشاء الجسور وهندسة القصور ونشر علوم يستفاد منها.. أجاب عن ذلك الباري تعالى بقوله الكريم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أي صفتهم الغريبة هي أن ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ أي حملته وأسرعت للذهاب به ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي يوم مشتد الريح، فكما أن ذلك الرماد لا يبقى له أثر في ذلك اليوم كذلك أعمالهم ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ أي يوم القيامة مما كسبوا في أيام حياتهم على شيء من الجزاء الحسن أو تخفيف عذاب، وهذا شامل لكل

الكفار.

روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله إن ابن جدعان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين هل ذلك نافعه؟ قال: لا ينفعه لأنه لم يقل ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين.

وهنا سؤال آخر هو أن الكفار منهم من له أنواع من الحيل والأعمال المدمرة بالنسبة للناس من المسلمين وغيرهم، وأشكال من التعذيب بالنار، وبالأشرار وبالحيوانات الضارية المعلمة، وبالسجون المظلمة.. فكيف يتساوى جزاؤه وجزاء كافر مستور في محل يعيش على كسبه لا يضر ولا ينفع؟ والجواب إن الذي تحقق هو أن عذاب الكفر الصرف عذابُ مقرر ومقدر، وأما عذاب الأعمال السيئة مما قلتم فذلك يزاد عليه موافقة لأعماله حتى يكون جزاؤه جزاء وفاقا. وهذا هو المناسب لفضل الله تعالى وعدله ورحمته وحكمته. ويرى بعض العلماء أن الأعمال الصالحة الدنيوية تقابل بجزاء لهم في الدنيا فيكون المراد بقوله تعالى ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أنها حبطت بالنسبة إلى الآخرة ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾. ﴿ذَلِكَ﴾ الذي دل عليه البيان بالمثل المذكور ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ عن الوصول إلى طريق الحق والصواب.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (20) وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (21) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (22) وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (23)﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته، أو خطابٌ لكل من يصلح للخطاب. أي ألَم تُدرِكْ بالعقل والعلم الناتج منه استدلالاً قطعيا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَلَقَ﴾ وحده بدون علاقة غيره ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي العلويات والسفليات بالنسبة لكل مخاطب خلقا متلبسا بالحكمة منها ظهور ذاته العظيم على العقلاء، ومنها طاعتهم له وحده، ومنها تعمير الكائنات بالأعيان والأعراض النافعة بدون حاجة إليها.
وإذا أدركتم أن الله هو الذي خلق هذه الأشياء بالحق علمتم أنه ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يبدكم عن بكرة أبيكم ويمحكم إمحاء صِرفا بحيث لا يبقى منكم شيء إلا الخبر ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ في محلكم إذا كنتم كافرين فهم مؤمنون، وإذا كنتم جاهلين فهم عالمون، وإن كنتم كسالى عن العمل فهم عاملون بحيث لا تكون بينكم وبينهم مناسبة إلا بالمباينة، فبأي شيء تعتزون؟ وعلى أي سند تستندون؟ ﴿وَمَا ذَلِكَ﴾ الإذهاب والإتيان ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ العليم القدير ﴿بِعَزِيزٍ﴾ أي بمعتذر أو متعسر بل سهلٌ في سهل من الأمور.

ثم بعد أن بين الله سبحانه وتعالى حال الناس في دنياهم أخذ يذكر حالهم في دار آخرتهم ويقول: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي وسيبرزون ويظهرون يوم القيامة أمام الله لمحاسبة الأعمال وتقرير المصير والمآل، فلما اجتمعوا وظهرت بوادر الأحوال والأهوال، وأن هذا اليوم هو اليوم الموعود المشهود، وندم المجرمون على جرائمهم وفَرِحَ المؤمنون بمكارمهم ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ من الكَفَرَةِ ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿لَكُمْ تَبَعًا﴾ في إنكار دين الله وبعث رسول الله ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي أنا اتبعناكم فيما كنتم فيه من الضلال، فهل أنتم اليوم دافعون عنا من عذاب الله من شيء؟ ﴿قَالُوا﴾ أي المستكبرون في جواب الضعفاء: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ في الدنيا إلى الخير من الإيمان والعمل الصالح ﴿لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ إليهما أي لو هدانا الله اليوم إلى وسيلة خلاص من هذه الأهوال لهديناكم إليها، ولكن لا هداية فلا رعاية ولا وقاية لنا ولكم ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ والحالة هذه ﴿أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾ على الحساب والعذاب ﴿مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ أي ميلٍ وفرارٍ. والمحيص إما مصدر ميمي أو اسم مكان، أي لا مفر نفرّ إليه.

وبعد إتمام الحساب وإصدار الأمر بالعذاب لامَ الناسُ ضعفاؤهم وكبراؤهم الشيطان، وقالوا إنك أنت الذي أغوانا وحولنا إلى هذا المصير فأين وعودك وعهودك؟ ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ في جوابهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ﴾ على أَلْسِنَةِ الأنبياء والرسل ﴿وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ﴾ وعد الباطل ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ دعوة فارغة عن سلطانٍ وحجة ﴿فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بدون بصيرة وشعور ولا دليل يأتي بالنور ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ على إخلافي لموعدي فإن المُشْتَبِهَ لا وعد له حتى يُطْلَبَ منه الوفاء أو يلامَ إذا أَخْلَفَ ﴿وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ حيث استجبتم لي

﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي بمغيثكم ومنجيكم من العذاب الذي أنتم فيه ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ أي بمنجين لي مما وقعت فيه ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ﴾ أي كفرت بإشراككم إياي لله تعالى في الطاعة في الدنيا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل هذا اليوم ولا مجال لي لأي محاولة لنفسي ولا لكم ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهذا قطع كلي لأطماعهم في أي نوع من الفائدة المأخوذة من الشيطان وأعوانه، وهم، وإن لم يشركوه ظاهرا في الأعمال، لكنهم اشركوا غيره على تلبيسه.

﴿وَ﴾ لجريان قضاء الله تعالى بالعدل الرباني ولرغم أنوف الشيطان وأتباعه الكبراء والحقراء ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ وذلك بإذن ربهم الرءوف الرحيم العادل الحكيم ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أي تحية الداخلين ﴿فِيهَا﴾ أي في الجنة من جانب الملائكة الكرام المستقبلين لهم ﴿سَلَامٌ﴾ وقد أتى هذا مفصلا في أواخر سورة الزمر بقولهم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (26) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (27)﴾

قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ الخطاب للحبيب، أو لكل عاقل مجيب. أي ألم تعلم كيف ذكر الله تعالى مثلا ووضعه في الموضع اللائق وهو استعماله مع أمة الرسول العربي الكريم الذي هي خير أمة أخرجت للناس ليستفيدوا منه؟ ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الصفة والموصوف بدل من قوله مثلاً، وقوله ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ صفة للبدل، ويجوز تراكيب اخرى ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي ضارب ذلك الأصل بعروقه في أعماق الأرض بقدر ما يتطلبه نوع الشجرة ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي والأغصان العالية منها ارتفعت نحو السماء ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ أي تعطي ثمارها في كل وقت وزمان ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بإرادة خالقها جل جلاله. وفي بيان الكلمة الطيبة أقوال منها: أنها شهادة أن لا إله إلا الله، ومنها أنها القرآن الكريم، ومنها أنها التسبيح والتنزيه، ومنها أنها الطاعات، ومنها أنها كل كلمة حسنة. وإذا نظرنا إلى المشبه به فتفسيرها: بالشهادتين أوفق التفاسير، لأنهما صنوان على أصل واحد وهو الإيمان ولهما أغصان وفروع لا تتناهى مثمرة وتوجدان عند كل مؤمن في كل زمان ومكان ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيتفهمون المعاني المقصودة منها ويقتدرون على تصوير المعاني المعقولة بصور المباني المحسوسة. ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي كلمة ناطقة بما يخالف الإسلام أو كل كلمة لا يرضاها الله ورسوله ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ لا يرغب فيها أحد لا فيها ثمر ولا خير ﴿اجْتُثَّتْ﴾ أي اقتلعت ووقعت ﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ على استقامتها لأن المقتلعة لا تنبت مرة أخرى فشأنها البقاء على الأرض لتيبس أو تحرق وتذروها الرياح. والمقصود من المثالين بيان حال المؤمن وكلمته ومنفعته وثمرته وبقائه نافعا لبني دينه وشريعته وأمته.

ثم الكلمة الطيبة هي القول الثابت المطابق للواقع الآتي به الأنبياء والرسل الكرام مَرَّ العصورِ والأيام وذلك القول قول المؤمن الموحد

توحيدا سالما من الشوائب الذي استقر في العـالم ببعث النـبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم، ويمدحُ الله تعالى أصـحابه بقوله ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ أي بالله وملائكته وكتبـه ورسـله وباليوم الآخرِ وبالقدر خيره وشره. والمعنى إن الله يثبت أولئك المؤمـنين على العقائـد السـليمة، والأعمـال القويمـة، والأخلاق الكريمــة؛ فلا يــؤثر فيهم إضــلال النــاس وإخلالهم، ولا تعــذيب الناس لهم وتأنيبهم، فيكونون كالطّود الشامخ ببركة ذلك القول الثابت وقوته ورِباطـه في مـدة الحيـاة الـدنيا حـتى يكـونَ آخـرَ كلامِهِم، وفي وقت الدخول في عالم الآخرة أي عند عود الحياة البرزخية في القبر أو أي محل آخـر كـان. فكمـا تكلمـوا بـه في الدنيا تكلموا به في آخر أوانها، وكما أعلنوا بها فيها، أعلنـوا بهـا في جـواب الملكين في القـبر الـذي هـو أول مـنزل من منـازل الآخرة.

أخـرج ابن أبي شـيبة عن الـبراء بن عـازب أنـه قـال في الآيـة: التثبيت في الحياة الدنيا إذا جاء الملكـان إلى الرجـل في القـبر فقالا له: من ربك؟ قال: ربي الله. قالا: وما دينـك؟ قـال: ديـني الإسلام. قـالا: ومن نبيـك؟ قـال نبـيي محمـد صلى اللـه عليـه وسلم. وعلى هذا فالمراد بالآخرة يوم القيامـة، وبالحيـاة الـدنيا الحيـاة في الـدنيا وملحقاتهـا وهي القـبر الموجـود في الـبرزخ وأخــرج الطــبراني في الأوســط وابن مردويــه عن أبي ســعيد الخدري قال: سمعت رسول الله صلى الله عليـه وسـلم يقـول في هــذه الآيــة أي ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُــوا بِــالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ... القـبر﴾ وعلى هـذا فـالمراد بالحيـاة الدنيا مدة الحياة. وإلى ذلك ذهب الجمهور من العلمـاء. وليعلم المؤمن أن تلك الحياة الموجودة في القبر حياة برزخية تتصــور عند الميت بأنه إنسان يرى في نومـه أنـه جـالس بين جمـع من الأصدقاء والأحباء يتفاهمون ويتكلمون فيمـا بينهم، وهـذا النـوع من الحياة البرزخية والإدراك لا ينفك

عن الميت في عالم البرزخ إلى يوم البعث والنشور. وإن كانت لها درجات على مناسبة قدسية أرواح للفرق الفارق بين النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وتلك الحياة موجودة عند الكافرين أيضا. وعلى ذلك خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم قتلى بدر بقوله: ((إنّا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟)) ولذلك أجاب عن كلام عمر: ((هل تسألهم وهم أجساد جِيَفٌ؟)) بقوله الكريم: ((والذي نفسي بيده إنكم لستم بأسمع منهم ولكنهم لا يطيقون الجواب)) أو كما قال.

﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ أي يخلق فيهم الضلال عن الحق الذي ثبت عليه المؤمنون لسوء اختيارهم الناشئ عن سوء استعدادهم ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من تثبيت المؤمنين وإختلال الكافرين حسبما توجبه مشيئته التابعة لعلمه الحاكي عن أحوال العباد وأفكارهم وأعمالهم من أهل الغي والرشاد.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (28) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (29) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (30) قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (31) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34)﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ لما كان القائد السيئ الأفكار والأخلاق يقود قومه إلى الدمار، والقائد الحسن التدبير والأفكار والآثار يقودهم الى السعادة في الدنيا وفي دار القرار جعل الله سبحانه وتعالى أعمال القادة المفسدين منشأ لسوء عاقبة الامة التابعة لهم فقال على وجه التعجيب لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ أي ألم تنظر الى سوء أفكار وأعمال القادة المفسدين الذين بدلوا شكر نعمة الله كفرا؟ فبدل أن يشكروه عليها كفروا به وبها. والمراد بهم قادة أهل مكة؛ فإن الله تعالى أسكنهم حرمه، وجعلهم قوام بيته، وأكرمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم فكفروا بنعمة الله، فضربهم الباري تعالى بالقحط سبع سنين، ووقع فيهم القتل والأسر والتمزق والتفرق، فحصل لهم الكفر بدل الشكر والنقمة بدل النعمة. ومع أنهم كانوا مورد النزول فالآية عامة لكل قادة يقودون القوم إلى الفساد. أعاذنا الله تعالى ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ أي أنزلوا قومهم في دار الهلاك أي في منزل أو منزلة لا يكون نصيبهم فيها إلا الهلاك. وذلك المنزل ﴿جَهَنَّمَ﴾ عطف بيان للدار ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حال من الدار أي يدخلونها ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ والمخصوص بالذم محذوف أي جهنم.

﴿وَجَعَلُوا﴾ أولئك الكبار ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد ﴿أَنْدَادًا﴾ أي أمثالا في العبادة ﴿لِيُضِلُّوا﴾ قومهم ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي عن سبيل الله القويم ﴿قُلْ﴾ لأولئك القادة الى السوء: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ بما تلتذونه وتستفيدون منه زمانا قليلا ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ﴾ بعد زمان حقير قليل

﴿إِلَى النَّارِ(30) قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ بالله ورسوله: ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ إقامة بها الثمرات المجتناة من الانتهاء عن الفحشاء والمنكر ﴿وَيُنْفِقُوا﴾ على الفقراء والمساكين وفي سائر طرق الإحسان ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ الأولى بمقام يخاف منه الفتنة كالرياء وما شاكلها، والثاني أولى بمقام منزه عن ذلك أو كان مناسبا لتعويد الناس على الإنفاق في الخيرات ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ﴾ حتى يعامل الناس مع غيره معاملة تجلب الأرباح وتجبر الخسارات ﴿وَلَا خِلَالٌ﴾ أي مخاللة ومحابة وتعاون مبني على الصداقة بينهم لدفع مكروه أو جلب محبوب.

وقوله تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في صورة الإستئناف في تحصيل ما يوجب مرضاته تعالى، ولكنه بحسب المقام خبر لمبتدأ مستفاد من بيان حال السعداء والأشقياء الذين سعدوا بطاعة الله أو شقوا بمعصيته، فكأنه هو أي الذات الذي سعد السعداء به وشقي الأشقياء به ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ بالوحي المتوارث من الرسل المؤيدين بالمعجزات وبالبراهين القاطعة المستقاة من المقدمات البديهية.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ من المزروعات والمغروسات وغيرهما كأنواع النبات النابت به على الأرض ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ وحكمه وإقداره لعباده الصانعين للمراكب البحرية ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ التي ليست قابلة لسير السفن سخرها للعبور بدون السفن، ولأخذ المياه منها بالجداول لسقي الأراضي المكروبة وشرب المياه المطلوبة ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ﴾ لإضاءة العالم حتى يستفيد أهله من المكاسب والمعايش ﴿وَ﴾ سخر لكم ﴿الْقَمَرَ﴾ بالليالي حتى تسير القوافل في أشعة نوره حالكونهما ﴿دَائِبَيْنِ﴾ أي دائمين في عملهما حسب ما سخرهما الله تعالى له ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يتعاقبان حتى يتهيأ زمان لهدوء

أعصاب العمال واستراحة نفوسهم وأبدانهم من كدّ مشاق الأعمال ويتجدد زمان للإستمرار في العمل النافع للحال والمستقبل مَرَّ الأجيال. ﴿وَآتَاكُمْ﴾ أي هيأ لكم ووفر اسباب تحصيله عندكم ﴿مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ حسب مجاري العادات وتطور الأزمان فهيأ السدود لخزن المياه لتتوفر المحصولات والمكائن لحرث الأراضي وبث البذور فيها، وللحصاد وتصفية الحبوب وإخراجها إلى مقام الإستفادة منها. والسيارات لنقل الركاب والطيارات لقطع المسافات الشاسعة أرضا وجوا لنيل المطالب من وصول البلاد في بضع ساعات. وهيأ الكهرباء لتنوير الدنيا ورفع ظلمة المنازل في الليالي والسراديب في النهار ولوقاية الإنسان وحوائجه من الحر الشديد ولدفع برودة الهواء في الشتاء القارص، وعلم الناس الطب الوافي بمدافعة الأوبئة والأمراض.. وكل ذلك ناتج عن إلهامه العلم لأصحاب المعارف ببعض فوائد المواد المصنوعة، ويمكن أن يكون فيها فوائد أخرى لم تكتشف بعد يقربها إليكم العلم في المستقبل القريب أو البعيد. ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ أي وإن أردتم عدها لا تحصوها ولا تضبطوها؛ إذ كلما اطلعتم على نعمة استفدتم نعمة أخرى... وهكذا فيطول العدّ بلا مقدار ولا حدّ. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ﴾ بإنكار المنعم ونعمته ﴿كَفَّارٌ﴾ بالقصور عن أداء شكرها ونسأل المولى الكريم أن يجعلنا من الشاكرين وبالقلوب والألسنة من الذاكرين آمين.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (36) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (38) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (39) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (41)﴾

قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ مفعول لفعل محـذوف أي أذكـر ذلك. الوقت ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ﴾ يعني مكـة المكرمـة زادهـا الله شرفا ﴿آمِنًا﴾ أي ذا أمنِ ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُـدَ الْأَصْـنَامَ﴾ بعدني وإياهم عن التذلل التقليدي المفتعل للأخشـاب والأحجـار ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْـلَلْنَ كَثِـيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ أي تسـببن في ضـلال الناس بسبب بعض أوهام تقليدية لا أصل لها ولا أسـاس ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي﴾ في عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي كجزء مني أو قريب مني ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ أي لم يتبعـني ﴿فَإِنَّكَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ﴾. أي قادر على أن تغفر لـه وان جـرى اخبـارك المقـدس بأنك لا تغفر لمن يكفر بك وتغفر ما دون ذلك لمن تشـاء ﴿رَبَّنَـا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي بعض ذريـتي أي إسـماعيل ونسـله ﴿بِـوَادٍ غَيْـرِ ذِي زَرْعٍ عِنْـدَ بَيْتِـكَ الْمُحَـرَّمِ﴾ بتحريمـك إياهـا عن تعرض الناس لصيدها وأشجارها ونباتها، أو المحرم بصيانتك عن إسـتيلاء الجبـارين وقهـرهم على أهلهـا ﴿رَبَّنَا﴾ أسـكنتهم هنـاك ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ لا لغاية أخرى، وخص الصلاة بالذكر أنها عماد الدين وركنه الركين ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْـوِي إِلَيْهِمْ﴾ أي تسرع إليهم شوقا إلى

طواف كعبة ووَداداً لها ووتـذكراً لبنائها لإقامـة الـدين وتوحيـد الناس في التوجـه إليها ليكـون ذلـك سـببا للوحـدة والإعتصـام ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ التي تجلب إليها من النقـود المعدنيـة الذهب والفضة والأقوات والأدهان والألبسة والفُرُش والمواعين وسـائر الأشـياء المحببـة للنـاس ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْـكُرُونَ﴾ اللـه أي يأخذونها ويتنعمـون بها ويشـكرون اللـه تعـالى على تلـك النعم التي لا تحصى.

ثم لما بين أن ذريته التي سكنت في الوادي تحتاج إلى المعونـة بالرزق والإمتاع من كل الثمرات وأنه طلب منه تعالى إمـدادهم بها قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ فتعلم أن ما نريده للتقوية على الطاعـة ونشـر توحيـد اللـه تعـالى في الأرض، ولا نريـد تخصـيص بعض ذرياتنـا لـذلك. أو إنـك تعلم مـا نخفي من الحاجيات لجهلنا به أو لعدم سماح الوقت ببيان كلها، ومـا نعلن منها لكونها معلومـة محـدودة ﴿وَمَـا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَـيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ لأن العالم بعلم هـو صـفته الأزليـة يستوي إدراكه لكل معلوم جزئي أو كلي علوي أو سفلي.

ثم شرع بحمد الله تعالى على أن أضـاف الى خـوارق العـادات التي أعطيها من نجاحه ونجاته من نار نمـرود وغلبتـه عليـه في المحاجة مع ذلك العدو اللـدود، وخلاصـه من أولئـك المتمـردين إلى أرض فلسـطين المباركـة بأهـل الركـوع والسـجود، وتلقي ملك مصر له بالإكرام والإحترام، وإعطائه الجارية أم إسـماعيل وإسكانهما في أرض مكة، وإقدار اللـه تعـالى على بنـاء الكعبـة الشريفة أن وهب له وهو في عمر لا يناسب التوليـد إسـماعيل وإسـحاق الأبـوين الطـاهرين للأنبيـاء والرسـل الكـرام.. فقـال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْـمَاعِيلَ وَإِسْـحَاقَ﴾ أي وهب لي مع تجاوز عمري عن حد الايلاد ذينـك الابـنين الجليلين ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ولذلك أجابني عندما

طلبت منه الأولاد فإذا تقبلت مني أدعيتي في ما مضى من حياتي فيا ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بك وبرسلك ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.

وقد يستدل بهذه الآية على أن آزر الذي كان يدعوه باسم الأب عندما استغفر له وقال ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ لم يكن والده وإنما كان عمه ويدعوه باسم الأب لتربيه عنده. وأما هذا الذي استغفر له هنا فهو والده الذي ولده فجمعه مع والدته، وإلا فلو كان ذلك ما كان يستغفر له بعد النهي عنه. فتأمل.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (43) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (44) وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (45) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (47) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (48) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (49) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (50) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (51) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (52)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا﴾ بعد ما سرد من قصة أبيه إبراهيم توجه إليه صلى الله عليه وسلم مُسلياً له عن تحمل اتعاب المشركين وقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ من تعدي الحدود، ومن الجحود بالله الواجب الوجود، أو الإشراك به في العبادة أو الظلم على حقوق العباد وأنفسهم وأعراضهم وأموالهم، أو تماديهم في غفلتهم وإعراضهم عن إطاعة ربهم ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ﴾ هائل ﴿تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي ترتفع أبصار أهل الموقف وتتوقف من الهول والدهشة فلا تتحرك ولا ترى ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين إلى داعي الحق ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي رافعيها مع شخوص الأبصار ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي لا يرجع إليهم تحريك أجفانهم ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي وقلوبهم خالية عن الفهم. ومادام تكون عاقبة الظالمين هكذا ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ أي من يوم يأتيهم عذاب جهنم ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي رجعنا إلى حال حياتنا الدنيوية ﴿نُجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ الى الإيمان بك وبوحدتك ﴿وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ فيما جاءوا به من عندك. فيرد عليهم الباري جل شأنه، أو ملائكته بأمره ويقول لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل حلول الآخرة ومشاهدة عذابها ﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ على ما أنتم عليه من المتاع والشهوات النفسية والإعراض عن الطاعات القدسية ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالإشراك وسائر المعاصي ﴿وَتَبَيَّنَ﴾ وظهر ﴿لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ من الإبادة والإستئصال، أو التمزيق والتفريق في البلاد بالعذاب او النكال ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ﴾ في القرآن الحكيم أو على ألسنة كل

رسول كريم ﴿الْأَمْثَالَ﴾ أي صفات أمثالكم قبل الدمار وصفاتهم بعد الوبال، لتكون ذلك عبرة لكم، ولم يفدكم إلا مزيدا من العناد في الحال.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ وأولئك الناس لم يكونوا ضعفاء لا يعرفون شيئا بل كانوا صناديد أهل القوة والمكر والإحتيال، وفعلوا ما في طاقتهم من العصيان والعتو على الله ذي الجلال، وعلى رسله وأتباعهم بكل حال ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي وكان معلوما عند الله مكرهم. والمكر إذا كان معلوما عنده كان دفعه وإبطاله معلوما كذلك فلا يفيدهم ذلك لأن مكر سنةٍ يَبطُل في سِنَةٍ أو كان عند الله جزاءُ مكرهم بمعنى أنّ كل حيلة ووسيلة لهم للمتمرد كان عليه عقاب عند الله وَاجَّلها لَهم إلى يومه المقرر ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ والحقيقة أن مكرهم كان جسيما وكيدهم كان عظيما، إذ كان في أيديهم شتى أصناف العلم والإطلاع بما يجري في البلاد والبقاع، ورصدوا في مقابل كل ذلك طرقا للاستيلاء على مناوئيهم ومقابليهم فكان مكرهم لو تجسم كمعاول أو مكائن تدميرية لأزالت الجبال وأقلعتها عن أماكنها. فعلى هذا المعنى كلمة إن شرطية وصلية، واللام حرف جر، والمضارع منصوب بأن المضمرة. يعني وعند الله إبطال مكرهم وإن كان مكرهم مناسبا وموافقا لزوال الجبال لكنه ما بقي بل انمحى ولم يبق له أثر. وزعم بعض أن إن نافية يعني وما كان مكرهم بحيث تزول منه الجبال أي قويا جدا، بل كان ضعيفا حقيرا.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ بانتصارهم وانتصار أتباعهم المخلصين على الكافرين، ولا وعده بحلول العقاب المدمر عليهم إن عاجلا أو آجلا، ولا وعده بالانتقام منهم وعقابهم بما يناسب أفكارهم وآثارهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على ما أراد، ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ من ظلمة العباد وإن أجلهم إلى يوم المعاد.

﴿يَوْمَ﴾ ظرف لعامل مقدر مستفاد من النهي المذكور،

أي ينجز ما وعد به يوم ﴿تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْـرَ الْأَرْضِ وَالسَّـمَوَاتُ﴾ أي وتبدل السـماوات غـيرَ السـماوات. والتبـديل قـد يكـون في الذات كما في: بدلنا الـدراهم دنـانير. وقـد يكـون في الصـفات كما في: بدلت الحلقة خاتما إذا غـيرت شـكلها. والآيـة الكريمـة ليست بنص في واحد منهما. وروي عن ابن عبـاس رضـي اللـه عنهما أنه قال تبدل الأرض أي يزاد فيهـا وينقص منهـا، وتـذهب آكامها وجبالها وأوديتهـا وأشـجارها ومـا فيهـا، وتُمَدُّ مَـدَّ الأديم العُكاظي، وتصير مستوية لا تـرى فيهـا عوجـا ولا أمتـا، وتبـدل السماوات بذهاب شمسها وقمرها ونجومها... وحاصله يغير كل عما هو عليـه في الـدنيا. وقـال ابن الأنبـاري: تبـدل السـماوات بطيها وجعلها مرة كالمهل ومـرة وردة كالـدهان. والحـق الـذي يجب أن يعتـبر أن النصـوص إذا أضـيف بعضـها إلى بعض تـدل على أنـه لا تبقى هـذه الأرض يـوم القيامـة ولا السـماوات ولا الشمس والقمر والنجوم، وإنما هناك عنـد قيـام السـاعة عـالم آخر لا الأرض أرضنا ولا السماء سماؤنا. وقد قال تعـالى: ﴿يَـوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّـمَوَاتُ وَبَـرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِـدِ الْقَهَّارِ﴾ أي وبرز الخلائـق من الظـالمين وغـيرهم، أو الظـالمون فقـط. وبـروزهم للـه كنايـة عن عرضـهم للحسـاب بصـورة مخزيـة. فالسكوت عن تفصيل ذلك بدون نص يدل عليه واجب، على أن عالم الآخرة حسـب ظـاهر النصـوص محصـور في عـالم الجنـة والنار. والجنة عرضها السـماوات والأرض. والنـار مسـافتها في علم العزيـز الجبـار، ولا تفي هـذه الأرض ولا هـذه المسـافات المحدودة المحسوسة لأن تكون مستقرا لأهل الدارين.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ﴾ أي يوم إذ برزوا للـه مقـرنين بعضهم إلى بعض ﴿فِي الْأَصْـفَادِ﴾ جمـع صـفد وهـو القيـد الـذي يوضـع في الرِّجــل، أو الغــل الــذي يكــون في اليــد والعنــق ﴿سَرَابِيلُهُمْ﴾ أي ما يستر أجسادهم

﴿مِنْ قَطِرَانٍ﴾ وهو ما يحلب من شجر الأبهل فيطبخ وتهنأ به الإبل الجربى فيحرق بحدته وحرارته الجرب في الجلد ﴿وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ أي تعلو وجوههم وتحيط بها النار التي تُسَعَّر بأجسادهم المُسَربَلَةُ بالقطران. وتخصيص الوجوه بالذكر لأنها أعالي الأجساد، فإذا علت الوجوه فقد علت الوجود، ويعاملون بما ذكر ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ﴾ ظالمة مجرمة جسورة على الله وعلى عباده، ومتعدية على حدوده ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ من الكفر والمعاصي لاسيما من التعدي على حقوق الناس ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لا يشغله كتاب عن كتاب ولا حساب عن حساب. ﴿هَذَا﴾ البيان الذي عرض الآخرة في معرض العيان من قوله تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا﴾ إلى هنا ﴿بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾ أي كفاية لهم في الموعظة ﴿وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾ أي ولينصحوا ولينذروا بهذا البلاغ الكافي ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي وليعلموا بالتأمل في الأنفس والآفاق، أو بالإيمان بالرسول صاحب محاسن الأخلاق، أنما هو إله واحد أي أن الله الذي له السيطرة في الدنيا والآخرة هو إله واحد لا شريك له ذاتا أو صفة أو فعلا ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ فيأخذوا حذرهم من عقاب يوم الحساب.

الجزء الرابع عشر

سورة الحجر، مكية، وآياتها تسع وتسعون نزلت بعد سورة يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآَنٍ مُبِينٍ (1) رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (2) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (3) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (4) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (5) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (7) مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ (8) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9)﴾

﴿الر﴾ قد تقدم الكلام فيه. ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى هذه السورة ﴿آَيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي الكتاب الكامل المحقق المختص اسم الكتاب به ﴿وَقُرْآَنٍ مُبِينٍ﴾ مظهر لما فيه من الأحكام للأنام والقرآن تفسير للكتاب للتفخيم.

وقوله تعالى ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ جاء لبيان حالة نفسية وندم شخصي يعتري الكفار عند البعث ورؤية ما يستحقونه من الأهوال التي لا مرد لها، فكان الباري جل شأنه يقول لهم: أيها

النـاس لا تسـتمروا على الكفـر والعنـاد وتوجهـوا إلى طريـق الرشاد قبل أن يـأتيكم يـوم تتندَّمون فيـه على مـا فـاتكم من الإيمان بدون أية استفادة. وأمـا مـورده الخـاص ففيـه روايـات. ومنها: ما روى عن ابن مسعود أن الآية نزلت في كفـار قـريش ودوا ذلك يومَ بدرٍ حين رأوا الغلبة للمسـلمين. ومنهـا مـا أخـرج الطبراني وابن مردويه بسندٍ صحيح عن جابر عن عبد الله قـال قال رسول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم: ((إن ناسـاً مِن أمّـتي يُعـذبون بـذُنوبهم فيكونـونَ في النـار مـا شـاء اللـه تعـالى أن يكونوا، ثم يعيرهم أهل الشرك فيقولون: ما نـرى مـا كنتم فيـه من تصديقكم نفعكم، فلا يبقى مُوَحد إلّا أخرجه اللـه تعـالى من النـار)) ثم قـرأ رسـول اللـه الآيـة. وذكـر ابنُ الأنبـاري أن هـذه الوِدادة من الكفـار عنـد كـل حالـة يعـذب فيهـا الكفـار ويسـلمُ الـمُسْلِمُ.

وربَّ على كثرةِ وقوعها في كلام العرب لم تقـع في القـرآن إلا في هذه الآية. وهي للتكثير لأن الكفار كثيرا ما يرون المسلمين في راحة وأمـان وهـدوء ونعمـة ورضـوان فيتمنـون ذلـك بـدون استفادة من تمنيهم. ومن الناس من قال إنها في الآية للتقليـل لأن عذابَ الآخرة يدهشهم فلا يبقى لهم مجـال أن ينظـروا إلى غيرهم ويتعرفوا على أحوالهم إلا في قليـل من الأوقـات وذلـك لمزيد الحسرات عليهم حيث يرون سلامة المسـلمين فيتمنـون ذلك.

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُـوا﴾ أي أتـرك أولئـك الكفـار الغـافلين عن الحـال والمـآل يـأكلوا ممـا يشـاءون ويتمتعـوا كيـف يشـاءون ﴿وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ أي وذرهم يشغلهم التوقع للمتمنيات الـتي هي ابعد من آجـالِهم ﴿فَسَـوْفَ يَعْلَمُـونَ﴾ مـاذا ينـالون من العـذاب والعقاب. والطلب تهديدي فـإنّ اللـه لا يرضـى لعبـاده الأعمـال السـيئة والآمـال الدنيئـة ﴿وَمَـا أَهْلَكْنَـا مِنْ قَرْيَـةٍ﴾ من القـرى الكبيرة او الصغيرة، أي وما دمرناها بأهلها أو أهلكنا أهلهـا ﴿إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾

قبل ذلك يُنذِرهم به قبل حُلوله وبشدته قبل نزوله و﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ أي وما يتقدم أي أمة على وقتِ عذابها، ولا تتأخر عنه فالوقت مقدر والحساب مقرر. وكما أن وقت العذاب مقدر كذلك وقت النعيم ولكن التهويل في الأول لا في الثاني: ﴿وَقَالُوا﴾ أي أولئك الكفار المشركون السفهاء الذين لا يميزون بين صاحبي العقل والجنون في مقام إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أي القرآن ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ لأن من تعود الأمور السافلة الرذيلة وابتعد عن مستوى الأمور العالية والفضيلة يرى العقل جنونا والجنون عقلا، ويرى اليقظة غَفْلَةً والغفلة يقظة. ألا ترونَ بعض الحشرات السافلة لا تنزل إلا على النباتات ذوات الرائحة الكريهة وتنفرُ عن ذوات العطور الكريمة؟ ويقولون له ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ المأمورين بإهلاكنا أو بالملائكة الذين يشهدون بصحةِ دعواك للرسالة ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أن الله يعذبنا عقاباً لنا على مخالفتك، أو أن الله أرسلك للناس رسولا. ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي ولا يعلمون أنا لا ننزل الملائكة إلا متلبسين بالوجه الحق المطابق والحكمة الموافقة لإدارة شئون العباد المقتضية لإرسالهم للإفادة حين الافادة، ولإبادة الأمة حين الإبادة، ولو أنزلنا الملائكة لقضوا عليهم عن بكرة أبيهم ﴿وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾ ساعةً من الساعات في أي ساحة من الساحات ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ العظيم وهو القرآن الكريم على الرسول الهادي لإنذار الناس من العذاب الأليم وتبشيرهم بالنعيم المقيم ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي وإنا لهذا الذكر لحافظون من تطرق أيدي العابثين، فيبقى مادام العالم باقيا لاستفادة أحكام الدين وكل من تعرض لصاحبه الذي نزل عليه نسحبه إلى جهنم ونعذبه بالعذاب العقيم.

ولقد حقق الله وحده وعده ونصر ذكره وقرآنه المنزل وَجُنــده ولم يقدر أحد أن يـأتي بمثلـه أو بمثـل سـورٍ منـه حـتى تنكسـر شوكته وتزول دولته، ولم يقدر أحد أن يحرف حرفاً أو كلمة أو جملة أو آيةً من آياته، فَبَقيت على ما نزلت عليه من ســماواته. وكما حَفِظَ هذا القرآن فقد حفظ صاحبه وصانه عن أعدائه إلى أن تمم مهمته وأكمل رسالته ونشـر شـريعته فتحقـق مـا قالـه الباري جـل جلالـه ﴿وَيَـأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُـورَهُ﴾ والخـوفُ كـل الخـوف من أن يـأتي أنـاس يحرفونـه عن معانيـه الثابتـة الـتي درجت عليها الأمة المرحومة ويحولونه إلى أهوائهم، ولكن اللــه لهم بالمرصاد ونلتجئ إليه في كافة الأمور إنه بصير بالعباد.

ومـع ذلـك فقـد ثبت تأريخيـا أن كـل من جـاء بهـذا النـوع من التفسـير، وأراد أن يغـير المعـاني المقـررة الموافقـة لظـواهر النصوص وقواعد الدين قد رد الله كيده في نحـره وسـهمه الى صــدره، وقيض أناسـاً مخلصـين عـارفين بالمبـاني والمعـاني، وأبطلوا كُلَّ ما قرروا ونقضوا كل غزل غزلوا، ورجعوا الحقــائق إلى الأذهان. فلله المنة والحمد مر الزمان.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِـكَ فِي شِـيَعِ الْأَوَّلِينَ (10) وَمَـا يَـأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَـانُوا بِـهِ يَسْـتَهْزِئُونَ (11) كَـذَلِكَ نَسْـلُكُهُ فِي قُلُـوبِ الْمُجْرِمِينَ (12) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُـنَّةُ الْأَوَّلِينَ (13) وَلَـوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًـا مِنَ السَّـمَاءِ فَظَلُّوا فِيـهِ يَعْرُجُـونَ (14) لَقَـالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (15)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِـكَ فِي شِـيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ تسـلية للرسول صلى اللـه عليـه وسـلم بـأن تمـرد الكفـار المشـركين ليس شيئا مستحدثا في

زمانك بل إنه عادة مستمرة على الأشقياء حيث عارضوا الأنبياء والرسل ﴿و﴾ الله ﴿لَقَدْ أَرْسَـلْنَا﴾ رسلا مبشـرين ومنـذرين في شـعوب من الأنـاس الأولين ﴿وَمَـا يَـأْتِيهِمْ مِنْ رَسُـولٍ﴾ في أي حال من الأحوال ﴿إِلَّا﴾ في حال ﴿كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ في تلـك الحـال ﴿كَـذَلِكَ﴾ أي مثـل السـلك الـذي سـلكناه في قلـوب المجـرمين المسـتهزئين الأقـدمين ﴿نَسْـلُكُهُ﴾ أي ندخلـه ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ الآخرين أي إن الإنسان نوع واحـد والطبيعـة طبيعة نوعية واحدة، ومن وفقه الله للسلوك على مسلك الحق والسداد كلما أرسل إليهم رسول سلكوا معـه مسـلك الرشـاد، وكل مَنْ خَذَله الله عاندهم وتمرد عليهم وسلك مسـلك العنـاد، ولم يهتم الرسل إلا بـأداء واجب التبليـغ فبلغـوا ونـالوا خـيرهم في الدارين، ولا تهتم باقتراحات أولئـك الفاسـدين لأنهـا ليسـت بنية الاستصلاح وإنما هي للاستهلاك الوقتي والاسترواح ﴿وَ﴾ إلا فـ ﴿لَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ﴾ أبواب ﴿السَّمَاءِ﴾ أي من المواقـع التي يجوز ويمكن العروج فيها ﴿فَظَلُّوا فِيهِ﴾ أي في ذلك البـاب ﴿يَعْرُجُونَ﴾ أي يصعدون حَسْبما تيسـر لهم ﴿لَقَـالُوا﴾ من شـدة العتوّ والغلوّ في المكابرة: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ أي مُنِعت من إبصار الحقـائق، والـذي نـراه ليس من السـماء ولا من عجـائب آلاءِ الله تعالى ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ أي أعـرض عن سَـدِّ الأبصار ومنعها عن الإبصار، وقل إنـه قـد فتحت أبصـارنا وتـرى الحقـائق ولكنـا قـوم مسـحورون، وغَلَب محمـد على عقولنـا وندرك الحقائق على غير ما هي عليه. فـالجواب الأول الإختلال في الحواس. والجواب الثاني ممـا وقـع بعـد الإضـراب الاختلال في العقـول فلا ينفـع فيهم أي دليـل وأي تعليـل، لأن حواسـهم وقلوبهم مؤوفة بآفة العناد والعناد مع الحق حماقة.

لكل داءٍ دواء يُسْتَطَبّ به	إلّا الحماقَةَ أعْيَت من

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (17) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (18) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (19) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (20) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (21) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (23) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (24) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (25)﴾

وبعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى تمرد الأشقياء على الأنبياء، وأنهم استمروا في عنادهم.. أخذ يعظ أولئك الناس وغيرهم إلى الإيمان بالله القادر القهار الذي خلق الكائنات من الأرض والسماوات حتى إذا اعترفوا بذلك سُهلت طرق المباحثة معهم. ويمكن توجيههم بأن الله القادر على هذه الأشياء قادر على بعث الرسل لتنوير العقول، وأن ذلك البعث المزين لأحوال أهل الأرض مناسب لتزيين السماوات بالبروج وسائر الأمور المستحسنة. فقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ أي قررنا فيها منازل ودرجات مسماة بالبروج تكون مدة سير الشمس فيها على مرأى الناس دليلا على الفصول والمواسم، وهي اثنا عشر برجاً، ستة منها في بلادنا شمالية هي: الحمل، والثور، والجوزاء، للربيع. والسرطان، والأسد،

والسنبلة، للصيف. وست منها جنوبية وهي: الميزان، والعقرب، والقوس، للخريف، والجدي، والدلو، والحوت للشتاء. وبالسير فيها تنتهي أيام السنة فتتجدد إلى ما شاء الله. وقيل: البروج الكواكب العظام لأن البرج في أصل اللغة القلعة أو القصر العالي.

﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ أي وزينا السماء بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت للناظرين بأبصارهم في الليل الصافي فيرون فيها عجائب اللمع وعجائب المجموعات على أشكال مختلفة من أشكال الحيوان والأوراد المجتمعة والميزان وغيرها فكأنها فرش معلقة في الجو منقوشة بالنقوش المستحسنة. أو زيناها لعقول الناظرين ورتبناها بحيث يستدل بوجودها وأضوائها المختلفة وحركاتها كذلك سرعة وبطء وجهة ومواسم طلوعها وغروبها في ملك المسافات الشاسعة على وجود فاعل قادر مختار يتصرف في الكائنات بما يشاء. ﴿وَحَفِظْنَاهَا﴾ أي تلك البروج أو سماءها ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ أي منعناهم من الوصول إليها والتعرف على أحوالها ومد الأيدي إليها بالتغيير والتبديل فهي عوامل ثابتة قائمة بأمر ربها. وقوله ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ إستثناء منقطع. أي لكن من لم يصل إليها ووصل إلى حيث يسترق السمع أي يسترق بعض الكلمات من الملائكة هناك لينزل بها ويبثها بين شياطين الإنس والجن بالإلقاء والوسواس ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ والشهاب الشعلة الساطعة من النار الموقدة ومن العارض في الجو.

يعني إن الشياطين إذا أرادوا أن يصلوا الى السماء، أو إلى تلك البروج لا يصلون إليها ولكن يصلون إلى منازل في الجو فهناك يستمعون كلام الملائكة. بينما هم في ذلك الوضع إذا امتدت إليهم الشهب النارية وأحرقتهم.

ولا قدح في أن يكون في الجو كواكبُ وشهب من قديم الزمان وتكون بحيث يترتب عليها حكم ومصالح كثيرة نعلمها أو لا نعلمها. ومن جملتها

رجم الشـياطين المسـترقة في الجـو لاسـتماع كلام الملائكـة لنشرها في الأرض. وأما القول بأن الجن خلقن من النار فكيف تؤثر فيها نار الشهب وتحرقها؟ فجوابـه: أن الجن مـركب وفيـه أجزاء كثيرة، وإن كانت النـار أغلب أجزائهـا، ولا مـانع من تـأثير النار الخالصة في المركب منها ومن غيرها. وإلا لزم أن لا تـؤثر نـار جهنم في المعـذبين من الجن في نـار جهنم، وذلـك خلاف الإجماع الصِّرف والنصوص القطعية من الكتاب والسنة السنية.
وإذا نظرنا إلى الواقـع السـليم وجـدنا أنـه إلى الآن لم تكشـف السماوات وما فيها من الكواكب السـيارة أو الثـوابت إلا شـيء قليل من آثارها وفوائدها، ولعل في تلك الكواكب العالية عالمـا من أصحاب العقول ومن الحيوانـات الغـير العاقلـة كمـا أن في المحيطات أصنافاً من الحيوانات بأشكال مختلفة لم تر نظائرها في الصـحارى والجبـال: هـذا من جهـة المـادة. وأمـا من جهـة المعنويات والأرواح الطيبة والخبيثة فلا كاشف لها إلا الله، وقــد يطلع اللـه على بعض غيوبـه بعض النـاس من الأنبيـاء والرسـل الكرام، فإذا قرر الله سـبحانه وتعـالى أن بعض الجن يصـعدون في السماوات لتلقي بعض الأمور فإذا وصلوا الى منزلة معينــة رماهم بالشهاب وأمحاهم؛ فـذلك بيـان جـزئي لبعض المغيبـات السماوية ولا عجب فيـه أبـدا ولا مجـال لإنكـار أحـد من العقلاء ذلك بحال من الأحوال.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أي جعلناها ممدودة مبسوطة، ولا ينافي هذا المد والبسط كونها كروية أو بيضـية، أو اهليلجيـة، فـإن المـادة كيفمـا كـانت مـا دامت كبـيرة الحجم يـرى كـل مقـدار منهـا كالفرش المبسوط. ولو نظرنا إلى الجبـال العاليـة لم نجـد لهـا منعا من كونها كرويـة أو بيضـية مثلا، فـإن نسـبة ارتفـاع أعظم الجبال إلى الأرض كنسبة سبع عرض شعيرة إلى قطر كرة هـو ذراع كما حقق في محله من علم الهيئة. ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي جبـالا عاليـة مسـتحكمة ثابتـة القواعـد في أعمـاق الأرض، وذلك لفوائد منها

أن تحفظ الجذور النارية الملتهبة من الإنفجار الهائل وتدمير الأرض. ومنها حفظ توازن الكرة في الحركات اليومية والسنوية. ومنها امتصاص الثلوج والأمطار وخزنها في طياتها لتتفجر منها العيون والانهار. ومنها إنبات النباتات المختلفة النافعة فيها وبقاؤها في صفاء الهواء حتى تصل إلى مستواها المناسب المقرر لها... إلى غير ذلك مما يعلمه أهله. كما قال تعالى ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ والضمير يعود إلى الأرض الشاملة للجبال أو إلى الرواسي. ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿مَعَايِشَ﴾ ما تعيشون به من المطاعم والمشارب والملابس وغيرها مما يتعلق بها بقاء الإنسان والحيوان ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ كلمة من إما معطوفة على الضمير المجرور عند من لم يشترط إعادة الخافض على المعطوف. أي وجعلنا فيها معايش لمن لستم له برازقين من العيال والمماليك والخدم والدواب وغيرها. أو عطف على معايش. أي وجعلنا لكم فيها من لستم له برازقين كما ذكرناه آنفا.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي وما من شيء ﴿إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ من الأقوات والفواكه والملابس ومواد الأثاث والمواعين وغيرها. ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ محدود مناسب لتطور البشر في الدنيا وحاجتها إلى الأمور الخمسة المذكورة وغيرها من المعدات الحربية والأدوية والعقاقير الطبية وغيرها.

يعني إن الخزينة موجودة عندنا وهيأنا البشر لتعلم العلوم والفنون والصنائع ليستخدمها في استحصال ما يفيده من الأرض برحابة الصدر لتكميل ما يحتاج إليه في العسر واليسر. ولا ينال أي قوم وأي فرد من أي قوم إلا بقدر قابليتها علماً وعملاً وطموحاً وأملاً.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ أي أرسلناها من الأرض إلى الهواء المرتفع ومن بلد إلى بلد آخر لواقح أي حاملات بمواد الأمطار الغزيرة ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ حيث شئنا ﴿مَاءً﴾ بقدر ما تعلقت به إرادتنا ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾

أي فأسقيناكم به نفوسا ومزارع وبساتين ومراتع ﴿وَمَـا أَنْتُمْ لَـهُ بِخَـازِنِينَ﴾ أي ومـا كنتم بجـامعين حـافظين لـذلك المـاء، وإنمـا انبعثت الرياح بأمرنـا وأخـذت مـواد الأمطـار بإرادتنـا وأفاضـتها على الأراضـي بمشـيئتنا بإيجـاد الحيـاة في ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي﴾ المواد القابلة لها ﴿وَنُمِيتُ﴾ بإزالتها عنهـا ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُـونَ﴾ أي الباقون بعد فناء الخلـق قاطبـة والمـالكون حقيقـة لمـا ملكـوه مجازا ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ﴾ أي الذين مـاتوا ﴿وَلَقَـدْ عَلِمْنَـا الْمُسْـتَأْخِرِينَ﴾ الــذين لم يموتــوا بعــد ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُــوَ يَحْشُــرُهُمْ﴾ بعــد أن أمــاتهم ثم بعثهم. يعــني أن اللــه ســيبعث الجميع ويحشرهم في صعيد واحد، ويحاسبهم ويقــرر مصــيرهم أجمعين ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ في خلقهم وإحيــــائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بجــــزاء أعمالهم.

﴿وَلَقَـدْ خَلَقْنَـا الْإِنْسَـانَ مِنْ صَلْصَـالٍ مِنْ حَمَـإٍ مَسْـنُونٍ (26) وَالْجَـانَّ خَلَقْنَـاهُ مِنْ قَبْـلُ مِنْ نَـارِ السَّـمُومِ (27) وَإِذْ قَـالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَـالِقٌ بَشَـرًا مِنْ صَلْصَـالٍ مِنْ حَمَـإٍ مَسْـنُونٍ (28) فَـإِذَا سَـوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيـهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُـوا لَـهُ سَاجِدِينَ (29) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَـعَ السَّاجِدِينَ (31) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَـعَ السَّـاجِدِينَ (32) قَـالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْـجُدَ لِبَشَـرٍ خَلَقْتَـهُ مِنْ صَلْصَـالٍ مِنْ حَمَـإٍ مَسْـنُونٍ (33) قَـالَ فَـاخْرُجْ مِنْهَـا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) وَإِنَّ عَلَيْـكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (35) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) إِلَى يَوْمِ الْـوَقْتِ الْمَعْلُـومِ (38)﴾

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أي ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا﴾ أصل هـذا النوع وأول فرد من أفراده ﴿مِنْ صَلْصَـالٍ﴾ أي من طين يـابس يصلصل ويصـوت إذا نقـره نـاقر ﴿مِنْ حَمَـإٍ﴾ أي من طين تَغَيَّرَ واسْوَدَّ من مُجاوَرة الماءِ ﴿مَسْنُونٍ﴾ مُصَوّر من سُـنَّةِ الوَجـه أي صورته. أو مَصـبوب من سـنّ المـاء صَـبَّه. ﴿وَالْجَـانَّ﴾ أي ولقـد ﴿خَلَقْنَاهُ﴾ أصل نوع الجن وهـو الجـانّ يعـني بـه اَبـا الجن ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل خلق الإنسان بعصور وأزمـان لا يعلم كلّهـا إلّا الله تعالى ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ قيـل: السـموم نـار لا دخـان لهـا فالإضافة من إضافة العام إلى الخاص. وقيل السموم الـمُفْرِطُ في الحرارة والإضافة من إضـافة الموصـوف إلى الصـفة. وقـد جاء في بعض الآثار أن النار التي خلق منها الجـان أشـد حـرارةً من النـار المعروفـة عنـدنا. ولا يخفى أنـا إذا نظرنـا إلى هـذه الكائنـات الموجـودة المحسوسـة عنـدنا وَجـدنا أنّ هنـاك مـواد كثيفة لا تغور فيها الأقدام، ومواد لطيفة تغور هي فيهـا. ونحسّ بالمعيشة في جـوّ منطلـق ومملـوء بالمـادة اللطيفـة المسـماة بالهواء وقد تكون هادئة، وقـد تكـون هابّـة قويـة الحركـة بحيث تقلع البناء والأشجار، وإذا نظرنا إلى ما فوق رؤوسنا رأينـا جـوّاً منفتحا واسعاً لا يدرك مداه مزيناً بالمواد المشعة الـتي تسـمى بالكواكب ومنها ما هو أعظم حجما وأكثر نورا وأقوى تأثيرا وهو الشـمس ومنهـا مـا هـو أقـل من ذلـك وهـو المسـمى بـالقمر، وعليهمـا مـدار حسـاب الأيـام والليـالي والشـهور والسـنين في القلة والكثرة، واذا دققنا النظر فيما على سطح الأرض والبحـر وما فوقهما من الأجواء وجدنا أنواعا من الحيوانات أي الأجسام الحساسة النامية المتحركة بإرادتها، متشكلة بأشـكال مختلفـة، ومتلونـة بـألوان مختلفـة وموصـوفة بصـفات مختلفـة، وعنـدما حققنا النظر فيها وجدنا أن هـذا النـوع المعـروف بالإنسـان هـو أشرف أنواع الموجود لأن لها العقل والعلم الهاديين إلى العمل

المثمر النـافع وتبـديل السيئ بالحَسَـنِ، وتحويـل الحَسَـنِ إلى الأحســن وتقــدير النظــام للمعيشــة، والإســتفادة من المــواد المخلوقة أمَامنا.

وهـذا النـوع العريـق في الوجـود المتطـور في العـالم بـالعلم والصناعة الواصل إلى هذا الحد الموجود الآن وَجَدَ بَعدَ الإمعـانِ أن هذا المجمـوع من العـالم، وان كـان نوعُـهُ باقيـا، ولكن كـلَ جزء من أجزائه التي وَصَلَتْه أيْدِينا مُسَخّرة للقدرة وعاجزة أمام القـوة، فتـبين لـه أنـه ليس هـذا العـالم وهـذه الأجـزاء واجبـةَ الوجود، وإلا لم يكن متأثرا ومتغيرا وأن وجوده ناشئ من فاعِل حي عـالم قـادر مريـد مختـار، لأنـه بعـد ثبـوتِ أنـه ليس واجب الوجود ثبت أنه محتاج الى الصـانع، ولا يجـوز أن يكـون الصـانع شيئا لا يعقل ولا يعلم ولا يهتـدي لأن ظهـور النظـام في الكـون عن قوة لا شـعورية لا يقبلـه الشـعور السـليم، ومن هنـا وَصَـلَ الفكر السليم إلى الخالق القـادر الحكيم، وهـذا الخـالق القـادر الحكيم ميّز في العصـور السـابقة الى اللاحقـة أناسـا ممتـازين بالفضائل وأرسلهم لتنوير باقي البشر وأيّد صدقهم بـالمعجزات القاهرة الباهرة إلى يومنا هذا.

وآخر فرد من هذه السلسلة الذهبية الاصيلة أي سلسلة الرسل الكرام وهو سيدنا محمد صـلى اللـه عليـه وسـلم جـاء بـالقرآن الكـريم والكتـاب العظيم المحتـوي على زبـدة معلومـات بُـني عليها النظام الحق، وهذا الكتاب ناطق بأن أصـل نـوع أشـرف الموجود أعني الإنسان مخلـوق من صلصـال، وهنـاك نـوع ثـانٍ مزود بالعقل والعلم وهو الجن، وأن أصل سلسـلته وهـو الجـانُّ أبو الجنّ خُلق من نار، وكـان خلـقُ الجـانّ ووجـوده في العـالم قبـلَ خلـق الإنسـان بعصـور وأزمـان لا يعلمُهـا إلا اللـه. وهـذان النوعـان مسـتمران في العـالم على سـبيل التوالـد والتناسـل ومنهم المذكر والمـؤنث والمطيـع والعاصـي، وأن الرسـل كمـا أرسلوا الى الانسان أرسلوا الى الجان،

وأن رسولنا محمدا صلى الله عليه وسـلم أرسـل الى النـوعين كافة عامة. وأن في العالم نوعا آخر يسـمى بالملائكـة، وخُلقـوا بأمر إبداعي يعبر عنه في سـرعة النفـوذ بعبـارة ﴿كُنْ فَيَكُـونُ﴾ ومعناه أنه ليس فيهم الـذكور والإنـاث وكلهم مطيـع لأمـر اللـه جل جلاله لا يَعصُون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وهذا المقدار ممـا يجب على المكلـف الايمـان بـه إجمـالاً فيمـا علم اجمـالا وتفصـيلا فيمـا علم تفصـيلاـ وتفصـيل خلـق الأنـواع الثلاثة وسر القـدر فيهـا موكـول الى علم البـاري تعـالى. ولكن الجنّ والملائكة ليسا من عـالم الحِس والعيـان، فلا يُـدرك الجِنُ ولا الملائكــة بــالعين المجــردة إلا بخــرق العــادة كمــا للأنبيــاء والرسل الكرام.

وكما أن نصوص الكتاب العظيم والقرآن الكـريم ناطقـة بخلـق الأنواع الثلاثة كلها كذلك الدليل العقلي يرشدنا إلى وجـود الجن والملائكة، فإن الإنسان إذا راجع وجدانه علم أنه قـد يكـون في حيرة من أمرٍ مـا لا يتبصّـر ولا يَهتـدي، فـإذا هُـو تأتيـه إلهامـات مُنيرة للقلوب توجهـه إلى المطلـوب، ولا شـك أنهـا ليست من نفســه وإنمــا هي أتتــه من قــوى قدســية مباركــة يعــبر عنهــا بالملائكة، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْـهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾.

وربما يسكن الإنسـان في منزلـه فـارغ البـال عن الـدنيا فتأتيـه إلقاءات فاسدة تزعجه وتثيره على الناس وتحملـه على أعمـال لا تحمد عواقبها أو على ارتكاب الشهوات النفسية أو غـير ذلـك ممــا لم يكن لــه فيــه قصــدٌ وإقــدام، وذلــك ليس من أحوالــه النفسيةِ المجردة، وانما هي من الواردات الأجنبيـة الدنيّـة، كمـا في قوله تعالى

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُـونَ إِلَى أَوْلِيَـائِهِمْ لِيُجَـادِلُوكُمْ﴾ وعلى كـل فالسند لوجود الجن والملائكـة هـو النص الـوارد، ولكن لا بـأس في تأييد العقل للنقـل ولا في عكس ذلـك. وفي هـذه السـورة الكريمة بَيّن اللهُ خَلْق الانسان والجانّ، وذَكَرَ أنّ الله تعالى لَمّـا خَلَق أوّلَ فرد من الإنسان أمرَ الملائكـة بسـجود التشـريف لـه، لانـه مَجْمَـعُ المـادة والمعـنى، ومَجْمَـعُ العقـل والعلم، ومنبـعُ الخـيرات ومقومـاتِ خلافـة اللـه تعـالى في الأرض. وكـان أحـد أفراد الجان المدعو بعزازيلَ بينهم، فَسَجدتِ الملائكـة لـه وأبى ذلك واستكبر عنه، فطرده الله من سـاحة السـعادة والقـاه في وادي الشقاوة، فصار من ألد أعداء آدَمَ وذريته إلى يوم الـدين، كما ذكر ذلك الباري تعـالى بقولـه ﴿وَإِذْ قَـالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَـةِ إِنِّي خَـالِقٌ بَشَـرًا مِنْ صَلْصَـالٍ مِنْ حَمَـإٍ مَسْـنُونٍ (28) فَـإِذَا سَـوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾.

أي فإذا فعلتُ فيه ما يصير به مُسْتوياً مُسـتعداً لفيضـان الـروح ونفختُ فيـه من روحي، وأَفَضـتُ مـا بـه الحيـاة بالفعـل عَلى المادة القابلة لها وصار إنسانا حيا مُتمتعا بآثار الروح والحـواس ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ أي فَأحْنُوا رؤسكم واجعلـوا جبـاهكم على الأرض على وجه الإكرام والتشريف له بأمر الله تعالى ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَـةُ﴾ أي فَخلقَـه وسَـوّاه ونَفَخَ فيـه من رُوحـه فَسَـجَد لَـهُ الملائكـة ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُـونَ﴾ بحيث لم يتـأخر أحـدٌ منهم عن أحَـدٍ ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (31) قَالَ﴾ الله تعـالى: ﴿يَا إِبْلِيسَ مَـا لَـكَ﴾ أي مـا هـو السـبب لـك ﴿أَلَّا تَكُـونَ مَـعَ السَّاجِدِينَ﴾ أي في أن لا تكون مع الساجدين ﴿قَالَ﴾ في جوابه تعـالى ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْـجُدَ لِبَشَـرٍ خَلَقْتَـهُ مِنْ صَلْصَـالٍ مِنْ حَمَـإٍ مَسْنُونٍ (33) قَالَ﴾ الله تعـالى: ﴿فَـاخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي مِنَ الجنـة، وإن لم يجر ذكر لها لاستفادتها من السـياق ﴿فـإن﴾ اللـه خلـق آدم فيها وأمر بسكونه مع حواء هناك، وسجدت الملائكة له فيها وقوله

فَإِنَّكَ رَجِيمٌ أي مطـرود من كـل خـير وبركـة ورحمـة وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ أي يوم الجزاء قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَـوْمِ يُبْعَثُـونَ أي فَـأَمْهلني ولا تُمِتْـني إلى يـوم بعث آدَمَ وذريته للجزاء. وقصد بذلك أن تكونَ لَهُ فَسحةٌ لإغـوائهم وينتقم منهم لأن سجودَ آدم كـان سـببا لطـرده عن رحمـة اللـه تعـالى حيثُ لَم يَسـجد لـه قَـالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَـرِينَ أي من جُمْلـة المنظرين الذين قـرر لهم الإمهـالَ والتأجيـلَ إِلَى يَـوْمِ الْـوَقْتِ الْمَعْلُومِ وهو خروجُهم عن الدنيا وعالم التكليف، ويعتـبر ذلـك وقت النفخـة الأولى لأن الإنســان يبقى منهم جيــل الى ذلــك الوقت وهو معلوم عند الله تعالى.

فإن قيل: إن كـان إبليس من الملائكـة فكيـف خـالف أمـر اللـه سبحانه وتعالى. بسجوده لآدم عليه السـلام مـع أن اللـه تعـالى أخبر أن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وإن كـان من الجن فكيـف يشـمله أمـر اللـه تعـالى الملائكـة بالسجود حتى يكون عاصيا بمخالفـة الأمـر؟ قلنـا: إنـه كـان من الجن بلا شبهة لأدلة:

الأول: قوله تعالى في شأنه: كَـانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَـقَ عَنْ أَمْـرِ رَبِّهِ.

الثاني: أن له الذرية لقوله تعالى: أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَـاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ والملائكة لا ذرية لهم.

الثالث: قوله تعـالى: خَلَقْتَنِي مِنْ نَـارٍ وَخَلَقْتَـهُ مِنْ طِينٍ فـإن الملائكة لم يخلقوا من النار، وإنما خُلقوا من النور بأمر إبداعي آني، والمادة النارية محرقة والنور مضيء مشرق.

الرابع: أنه لو كان من الملائكة ما كان يخالف أمر الباري تعـالى لإخبـاره تعـالى بعصـمة الملائكـة، وإخبـارُه تعـالى لا يتغـير ولا يتبدل. وإذا ثبت كونه من الجن فشـمول أمـره تعـالى إمـا لأنـه كان مغمورا بينهم ومعدوداً

منهم إذ ذاك فالإستثناء يكون متصلا في الصورة، وإما لأنه تعالى أمره أمراً خاصا متوجها إليه علاوةً على أمر الملائكة بدليل قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (42) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (43) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (44) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (46) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (47) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (48) نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50)﴾

قوله تعالى: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ قال الشيطان مخاطبا ربه: يا رب بسبب اغوائك إيّاي، وخِذلِكَ لي، وحِرماني مِن النعيم المقيم اقسِمُ بالتأكيد لأزينن لآدم ولذريته في الأرض كل ما كان سببا للإغراء والإغواء من المشتهيات النفسية والمال والجاه والامور التي يتنافس فيها الناس، حتى يعارض بعضهم بعضا وتقع الفتنةُ بين أخص الأحبّاء، فضلا عن الناس الآخرين، ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ أجَعَلنّهم من الغُواة الهواة للفَسادِ ﴿أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ الذين اخترتهم وأخلصتهم لطاعتك ومحبتك ومعرفتك. ﴿قَالَ﴾ الله تعالى:

﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ لابد أن أراعيه. بمحض حكمتي في شئوني أي أن المخلصين لا قدرة لك عليهم، وأن المفلسين من الإخلاصِ تؤثرِ فيهم بشتّى جهاتِ التأثير، و﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (42) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي لموعد الغاوين ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ أي سبع طبقات بحسب مراتب أحوالهم في الغواية ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ﴾ أي من الأتباع والغواة ﴿جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ فريقٌ معين محدود منهم حسب استحقاقهم ونعوذ بالله الستار الرؤوف الرحيم من أخفها فضلا عن أشدّها وأعْنَفها.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ يعني إن الذين اتقوا الكفر والفواحش وسائر ما يتقي منه مستقرون في جنات وعيون مباشرةً. وأما من اتقى الشرك ولم يتق الفواحش أو اتقى الفواحش ولم يتق سائر المحرمات فاستقرارهم فيهما مربوط بالعفو أو بمرور مدة العذاب الذي يستحقونه. وسواء في العفو عندنا من تاب ومن لم يتب، فإن دخول الجنة ليس مربوطا بالإجتناب عن الكبائر ولا بالتوبة ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ أي يقال لهم من جانب الملائكة المأمورين لها: أدخلوها سالمين أو مسلما عليكم، آمنين من طروِّ العذاب بعد ذلك، فإن الجنة دار السلام الخالد ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ ورفعنا ما في صدورهم من غلّ أي حقد سواء كان قَبَلِياً أو شخصيا فكما لا يبقى عذابُ النيران كذلك لا يبقى عذابُ الوجدان من الخزي والعار ﴿إِخْوَانًا﴾ حال من فاعل أدخلوها ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ صفتان لقوله اخوانا أي إخوانا مستقرين على سُررٍ ويقابل بعضهم بعضا لمزيد الصفاء وراحة القلوب حالكونهم ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنات ﴿نَصَبٌ﴾ وتعب من المرض أو الملل أو خلل في الصحة أو في غير ذلك ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أي هم خالدون في الجنات ولا يخرجون منها ﴿نَبِّئْ﴾ يا نبيي ورسولي ﴿عِبَادِي﴾ المؤمنين بي حق الإيمان ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي

بأني أنا الغفور للذنوب والرحيم بكشف الكروب وستر العيوب لا غيري. ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَـذَابُ الْأَلِيمُ﴾ لمن عـذب بـه سـواء كان عذاب الخلود كما لأهل الكفر والجحود أو العذاب المحـدود كما للمؤمن العاصي اللدود. ونسأله العافية مِنْه بمنّه ورحمته.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (51) إِذْ دَخَلُـوا عَلَيْـهِ فَقَـالُوا سَـلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (52) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (53) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (54) قَـالُوا بَشَّـرْنَاكَ بِـالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَـانِطِينَ (55) قَـالَ وَمَنْ يَقْنَـطُ مِنْ رَحْمَـةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّـالُّونَ (56) قَـالَ فَمَـا خَطْبُكُمْ أَيُّهَـا الْمُرْسَلُونَ (57) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْـرِمِينَ (58) إِلَّا آلَ لُـوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (59) إِلَّا امْرَأَتَـهُ قَـدَّرْنَا إِنَّهَـا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (60)﴾

قوله تعالى ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَـيْفِ إِبْـرَاهِيمَ﴾ كـان لسـيدنا إبـراهيم دارٌ لها اربعة أبواب من الجهـات الأربـع حـتى لا يفوتـه الضـيف. ولذلك كـان يُكَنّى أبـا الضّـيفان. والضـيف في الأصـل مصـدر لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث. وكان الضـيف من الملائكـة المرسـلين لتبشيره بالغلام، ثم بخلاص لوط ابن أخيه من خزي المجرمين. وفي الحكاية تسلية للرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم بأنـه قـد مضى في الدنيا رسل جاءهم ما ساءهم وصـبروا حـتى جـاءهم النصر، ولك بهم أسوة حسنة ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ متعلـق بالضـيف لتضمنه معنى الورود والنزول ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي نُسـلّم عليـك سـلاما ﴿قَـالَ﴾ بعـد رد السـلام لهم: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُـونَ﴾ أي خائفون. وهذا

القول بَعْد أَن قرَّب إليهم لَحم العجل وامتنعوا عن الأكـل، فظن إبــراهيم أنهم جــاؤا بقصــد الإســاءة إليهم، ولــذلك لا يــأكلون طعامهم. ﴿قَالُوا﴾ في تهدئـة بالـه: ﴿لَا تَوْجَـلْ إِنَّا نُبَشِّـرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أي بولد يولـد فيصـير شخصـا عليمـا بالكتـاب والصـحف المنزلة عليه علما وافيا كافيا. ﴿قَالَ أَبَشَّـرْتُمُونِي﴾ بـذلك ﴿عَلَى أَنْ مَسَّـنِيَ الْكِبَـرُ﴾ وأثـر في ظهـري ويئسـت من الإيلاد ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أي فبأي شيء تبشـروني بولـد ولادتـه خارقـة للعـادة ناشئة عن سلطان الإرادة الربانية، او بولد وجـوده غـير محقـق وانما يبشر به لفظا؟ ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي بـالأمر الثـابت الذي لا خلاف فيـه وهـو ولـد ناشـئ عن الإرادة، وليس إخبارنـا محض التلفظ الـذي لا أصـل لـه ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَـانِطِينَ﴾ عن ظهور الأمور الخارقـة للعـادة بحسـب الإرادة ﴿قَـالَ﴾ إبـراهيم: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ﴾ وييأس ﴿مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّـالُّونَ﴾ المخطئـون طريق معرفة الباري تعالى ومعرفة سيطرته وقدرتـه على كـل مـا تعلقت بـه إرادتـه؟ وبعـد أن تعـرف على أنهم مبشـرون لا منــذرون ﴿قَــالَ فَمَــا خَطْبُكُمْ﴾ أي شــأنكم الخطــير الــداعي لنزولكم جماعة لا وحدانا ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ هم قوم لوط الموصوفون بالإستهتار وعـدم المبالاة بـالخزي والعـار علاوة على عـدم الإسـتحياء من الملـك الجبار ﴿إِلَّا آَلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (59) إِلَّا امْرَأَتَـهُ﴾ فـآل لــوطٍ مســتثنى من القــوم المجــرمين ولا يعــذبون، وامرأتــه مستثناة من آل لوط الناجين فتعذب معَ المجرمين ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَـا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي قررنا كونها من الباقين في العذاب ولا تنجـو منه وكسرت همزة إن لأن التقدير متضـمن لمعـنى العلم. وقـد علق عن العمل فيما بعـده بسـبب وجـود لام الإبتـداء الـتي لهـا صدر الكلام، وهذا التعليق هو إبطال العمل لفظا لا محلا فيجوز العطف على تلك الجملة مع نصب جزءيها.

﴿فَلَمَّا جَاءَ آَلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (61) قَـالَ إِنَّكُمْ قَـوْمٌ مُنْكَـرُونَ (62) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (63) وَأَتَيْنَـاكَ بِـالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (64) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَـارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُـوا حَيْثُ تُـؤْمَرُونَ (65) وَقَضَـيْنَا إِلَيْـهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (66)﴾

قولـه تعـالى: ﴿فَلَمَّا جَـاءَ آَلَ لُـوطٍ الْمُرْسَـلُونَ﴾ أي فلمـا جـاء المرسلون إلى بيت لوط مباغتة وما عرفهم قبل ذلك خـاف أن جاؤه لشر يريدونه، أو لمـا رآهم على سَـمتٍ حَسـن وخـاف أن يصـيبهم قومـه بسـوء ﴿قَـالَ إِنَّكُمْ قَـوْمٌ مُنْكَـرُونَ﴾ أي غـير معروفين ذاتا وشخصا، أو منكر مجـيئهم إلينـا بهـذا الوجـه لأنـه يخاف عليكم من المس بسوء الأدب، فأضربوا في الجـواب عن إرادة السوء به أو عن جهل بأحوال قومه الفاسدين المتمـردين ﴿قَالُوا﴾ أعرض عن خيال أنا جئنـاك لشـر نريـده لـك أو جئنـاك جـاهلين بـأحوال قومك ﴿بَـلْ جِئْنَـاكَ﴾ عـارفين بـأحوال أولئـك النـاس الطغـاة وطـالبين الخـير لـك لنُهْلِكهم فتبقى سـالماً من أذاهم وأحوالهم المختلة المسـتكرهة المنفـورة. وجئنـاك ﴿بِمَا﴾ أي بالعذاب الـذي ﴿كَـانُوا فِيـهِ يَمْتَـرُونَ﴾ ويشـكون ولا يؤمنـون نزوله عليهم ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالأمر المتيقن الذي لا مجـال للشك فيه ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما نقوله لك ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي مع بقاء طائفة من الليل ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَـارَهُمْ﴾ وتتبـع واطلع على أحوالهم كيـف يهلكـون ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَـدٌ﴾ لئلا يـرى من الهـول مـا لا يطيقـه فيختـل عقلـه ﴿وَامْضُـوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أي إلى حيث يأمركم اللـه تعـالى بالمضـيِّ إليـه وهـو الشـام أو مصـر أو الأردن. وقيـل: موضـع نجـاة غـير معين ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾

أي وأوحينا إليه ذلـك الأمـر وهـو مبهم يفسـره ﴿أَنَّ دَابِـرَ هَـؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ أي حـالكونكم داخلين في الصـبح. والمعـنى أنهم يستَأصلون لا يبقى منهم أحد إذا دخلوا في الصبح.

﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67) قَالَ إِنَّ هَـؤُلَاءِ ضَـيْفِي فَلَا تَفْضَـحُونِ (68) وَاتَّقُـوا اللَّهَ وَلَا تُخْـزُونِ (69) قَـالُوا أَوَلَمْ نَنْهَـكَ عَنِ الْعَـالَمِينَ (70) قَـالَ هَـؤُلَاءِ بَنَـاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَـاعِلِينَ (71) لَعَمْـرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَـكْرَتِهِمْ يَعْمَهُـونَ (72) فَأَخَـذَتْهُمُ الصَّـيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (74) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (75) وَإِنَّهَا لَبِسَـبِيلٍ مُقِيمٍ (76) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (77)﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ إستئناف لبيان ما صدر من القوم البُغاة بَعدَ علمهم بنزول الضيف على بيت لـوط عليه السلام. فيقول: ولما علم القـوم بـذلك جـاء أهـل المدينـة منهم أي الذين تعودا مباشـرة البغي مستبشـرين مسـرورين إذ سمعوا أن عنده عليه السلام ضيوفا كذا وكـذا. ﴿قَـالَ إِنَّ هَـؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ أي قال لوط عليـه السـلام لمـا جـاؤا: ان هؤلاء الواردين ضيوفي ونزلوا في بيـتي وإهـانتهم إهانـة لي فلا تتعرضوا لهم بسوء ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي واتقوا عذابـه على بغيكم ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ أي لا تهينوني بالتعرض لمن نزل بيتي.

﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي إيواء أحد منهم ومنعـك لنـا عن التعـرض لهم ﴿قَـالَ هَـؤُلَاءِ بَنَـاتِي﴾ أي نسـاؤكم اللاتي في إدارتكم وهن كبناتي بالنسبة إلى مقام رسالتي، أو نساء

القوم اللاتي يمكن تزوجهن بسهولة وهن كبناتي، أو بناتي الموجودات عندي إذا رغبتم في نكاحهن ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ شيئا أقولُ لكم ويرضى به الله تعالى. وقوله تعالى ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قَسمَ من الله تعالى بحياة النبي صلى الله عليه وسلم على أنهم، أي الطغاة، من قوم لوط عليه السلام منهمكون في غوايتهم وضلالتهم يتحيرون بحيث لا يُصْغُون إلى نصيحة الناصح أيا كان.

والذي ظهر من الروايات في الموضوع أن الملائكة الواردين على سيدنا لوط عليه السلام كانوا عبارة عن جبريل عليه السلام وجمع آخرين كانوا مأمورين بالنزول إلى بيت إبراهيم عليه السلام في قرية الخليل، ثم الذهاب إلى بيت لوط عليه السلام في سدوم على أربعة فراسخ من محل إبراهيم، ونزلوا على إبراهيم بعد نصف النهار وكان الوقت وقت الغذاء، فقدم إليهم عجلا حنيذا فأبوا أن يأكلوا منه، فأوجَس إبراهيم خيفة منهم فهدأوه وبشروه بالولد وولده، وودعوا مِن عِندهِ، وجاؤا إلى بيت لوط والوقت قريب من المغرب، فنزلوا عليه ولم يعرفهم لوط عليه السلام أول الأمر، وأظهر الخوف منهم، فأخبروه بالامر الذي جاؤا له، وأن يرتحل في آخر الليل مع أهله والمؤمنين معه، إلا امرأته. ولما علم قومه بنزول الضيف عليه أسرعوا الى بيت لوط فاستقبلهم لوط عليه السلام وترجاهم أن يتركوا بيته وضيفه، فأبوا، فرجع لوط إلى بيته وسد عليهم الباب، ولما اقتحموا عليه الباب وأرادوا دخول البيت استأذن جبريل عليه السلام ربه في عقوبته فأذن له، فتحول إلى صورته التي يكون فيها، ونشر جناحيه فضرب بهما وجوههم فأعماهم، وطمس أعينهم حتى ساوت وجوههم، فصاروا لا يعرفون الطريق فانصرفوا وهم يقولون: النجاءَ النجاء، في بيت لوط سحرة قد سحرونا. يا لوط سترى منا غداً ما ترى! ولما قرب

الصباح ارتحل لوط وآله ومن معه من القرية إلى حيث أمـرهم الله. ولما دخل الفجر حلّ الأمر ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ أي صيحة هائلة ﴿مُشْرِقِينَ﴾ أي داخلين في شروق الشمس. والجمع بين مصبحين ومشرقين باعتبار الابتداء والإنتهاء بأن يكون ابتداء العذاب عند الصبح وانتهاؤه عند الشروق. ومعنى أخذتهم الصيحة قهرتهم وغلبتهم وتمكنت منهم ودمرت بلدتهم. فأماتتهم وجعلتهم في أعماق الأرض المقلوبة إلى يوم البعث والنشور ومثواهم ملئت نارا بدل النور. كما قال تعالى ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أي فجعلنا أعالي الأرض أسافلها، فقلبت عما كانت ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ في تضاعيف ذلك ﴿حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ أي من طين متحجر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الأمر الهائل وقلب المكان بالقوم المتمرد الغافل ﴿لَآيَاتٍ﴾ لعلامات يستدل بها على مسؤلية الإنسان إزاء أحكام ربه. وإن سنة الله تعالى جارية بإهلاك القوم عند خروجه عن حده وأدبه تظهر تلك الآيات ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ الناظرين من القرن الى القدم، ويستقصون وجوه التعريف والتمييز لأهل اللؤم من الكرم. وإلا فغير المتفكر لا ينتفع من العبر ولو نزلت عليه كالمطر.

﴿وَإِنَّهَا﴾ أي مدينة لوط المقلوبة ﴿لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ أي لفي طريق ثابت يسلكه الناس ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي إن في ادراك ذلك ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (78) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (79) وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (81) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (82) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (83) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (84) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (85) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (86)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ كلمة إن مخففة من المثقلة، والأيكة في الأصل الشجرة الملّتفة واحدة الأيك. والمراد بها غيضة أي بقعة كثيفة الأشجار. وأصحاب الأيكة قوم شُعيب من نسل مدين ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام. بعث الله اليهم شعيبا وكانوا يخسرون في المكيال والميزان، فنصحهم ولم تفدهم النصيحة. والمعنى لا شك أن أصحاب الأيكة كانوا ظالمين أنفسهم بالمعصية وأنفس الناس بالخيانة في معاملاتهم ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي جازيناهم على جنايتهم السابقة وبعثنا عليهم نارا في غمام مطبق، فأهلكتهم في يوم الظّلّة ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ أي وإن مَحَلّي قومِ لوطٍ وقوم شعيب ﴿لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾ لفي طريق واضح تَمُرون بهما في أسفارِ التجارات الى الشام ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ﴾ وهم قوم ثمود والحجر وادٍ بين الحجاز والشام كانوا يسكنون به.

قال الراغب يسمى ما يحيط به الحجارة حجراً. وبه سُمي حجرُ الكعبة وديار ثمود.

وقد نهى صلى الله عليه وسلم أصحابه رضي الله عنهم عن الدخول على هؤلاء القوم إلا أن يكونوا باكين حَذراً من أن يصيبهم مثلُ ما أصابهم كما في صحيح البخاري وغيره. وجاء عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن الناس عام غزوة تبوك استقوا من مياه الآبار التي كانت تشرب منها ثمود وعجنوا منها، ونصبوا القدور باللحم فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم

بإهراق القدر، وأن يعلفوا الإبل العجينَ، وأمرهم أن يَستَقُوا من البئر التي كانت تَرِدُه الناقة هذا.

وأخذ بعض العلماء من هذا الحديث بطريق دليل العكس أن البقاء في موارد أهل العلم والدين والإحسان مبارك ومرغوب فيه، لأن آثار الرحمة ليست أقل من آثار النقمة. فكما يبقى شؤم محل الظلم وديار الفساد كذلك تبقى ميمنة ديار الخير والرشاد.

وذلك على غرار قوله صلى الله عليه وسلم: ((أرأيتم لو وضعها في حَرامٍ أكان عليه وزر؟ قالوا: نعم. قال: فكذلك إذا وضعها في حلالٍ كانَ له أجْر)) وقوله تعالى: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ مع أن من أرسل إليهم هو سيدنا صالح لأن من كذّب رسولاً فكأنما كذب رسلا، وذلك لأن الهدف واحد وأسباب الاثبات من قبيلة واحدة.

﴿وَآَتَيْنَاهُمْ آَيَاتِنَا﴾ من الناقة المخلوقة من الصخرة وسقيها وشربها ودرّها. وقد روي أنه كان لسيدنا صالح عليه السلام معجزات كثيرة غير الناقة ﴿فَكَانُوا﴾ أي أصحابِ الحجر ﴿عَنْهَا﴾ أي عن قبول تلك الآيات ﴿مُعْرِضِينَ (81) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ حالكونهم ﴿آَمِنِينَ﴾ من الإنهدام، وهجوم الأعداء، وتخريب المخالفين لهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ حالكونهم داخلين في الصبح ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من نحت البيوت واتخاذ الملاجئ الحصينة ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي إلا خلقا متلبسا بالحكمة بحيث لا يُلائمه ولا يناسبه استمرار إفساد الطغاة البُغاة على الحق ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ﴾ أي يوم البعث والحشر والميزان والحساب والثواب والعقاب ﴿لَآَتِيَةٌ﴾ بلا شك وشبهة ﴿فَاصْفَحِ﴾ عن الكفرة ﴿الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ الخالي عن عتاب من الله يرد عليك ومن محبة لهم ترجع بالوبال عليك. والصفح الجميل: ما خلا من العتاب

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ لكل موجود ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوال كل ما دخل في الوجود، ولا يهمل حق العابد ولا المعبود.

﴿وَلَقَدْ آَتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُـرْآَنَ الْعَظِيمَ (87) لَا تَمُـدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَـا مَتَّعْنَـا بِـهِ أَزْوَاجًـا مِنْهُمْ وَلَا تَحْـزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَـكَ لِلْمُـؤْمِنِينَ (88) وَقُـلْ إِنِّي أَنَـا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (89) كَمَـا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (90) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُـرْآَنَ عِضِـينَ (91) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93) فَاصْـدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) إِنَّا كَفَيْنَـاكَ الْمُسْـتَهْزِئِينَ (95) الَّذِينَ يَجْعَلُـونَ مَـعَ اللَّهِ إِلَهًـا آَخَـرَ فَسَـوْفَ يَعْلَمُـونَ (96) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آَتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَـانِي﴾ والقـرآن العظيم يعني آتيناك ووهبنا لك من رحمتنا وأنزلنا إليك من مخزن لوحنـا المحفوظ سـبعا من الآيـات القرآنيـة الـتي تحتـوي على مجمـل جميـع مـا في القـرآن الكـريم، وهي سـورة الفاتحـة وتسـمى بالسبع المثـاني، لأنهـا سـبع آيـات بالإتفـاق إلا أن منهم من عـد البسملة آيـة منهـا دون أنعمت عليهم ومنهم من عكس. وتكـرر في جميع الصلوات والمثاني جمع المثنى بمعنى المكرر أو لأنها نـزلت مـرتين، إن صـح ذلـك مـرة بمكـة حين فرضـت الصـلاة، وبالمدينـة حين حـولت القبلـة من بيت المقـدس إلى الكعبـة. وقوله تعالى ﴿وَالْقُرْآَنَ الْعَظِيمَ﴾ إما

المراد به نفس الفاتحة فيكون بيانا لصفة ثانية للفاتحة: الأولى السبع المثانى، والثانية القرآن العظيم. ووجه عظمتها اختصاصها بالتكرار في أحد أركان الإسلام أعني الصلاة، أو احتواؤها على إجمال جميع القرآن الكريم. وإما المراد به كل القرآن فيكون ذكره من ذكر الكل بعد الجزء كما يقول القائل مدحت عيون حبيبتي وشخصها. وإذ قد خَصَّصْناكُم بهذه المنحة العجيبة العظيمة التي لا مثل لها ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا﴾ أي أصنافا ﴿مِنْهُمْ﴾ من الكفرة كاليهود والنصارى والمشركين ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ حيث إنهم لم يؤمنوا ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي تواضع لهم وارفق بهم. وأصْلُ ذلك أن الطائر إذا أراد أن يضم فرخه إليه بَسَطَ جناحيه له. وحكى بعض في سبب نزول الآية أنه وافت من بصرى وأذرعات سبع قوافل لقريظة والنضير في يوم واحد، فيها أنواع من البرّ والطيب والجواهر... فقال المسلمون: لو كانت لنا لتقوينا بها ولأنفقناها في سبيل الله تعالى. فنزلت فكأنه سبحانه وتعالى يقول: قد أعطيناكم سبعا من الآيات هي خير من تلك القوافل السبع ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ أي المنذر من الله تعالى الموضح والكاشف لنزول عذابه على من لم يؤمن به، وقوله تعالى: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (90) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أي مثل العذاب الذي أنزلناه عليهم فالجار والمجرور وصف لمفعول النذير أقيم مقامه. والمقتسمون هم الرجال الإثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة المكرمة أيام المواسم لينفروا الناس الواردين عن اللقاء بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعن الإيمان به فأهلكهم الله تعالى يوم بدر.

ولا يقدح في صحة التركيب كون الإنذار من الرسول صلى الله عليه وسلم وكون العذاب المشبه به من افعاله تعالى لان الرسول لما كان رسول الله وأوامره أوامر الله وإنذاراته لهم جاءته من الله... فكأنه

من أهل إنزال العذاب أيضا كما أنه لا يضر بصحة المعنى كون العذاب المشبه به غير واقع بعد، لأن الآية مكية ونزول العذاب بالمقتسمين كان في بدر بعد الهجرة لأن المستقبل المحقق كالماضي الفائت والحال الحاضر. والمقتسمون هم أبو جهل، والوليد بن المغيرة المخزومي، وحنظلة ابن أبي سفيان، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة... وسائر أصحابهم الذين قُتلوا يوم بدر. وعِضينَ جمع عِضَةٍ، وأصلها عِضَوٌ حذفت الواو وعوض عنها تاء التأنيث. أي جَعَلوا القرآن أجزاء وأعضاء عديدة يؤمنون ببعض منه مما يوافق طبعهم ويكفرون ببعض آخر منه وهو الذي يخالفه. أو لأنهم وصفوه بصفات متخالفة، فمنهم من يقول: إنه سحر، ومنهم من يقول إنه قول كاهن، ومنهم من يقول إنه قول مجنون يتكلم بما لا يقصده إلى غير ذلك من الأوصاف...

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من التقسيمات حيث اقتسموا أعتاب مكة وأنقابها وفِجاجها. ويقولون لمن سلكها: لا تغتروا بهذا الرجل الذي خرج عن عاداتنا وتقاليدنا، ويدعي النبوة إلى التوحيد فإنه مجنون. وربما قالوا ساحر، وربما قالوا كاهن. وسُمُّوا بالمقتسمين لأنهم اقتسموا هذه الطرق فأماتهم الله شر ميتةٍ. وكانوا نصبوا الوليد بن المغيرة حَكَما على باب المسجد فإذا سألوه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال صَدَق أولئك الناقمون عليه. أو مما كانوا يصفون به القرآن الكريم من الصفات الذميمة أو من كل ما فعلوه من طرق العناد مع الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، أو من كل ما فعلوه من الكفر والمعاصي أي الأمور الفاسدة الإعتقادية والعملية. ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي اجهر بما تؤمر به، وأعلنه على رؤس الأشهاد: من صدع بالحجة إذا تكلم به جهارا، أو فرق ببيان القرآن الذي أُمرت بتبليغه بين الحق والباطل ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ فلا تهتم بهم، فإن أجوافهم خالية وأحرفهم بالية، وإن كانت <96>

أصواتهم عالية. فعما قليل تخمد نارهم ويخلد عارهم ولا يؤخذ ثأرهم ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ بقمعهم وإهلاكهم ومنعهم عن استمرار الإفساد وهم خمسة من أشراف قريش: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وعديّ ابن قيس، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب. وكل منهم أصيب بداء عضال مات به والحمد لله. و﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ما ينالونه من العقاب الصارم الخالد ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ من شتى الكلمات القادحة في الله تعالى وفي كلامه وفي رسوله وفي شريعته التي جاء بها ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي فافزع إلى الله في دفع الشر عنك وكشف غمك وشرح صدرك وظهور نصرك بالتسبيح والتحميد، فإنه يكفيك شر كل كفار عنيد ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ أي من المصلين الذين أقرب أحوالهم من الله أن يكونوا ساجدين لأنهم يضعون أشرف أعضائهم على أدنى الأماكنِ التي تطأها الأقدام إعزازا للهِ العلام. وكان صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبَهُ أمر فزعَ إلى الصلاة. وقد قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ﴾ واثبت واستقم على عبادة ربك ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أي الموت، فإنه أمر متيقن لا شبهة في عروضه لكل حيّ. أو فاعبد ربك حتى يأتيك العلم اليقين بما نهدد به المشركين المستهزئين من الهلاك والدمار في بدر وحنين وسائر الديار، وهذا الخطاب وإن كان متوجها إلى حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم لكنه يُرادُ به خطابُ كل مؤمن لوجوب ثباته على اعتقاده وأعماله حتى يأتيه الموت، وبالنسبة إلى غيره صلى الله عليه وسلم يجوز أن يقال واعبد ربك حتى يزداد إيمانك ويصل اعتقادك إلى مقام اليقين الذي لا مقام فوقه. <97>

سورة النحل مكية، وهي مائة وثمان وعشرون آية نزلت بعد سورة الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (1) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (2) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (3) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4)﴾

قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ قال المفسرون كان المشركون يستعجلون نزول العذاب الذي أوعدهم الرسول صلى الله عليه وسلم به فأنزل الله الآية. أي إن نزول العذاب المنتظر محقق لا شك فيه ترونه عاجلا أو آجلا، فلا تستعجلوا وقوعه فانه لا خلاص لكم منه إذا نزل ولا خير لكم فيه. ولما كانوا يقولون إن نزل العذاب الموعود علينا فرضاً فلنا شفعاء من الشركاء يخلصوننا منه قال الله سبحانه ﴿تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تبرأ جل جلاله عن أن يكون له شريك فيدفع عن الكافرين ما نزل عليهم منه. ولما كان إنكارهم لنزول العذاب متفرعا عن إنكار رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم وصِدقهِ في دعوى الرسالة قال تعالى ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي إن الله تعالى قادر يقدر على تنفيذ كل ما أراده وأنه ينزل الملائكة المأمورين عنده بالوحي الذي هو كالروح للاجساد، وذلك الروح ينزل بسبب أمره بنزوله ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ الأنبياء الذين خصّهم الله تعالى بهذه المواهب الجليلة ﴿أَنْ أَنْذِرُوا﴾ أي بأن أنذروا الناس ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ﴾ أي

لا واجب في الوجود ولا خـالق ولا معبـود ﴿إِلَّا أَنَا﴾ لا شـريك لي ذاتاً وصفةً وفعلاً ﴿فَاتَّقُونِ﴾ فاحذروا مخالفتي عن أي شيء مما لا أرضى به.

ولَما جعل مناطَ الإنذار ومدار الإعتبـار هـو نشـر كلمـة التوحيـد وحصـر العبـادة فيـه.. إسـتأنف ببيـان خلـق السـماوات والأرض الـدال على اسـتحقاقه للعبـادة، وأن لا شـريك لـه فيهـا، فقـال ﴿خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِـالْحَقِّ﴾ أي خلقـا متلبسـا بـالحق فاوجدهما على مقدار محـدود وأشـكال وآثـار وصـفات مختلفـة خصصها بهـا بمحض إرادتـه المرجحـة لهـا بـالوجود. و﴿تَعَـالَى﴾ وتبارك ذلك الخالق المبدع ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي عن إحتياجه لما يشـــركونه لـــه فلم يفتقـــر، لا في خلقهـــا وإبـــداعها، ولا في تخصيصها بصفاتها، ولا في إبقائهـا الى شـريك لـه يعاونـه فيهـا، لأن القدرة الابداعية لا تقبـل أي إضـافةٍ وانضـمامٍ لغيرهـا إليهـا لكفايتها في تنفيذ ما شاء تعالى. وكما خلق السـماوات والأرض وعمرهما خلقَ الإنسان الذي هـو أشـرف الموجـودات المفيـدة للفضائل العلمية والعملية من نطفة أمشـاج خلقهـا أطـواراً من المائية فالدموية فالمضغية فسائر الأطوار الأخرى الملحقة بمـا تقـدم... حـتى صـار انسـانا سـويا قويـا قـادرا على اكتسـاب الفضائل من شتى الوجـوه، فمنهم من اختصـه برحمتـه وجذبـه الى حضرة قدسه بحكمته، ومنهم من تَدَهْوَرَ بَدلَ أن يتطور إلى الإتصاف بكمال الإنسان، فاتصـف بمبـادئ النقصـان ﴿فَـإِذَا هُـوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ للحجة، او خصـيم مكـافح لخلقـه قـائلا من يحـيى العظام وهي رميم؟

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَـا تَـأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُـونَ وَحِينَ تَسْـرَحُونَ (6) وَتَحْمِـلُ أَثْقَـالَكُمْ إِلَى بَلَـدٍ لَمْ تَكُونُـوا بَالِغِيـهِ إِلَّا بِشِـقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَـرَءُوفٌ رَحِيمٌ (7) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُـقُ مَـا لَا تَعْلَمُـونَ (8) وَعَلَى اللَّهِ قَصْـدُ السَّـبِيلِ وَمِنْهَـا جَـائِرٌ وَلَـوْ شَـاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (9)﴾

قوله تعـالى: ﴿وَالْأَنْعَـامَ خَلَقَهَـا لَكُمْ فِيهَـا دِفْءٌ﴾ الأنعـام الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والضأن والمعز. ولا يقال لهـا أنعـام إلا إذا كان فيها إبل. وهو منصوب بفعل مضمر يفسره قوله تعـالى ﴿خَلَقَهَا﴾ وهذا التركيب أرجح من رفعـه على الابتـداء لتتناسـب مع الجملة الفعليـة السـابقة ﴿لَكُمْ فِيهَـا دِفْءٌ﴾ أي مـا يـدفأ بـه فيحفظ من البرد ﴿وَمَنَافِعُ﴾ هي نسلها ودَرُّها وظهورهـا ﴿وَمِنْهَـا تَأْكُلُونَ﴾ أي تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم والألبان ﴿وَلَكُمْ فِيهَـا جَمَـالٌ﴾ أي زينـة ﴿حِينَ تُرِيحُـونَ﴾ أي تَرُدّونهـا مِن مراعيها إلى مراحها بالعشي ﴿وَحِينَ تَسْـرَحُونَ﴾ أي تخرجونهـا بالغداة إلى المراعي. وهذه نعمة دنيوية، وقد تنقلب نعمة دينية لمن يريـد اقتناءهـا لمنفعـة المسـلمين ﴿وَتَحْمِـلُ أَثْقَـالَكُمْ﴾ أي أحمالكم الثقيلة. والحامل منها الإبل والثور ﴿إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُـوا بَالِغِيهِ﴾ واصلين إليه بأنفسـكم ﴿إِلَّا بِشِـقِّ الْأَنْفُسِ﴾ أي بمشـقة الأنفس وتعبها ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَـرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ولـذلك خصـكم بهـذه النعم المفيدة من شتى جهات الإفادة ﴿وَالْخَيْلَ﴾ هو اسم جنس للفرس لا واحد له من لفظه كالإبل. وذكـر الـراغب أنـه يطلـق على الأفراس والفرسان ﴿وَالْبِغَالَ﴾ جمع بغل ﴿وَالْحَمِيرَ﴾ جمـع حمـارٍ، ويجمـع في القلـة على أحمـرة وفي الكـثرة على حُمُـرٍ ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ أي خلقها لكم لتركبوهـا ﴿وَزِينَـةً﴾ أي ولتـتزينوا بهـا زينـة. او مفعـول بـه لفعـل محـذوف أي وجعلهـا زينـة لكم في حياتكم الدنيوية.

وقوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بيان لكثرة مخلوقات الله تعالى بحيث يفوت نطاقَ البيان في التعبير عنها، فمنها ما في البراري والجبال

والوديان والكهوف والبحار مما يمكن تربيتها والاستفادة منها. ومنها ما ليس كذلك. أو إيماء إعجازي لما خلقه الله في عالمنا من السيارات والطيارات والغواصات البحرية والنهرية والمكائن والأجهزة المستعملة في الحرث والحصاد والتصفية والتنقية، والآلات المستعملة في استخراج المعادن والمياه الجوفية... وغير ذلك فإن كلها تحصل من المواد المخلوقة لله تعالى بلا شبهة من أهل العقل السليم. وهذه الجملة على غرار قوله تعالى في سورة (يس) ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ فكل ذلك من مخلوقات الله تعالى لأن أجزاءها التكوينية من المعادن والبخار والهواء والأثير والوقود.. كلها من خلقه تعالى. وكذلك إنشاء تفكير الصنع وتركيبه ونفس الصانع لهذه الأشياء أو المخترع لها من مخلوقاته تعالى ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ والقصد بمعنى القاصد أي المستقيم، والسبيل هو الطريق، فالإضافة من إضافة الصفة إلى الموصوف أي وعلى الله بيان الطريق المستقيم وهو الشرع المبعوث به الرسول الكريم، لأن الله هو الحق ويهدي المكلفين إلى الحق. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ أي ومن السبل سبيل جائر منحرف عن الحق إلى الباطل، وهو ما اتخذه أهل الضلال من طرق عبادة غير الله سبحانه من الكواكب والأشجار والأحجار والحيوانات... وغير ذلك. ومعنى قوله ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ هو الإستقرار والبدء أي هو يبدأ بتشريعها، ويستقر هذا الأمر عليه فضلا ورحمة لا وجوبا منه أو عليه، لأن الله سبحانه مختار في كل فعل من أفعاله تعالى. والحاصل أن الله تعالى بين طريقَ الحق وأرشد الناس إليه فمنهم من سلك فيه حتى وصل إلى ما يبتغيه، ومنهم من لم يسلك فيه فهلك فيما يرتئيه، لا يجب على الله تعالى خلقُ الإهتداء القسرى فيهم، وإلا ما كان للثواب والعقاب طريق مع أنه تعالى قادر على <101>

كل شيء ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لكن لم يشأ ذلك لأنّ مشيئته تابعة للحكمة، ولا حكمة في تلك المشيئة، لما أن المدار للتكليف هو الاختيار لا القسر والإجبار.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (17) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (18) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (19)﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ﴾ شروع في بيان نوع آخر من النعم الدالة على توحيده تعالى يعني هو الخالق المنفرد بالتأثير الذي أنزل من السماء من نفسها أو من السحاب ماء لانتفاعكم ﴿مِنْهُ شَرَابٌ﴾ أي

بعض منه شراب تشربونه ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ أي ومن ذلك المــاء أو بعض ذلـك المـاء نبـات ﴿فِيـهِ تُسِـيمُونَ﴾ أي تَرْعَـونَ مواشـيكم ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ﴾ من الأقـوات وغيرهـا ﴿وَالزَّيْتُـونَ﴾ الـذي فيه منافع كثـيرة في نفس ثمرهـا وعصـارتها ﴿وَالنَّخِيـلَ﴾ الـذي يتكفـل حيـاة القـوم ﴿وَالْأَعْنَـابَ﴾ الـتي يتفكّـه بهـا ويجعـل منـه الزبيب والدبس وسائر ما يستحصل منها ﴿يُنْبِتُ﴾ لكم به ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أعم ممـا ذكـر وغـيره لـو استقصـيته لمللت دون الوصــول إلى منتهــاه ﴿إِنَّ فِي ذَلِـكَ﴾ المــذكور ﴿لَآيَـةً لِقَــوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في أنّ الجنّة كيف خُصّت بأن تكون أساسا لاستمرار نوع الشجرة إلى الأبد.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي وسخر لكم المتحـرك الـذي من شروقه وغروبه يحصل الليـل والنهـار ﴿وَالشَّـمْسَ وَالْقَمَـرَ﴾ أي وسخر لكم الشمس والقمر، إذا كانا متحركين في السماء فقـد سخرهما للحركة المدورة الدائمة المستمرة التي يحصــل منهــا الليــل والنهــار، وإن كانــا ســاكنين فقــد ســخرهما للبقــاء في محلهما. والمقـرر اليـوم[1] هـو أن الشـمس مسـخرة للسـكون والارض والقمر وسائر الكواكب للحركة اليوميـة حـول أنفسـها، وللحركة السنوية للأرض حـول الشـمس والقمـر حـول الأرض، ونســمع اليــوم من بعض النــاس أن الفلكــيين اكتشــفوا أن للشمس حركة لنفسها ولمجموعتها التابعة لها جوا.

﴿وَالنُّجُـومُ مُسَـخَّرَاتٌ بِـأَمْرِهِ﴾ مبتـدأ وخـبر، أي وسـائر النجـوم مسخرات بأمر الله تعالى لما خلـق لـه والمقصـود من ذلـك أن كل ما في الوجود من المحسوس المشهود شيء مسـخر بـأمر المعبود فوظيفة الخدمة والسجود لمن له العزة فتعالى وتبارك الملك المعبود ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿لَآيَـاتٍ﴾ بـاهرة ظـاهرة على أنها ممكنات حادثة، وحدوثها كـان بـأمر اللـه تعـالى وتلـك الآيات ثابتة أو مفهومة ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ولا يغفلون

[1] علما بأننا نؤمن بجريان الشمس على ظاهر الآية.

﴿وَمَـا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي وخلـق مـا نشـر لكم في الأرض ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ من حيوان ونبات ومَعْدَن وسائر ما يتفرع منهـا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَـذَّكَّرُونَ﴾ يتفكـرون في أن اختصاصـها ببعض الجهـات والأمكنـة والأزمنـة والأحـوال ليس إلا بـإرادة الفاعل المختار رب العالمين.

﴿وَهُـوَ الَّذِي سَـخَّرَ الْبَحْـرَ﴾ فجعلـه هادئـا بحيث يغـوصُ فيـه الغواصـون ليُخرجـوا منـه الأسـماك وسـائر الحيوانـات الناعمـة ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ طريفا ظريفا نظيفا ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَـةً﴾ من اللآلئ وسائر المـواد المضـيئة بحيث تـتزينون بهـا و﴿تَلْبَسُـونَهَا وَتَـرَى الْفُلْـكَ مَـوَاخِرَ فِيـهِ﴾ مقبلـة ومـدبرة وقولـه ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾ عطف على تستخرجوا، وما عطف عليه ومـا بينهمـا اعتراض، اي ولتبتغوا بالسير فيه ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ من رزقه الواسع ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْـــــكُرُونَ﴾ على تلـــــك النعم ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي وأثبت في أعماق الأرض جبالا رواسـي ثابتـة فيهـا ﴿أَنْ تَمِيــدَ بِكُمْ﴾ أي كراهــة أن تميــل بكم الأرض في ســيرها ودورانها، أي جعلها بحيث تعتدل بها أثقال الأطراف حتى تتحرك على المنهج المعتـدل، ولا تنحـرف يمنـة ويسـرةً ككُـرة نصـفها حديـدٌ ونصـفها خَشَـب ﴿وَأَنْهَـارًا وَسُـبُلًا﴾ أي وألقى فيهـا أنهـارا وسبلا، وجعلها طرقـا لمقاصـدكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَـدُونَ﴾ بهـا إلى مـا تريدونـه من المنـازل والمقاصـد ﴿وَعَلَامَـاتٍ﴾ أي وجعـل لكم معالم يستدل بها أهـل العقـل والمعرفـة من العـوام والخـواص حسب مسـتوياتهم المختلفـة، فمن النـاس من يسـتدل بمطلـع الشمس ومغربها أو بمطلع القمـر ومغربـه، ومنهم من يسـتدل بالجبـال وبحركـات الأنهـار، ونبت النباتـات والأشـجار وروائح الأرض، ومنهم من يســتدل بــالخطوط الطوليــة والعرضــية وبحسب ما وجده من طول النهار وقصره. فيستدل بـذلك على خط السير نحو الشمال أو الجنـوب والمشرق أو المغـرب، أو يستدل بها على أوقات الليل والنهار ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ في البر والبحر وقت الليل. وكانت

تلك المعالم سابقا غير مضبوطة ولا محدودة، واليوم وصل العلم إلى درجة ضبط الاوقات باجزاء الثواني، وضبط حرارة المنطقة وبرودتها وعروض الرياح والأمواج الباردة والحارة، وأوقات الزوابع.. وظاهر الآية الإهتداء بجنس النجم أيا كان. ولا مانع من أن يكون بعض النجوم أنفع وأوسع في الإهتداء من بعض فإن نجم الجدي وهو أصغر الكواكب من بنات النعش الصغرى الواقعة شمالي أفقنا يستدلّ به للشرق والغرب واتجاه سمت القبلة. ففي العراق إذا وقفت بحيث تراه وراء الأذن اليمنى عند الإلتفات فذلك الموضع موضع اتجاهك للكعبة المشرفة، وفي الشام يكون وراء الرأس، وفي اليمن يكون أمام وجهك، وفي مصر يكون في المشرق منك، وكذلك يستدل بها لاختلاف الفصول والمواسم، فكلما طلعت الشعرى كان دليلاً على حلول وقت البرودة بالليل ثم انطفاء حرارة النهار، ومنهم من خص الثريا والفرقدين وبنات نعش. ولكل وجهة.

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ﴾ أي أفمن يخلق ما ذكر من النعم التي عمت الإنسان أو يخلق كُلَّ شيء أراده ﴿كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ شيئاً جليلاً أو حقيراً؟ والجواب: كلّا. فإن الفرق بين المعدوم والموجود بأن الأول لا يكون أو ليس بكائن حتى يحصل منه أثر، والثاني كائن ومبدأ للآثار بديهي لا ريب فيه. وكذلك الفرق بين موجود لا يحصل منه أثر وموجود تحصل منه الآثار واضح ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ذلك حتى لا تبقى لكم شبهة في أنّ الله هو الخالق المعبود والمالك، وأن غيره مخلوق هالك. ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ فإن تعدادها فَرعٌ عن العلم بأعدادها، ولا علم بها إلا بشيء قليل مما نشاهده فينا وفي غيرنا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ حيث يستر كفركم لِنِعمِهِ ﴿رَحِيمٌ﴾ حيث لا يستعجلكم بالعذاب عليه. أو لا يمنعها عنكم مع قُصوركم عن شكرها ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ من إضمار ما لا يوافق رضاء الحق ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ من إشراك الخلق.

﴿وَالَّذِينَ يَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُـونَ شَـيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُـونَ (20) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21) إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْـتَكْبِرُونَ (22) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَـا يُسِـرُّونَ وَمَـا يُعْلِنُـونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (23)﴾

قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ شروع في إثبات أن آلهتهم المزعومة معزولة عن استحقاق العبـادة، فيقـول تعـالى ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ من الأشياء أصلاً ﴿وَهُمْ يُخْلَقُـونَ﴾ ومن لا يخلـق شـيئا ليس قـابلا للعبـادة، لأن العبادة تذلّل وخضوع، ولا يصح ذلك إلا للخالق العزيز الحكيم.

﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَـاءٍ﴾ أي الـذين يُـدْعَوْنَ من دون اللـه أمـوات لا حياة فيها غير أحياء. وفائـدة ذكـره التنبيـه، على أنّ بعض مـا لا حياة فيـه قـد تعتريـه الحيـاة كالنطفـة والمـواد الغذائيـة. وتلـك الأصنام كما لا حيـاة فيهـا ليسـت قابلـة لعروضـها عليهـا. ﴿وَمَـا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي ما يشـعر أولئـك الأصـنام أيـان يبعث الذين يعبدونهم. فعجيبٌ أن يعبد الإنسان الـذي يـدّعي الشـعور بالأشياء شيئا جامدا هامدا لا شعور له بنفسه ولا شـعور بغـيره! فـانتبهوا أيهـا النـاس وابتعـدوا عن هـذه الجهـالات والضـلالات ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ واجب الوجود قـديمٌ لا أول لـه، بـاق لا نهايـة له، واحـد لا نظـير لـه، قـائم بذاتـه لا حاجـة لـه الى مـا سـواه، مخالف لغيره بذاته وصـفاته، حي، قيـوم، عليم، سـميع، بصـير، قادر، مريد، متكلم مع رسله بتشـريع سُـبُله ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُـونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وأحوالِها وأهوالهـا ﴿قُلُـوبُهُمْ مُنْكِـرَةٌ﴾ لـذات موصـوف بالكمال

منزه عن النقص ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن قبول دواء نافع يتداوون به لجهلهم وإنكارهم للحقائق واستكبارهم عن قبول الحق. وذلك غاية في حمقهم.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي حَقّ وثَبتَ ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ مِن الإنكار ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من الإستكبار، فلا ينظر الله إليهم ولا يحبهم ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

وفي لا جَرمَ أقوال: منها أنه اسم مركب مع لا تركيب خمسة عشر وبَعْدَ التركيب صار معناه حق، وما بعده مرفوع على الفاعلية له. ومنها أنه مركب كلا رجل وما بعده خبر، ومعناه لا محالَةَ. وقيل: معناه لا صَدَّ ولا مَنع. وجرم اسم لا بمعنى القطع، وأن وما بعدها خبر محذوف منه الجار أي لا منع في أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون، ومنها غيرُ ذلك.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (25) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (26) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (27) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (29)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ أي وإذا نزلت آيــة من آيــات اللــه تعــالى في شــأن من الشــئون، وقيــل لأولئــك المستكبرين: ﴿مَـاذَا أَنْـزَلَ رَبُّكُمْ﴾ إسـتكبروا واسـتنكروا الحـق، ﴿قَالُوا﴾: الذي نزل هو ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني ما كتبه الأولون من شتى جهات الحياة، ويُملى على هذا الرجلِ ويَنشُرهُ بدَعوى أنه آية من آياتِ الله، فيأتون بهذا الجمود والجحود عناداً وعتـوا، ولا يعرفــون أن الأســاطير لا تخــرج عن نطــاق بعض أشــياء إعتيادية، وإذا كانت لهـا قيمـة فهي محـدودة وأمـا هـذه الآيـات المنزلة ففي ألفاظهـا براعـة وفصـاحة وسـماحة، وفي معانيهـا بلاغة وعُلوٌّ على مـراتب الجمـال من مطابقـة المقـام والحـال، وفيها أحوال ما وراء الطبيعـة، وفيهـا أمـورٌ علميـة لا يعلمهـا إلا الراسخون، وفيها تنظيم لحياة السعادة، وبيـان شـئون العبـادة، وطريق معيشة البشـر بكرامـة، وتنـويرُ القلـوب بتزويـد العمـل زادا ليـوم القيامـة. وقـالوا ذلـك ﴿لِيَحْمِلُـوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَـةً يَـوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بسبب فساد أعتقـادهم وأعمـالهم ﴿و﴾ يحملـوا ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾ بهذه الإضلالات الجامدة الهدامة حالكون الذين يضلونهم متلبسين ﴿بِغَيْـرِ عِلْمٍ﴾ عنـدهم حـتى يمـيزوا بـه بين الصالح وغيره وشر التعليم وخيره ﴿أَلَا﴾ أيهـا العقلاء ﴿سَـاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي ساء ما يحمله أولئك المستكبرون المضللون.

وليس هذا أوّل قارُورة كُسِرت في العالم بـل ﴿قَـدْ مَكَـرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كقـوم عيسـى وموسـى وَمَنْ سـبقهما من الرسـل فأتوا بما في إمكـانهم من المقـالات والمعـاول الهدامـة للـدين ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾

أي فأتى اللهُ ودمَّرَ أعمِدة بيوتهم التي بنـوا عليهـا ﴿فَخَـرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَـوْقِهِمْ﴾ إذ لمـا انقلـع الأسـاس وتـدمرت القواعـد انهدم البناء، وما بقيت لها فائـدة من الفوائـد ﴿وَأَتَـاهُمُ الْعَـذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْـعُرُونَ﴾ بإتيانـه منـه، بـل كـانوا يتوقعـون تـدمير مقابليهم وتعمير موافقيهم ومقاوليهم. فجاء الله بضد ذلك. هذا في الـدنيا ﴿ثُمَّ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ يُخْـزِيهِمْ﴾ أي يـذلهم ويحقـرهم ويعذبهم ﴿وَيَقُـولُ﴾ اللـه تعـالى لهم: ﴿أَيْنَ شُـرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ﴾ الرّسـل وتنـازعونهم ﴿فِيهِمْ قَـالَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ﴾ من أهل الموقف وهم الانبياء عليهم السـلام والمؤمنـون الـذين أوتوا العلم بدلائل التوحيد أو الملائكـة الحاضـرون: ﴿إِنَّ الْخِـزْيَ الْيَـوْمَ وَالسُّـوءَ عَلَى الْكَـافِرِينَ (27) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَـةُ﴾ حـالكونهم ﴿ظَـالِمِي أَنْفُسِـهِمْ﴾ باسـتمرارهم على الشـرك والمعاصـي ﴿فَـأَلْقَوُا السَّـلَمَ﴾ أي فـأظهروا خُضُـوعهم واستسلامهم لله حيث لم يبق عنـدهم معـذرة يعتـذرون بهـا ولا قوة يقتـدرون بهـا. وأصـل الكلام وألقـوا السـلاح أمـامَ الغـالب شعارا للسلم والطاعة قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَـلُ مِنْ سُـوءٍ﴾ يعـني أنا لمـا عملنـا مـا عملنـاه في الـدنيا وارتكبنـا مـا ارتكبنـاه فيهـا اعتقدنا أن ما فعلناه عَمَلُ خير لا فساد وسوء، والآن وقـد تـبين الأمـر وحصحص الحـق فنطلب العفـو والسـماح، فيـأتي عليهم الـرد من جـانب البـاري جـل شـأنه أو من جـانب الملائكـة المـأمورين هنـاك ﴿بَلَى﴾ فعلتم مـا فعلتم وأنتم مسـتكبرون ومنكـرون ولا ينفعكم هـذا الكلام ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهو يجازيكم، وهذا اليوم أوانه ﴿فَادْخُلُوا أَبْـوَابَ جَهَنَّمَ خَالِـدِينَ فِيهَا﴾ أي مقـدرين الخلـود فيهـا ﴿فَلَبِئْسَ مَثْـوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي مأويهم ومنزلهم الحقير جهنم.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (30) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (33) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (34)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ بيان لمقابل ما ذكره، يعني قد علمتم الجواب من الذين استكبروا عن الذي أنزل الله، وأما الذين اتصفوا بالتقوى فإذا قيل لهم: ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: أنَزَلَ خيراً. روي أن قبائل العرب كانوا يَبْعثونَ في أيام مواسم الحج مَنْ ينظر في الأحوال ويأتيهم بأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم فإذا جاء الوافد المستكبرين المقتسمين من صناديد قريش وسألهم: ماذا اَنزَلَ ربكم؟ قالوا أساطيرُ الأولين.

وإذا جاء إلى المؤمنين وسألهم أجابوهم بأنه أَنْزَلَ خيراً حتى يكون الجوابُ موافقا للحق من جهةٍ وترغيباً للوافد وأهله في إعتناق دين الإسلام المبين. ومقصودهم من قولهم أنزل خيراً أن الله تعالى ترحم على عباده، وبعث اليهم رسولاً جليلا، وأنزل عليه كتابا مبينا يهديهم إلى الحق وإلى صراط مستقيم، يهديهم إلى التوحيد والايمان بالله المجيد ورسوله وما جاء به حتى يكون لهم نظام مبارك يمشون عليه ويفوزون به بسعادة الدارين.

وقوله تعالى ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ بيان من الله تعالى لجزاء جـواب أولئك المتقين المجيبين على الواقع فيقول الله تعـالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ وأتوا بالأقوال الصادقة والاعمال الصالحة المبنية على الإعتقاد بالله تعالى ورسوله ومـا جـاء بـه من عنـد اللـه تعـالى ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ وهي بشارة واطمئنـان روحي ونشـاط نفسي واعتمـاد على اللـه في كـل الأمـور فـإذا جـاءتهم حسـنة شكروا الله عليها، واذا جاءتهم سـيئة صـبروا. وأمـا في الآخـرة فجزاؤهم أحسن ﴿وَلَـدَارُ الْآَخِـرَةِ خَيْـرٌ﴾ أي ولثـواب دار الآخـرة خير من جزاء دار الـدنيا بـدرجات. ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي دار الآخرة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ لَهُمْ فِيهَـا مَا يَشَاءُونَ﴾ من النعيم واللذات المحترمـة المشـروعة ﴿كَـذَلِكَ يَجْـزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31) الَّذِينَ﴾ أي المتقين الــذين ﴿تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ وتتسلم أرواحهم حـالكونهم محفـوظين ﴿طَيِّبِينَ﴾ من نجاسـة الفسـق والمعاصـي وقبـائح الاعمـال، ومزيـنين بـالعلم والايمان ومحاسن الأعمال، ﴿يَقُولُونَ﴾ أي يقـول الملائكـة لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾ لا يأتيكم بعد اليوم مكروه ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ التي أعدها الله لكم جزاء ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مخلصين لله.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي ما ينتظر كفار مكة ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَـةُ﴾ لقبض أرواحهم أو لإنزال العذاب عليهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْـرُ رَبِّكَ﴾ أي بقيـام السـاعة ﴿كَـذَلِكَ فَعَـلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي مثـل ذلـك الفعل من الشرك والتكذيب فعـل الـذين كـانوا قبلهم فأصـابهم جزاء مـا عملـوا إذ عـاملهم بمـا يسـتحقونه ﴿وَمَـا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَـانُوا أَنْفُسَـهُمْ يَظْلِمُـونَ (33) فَأَصَـابَهُمْ سَـيِّئَاتُ مَـا عَمِلُوا﴾ أي جزاء ما عملوا من السيئات ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي أحـاط بهم ﴿مَا كَـانُوا بِـهِ يَسْـتَهْزِئُونَ﴾ من العـذاب ولا يسـتهزأ بعـذابٍ استهزئ بهِ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (35) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (36) إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (37) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (38) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (39) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40)﴾

قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي واستدل المشركون عند إنزال الحجة بما تَعَّودوا عليه من قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمَم الضالة المشركة، واستدلوا بمثل هذا الدليل ولكنهم لا ينفعهم هذا الدليل العليل، ولا تفيدهم هذه الشبهة الواهية، لأن كل من يؤمن بصانع العالم الحي القيوم يعلم أن جميع الممكنات تحت مشيئته، ولا يجري في ملكه إلا ما يشاء، وأنه لو شاء الله إيمانَ جميع الكفار لآمنوا لأنهم تحت الأمر وفي مجرى السيطرة والقهر، ولكن لم تجر سنةُ الله تعالى بإلجاء الناس إلى الإيمان والأعمال الحسنة، لأن الإلجاء يخرج الـمُلْجأ عن دائرة التكليف،

ولا يخلي لـه كـل شـيء يناسـب التشـريف، بـل السـنة جـرت بتكليـف جميـع المكلفين بعـد تزويـدهم بالعقـل والعلم وبعث الرسل وبيـان السـبل، فمن اختـار الحـق والهـدى اهتـدى، ومن اختار الباطل والضلال تردى، حيث ضيع ما عنـده من الإسـتعداد لقبـول الرشـاد، ثم قـولهم ذلـك وحجتهم هـذه ليس عن علم بجريان المشـيئة السـابقة، لأنـه لا علم لهم بهـا، بـل من شـؤم ضلالاتهم وجهالاتهم اللاحقة؛ لأنه بعد العتو والعناد، وترك طريق الرشاد، وما آلت إليه القلـوب من الفسـاد، يتمسـكون بمشـيئة رب العباد. وهذه شبهة كـل جاهـل عاطـل لا يحصـل من حياتـه على طائل، فإن تبعية المشيئة حَقَّ الإتّباعِ هي أن يعـرف التـابع بها قبل أن يبدأ بالعمل فيعمل بما شاءه عز وجل.

﴿فَهَـلْ عَلَى الرُّسُـلِ﴾ المـأمورين بتبليـغ الرسـالة ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ والإبلاغ؟ وقد فعلوا ما كلفُوا به، وسـيعلم النـاسُ كلهم من الـمُشرّفُ بالإطاعة ومن المحقّر والمخفـف بالإضـاعة يـوم يجري الحساب بين يدي رب العالمين.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم السابقة ﴿رَسُولًا أَنِ اُعْبُـدُوا اللَّهَ﴾ وحـده ﴿وَاجْتَنِبُـوا الطَّاغُوتَ﴾ الـداعي الى الضـلالة من الإشراك وسائر المفاسد ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ أي هداه اللـه إلى الحـق واجتنـاب الطـاغوت بحسـن إسـتعداده واختيـاره الحسن، وتوجهه إلى ما يليق بإطاعة صاحب الملـك والملكـوت ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْـهِ الضَّـلَالَةُ﴾ لاختيـاره طريـق الجهالـة، فأهلكناهم بذنوبهم ودمرناهم، فـإن لم تعلمـوا ذلـك ﴿فَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أرض عادٍ وثمود ونمـرود ﴿فَـانْظُرُوا﴾ إلى آثـار بلاد أهـل الجحـود حـتى تشـاهدوا فتشـهدوا ﴿كَيْـفَ كَـانَ عَاقِبَـةُ الْمُكَـذِّبِينَ﴾ فقـد سـبق الأمـر وتحقـق الخـبر وانتهى الأثـر ﴿إِنْ تَحْـرِصْ عَلَى هُـدَاهُمْ﴾ وتلـك أحـوالهم ﴿فَـإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْـدِي مَنْ يُضِـلُّ﴾ أي من يضـله لسـوء أفكـاره وآثـاره ﴿وَمَـا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾

ينصرونهم في قلب الدين وأوامر رب العالمين ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي وحلفُوا أيماناً جهدَ الأيمان ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى﴾ إنه يبعثهم جميعا فإنه وعدهم بالبعث ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه وعدهم ويبعثهم لجهلهم بشؤن رب العالمين. وإنما يبعثهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من البعث والجمود من الحساب والجهود ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله المعبود ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ فيخزون في اليوم المشهود وقصارى ما وصلوا إليه من وسائل إنكار البعث إستبعاد إعادة الحياة الى الموتى ولا يعلمون أنه لا صعب علينا ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ أي أردنا خروجه من القوة الى الفعل ومن الصورة العلمية الى الصورة العينية ﴿أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ﴾ موجودا عينيا ﴿فَيَكُونُ﴾ إياه.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (42) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (47) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (48) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (49) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (50)﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ أي والمؤمنون الذين هاجروا من ديارهم في سبيل إعلاء كلمة الله ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ من جانب الكفار بإزعاجهم وإخراجهم عنها ظُلماً ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي مَباءَةً واستقرارةً حسنة فالدار تبدل بالدار والرائد رِضا الجبار ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ مما اسْتُعجِل لهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي أولئك المؤمنون المهاجرون لفرحوا بهجرتهم. أو لو كانوا يَعْلمون أي أولئك الكفار المُخْرِجُون لهم عن الديار بما نال المهاجرون لكانوا معهم في الدين ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ بَدَل من الذين سابقا أي صبروا على ما نالهم من الظلم ولم يتندموا عن ما فعلوا ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ منقطعين إليه، أو خبر مبتدأ محذوف. وما نقموا به عليك من كونك رجلا منهم ليس محل النقمة أبداً فإن ذلك جارٍ على سنتنا ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ أمثال أفراد قومهم في أكلهم وشربهم وقيامهم ونومهم... وفي سائر مقتضيات الطبيعة البشرية من الأعراض والأمراض لكننا ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ من فضلنا، ونخصهم بالإيحاء إليهم، وهذه رتبة عالية سنية ومزية بشرية علية ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ أي أهل الكتاب من علماء اليهود والنصارى ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وجواب هذا الشرط ما تقدم إن جوز التقديم، وإلا فمحذوف يدل ذلك عليه وأرسلنا أولئك الرجال ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ من المعجزات

﴿وَالزُّبُرِ﴾ والآيات والبينات للتصديق والآيـات للتطـبيق ﴿وَأَنْزَلْنَـا إِلَيْـكَ الـذِّكْرَ﴾ أي القـرآن الجـامع لجـانبي الإعجـاز والتطـبيق ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَـا نُـزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ والبيـان بالنسـبة إلى النصـوص الواضـحة. هـو التبليـغ كمـا نـزل، وبالنسـبة إلى مـا يحتـاج إلى الإيضاح هو تفسيره وكشف الغطاء عنه بتخصيص العام، وتقييـد المطلـق، وإيضـاح المجمـل، ونسـخ مـا نسـخ منـه وغـير ذلـك ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الضمير راجع إلى الكفار، والمقصـود لتـبين ما نزل لعل الناس الجاهلين المعاندين يتـأملون بعقـول صـافية في تلك الحقائق ويؤمنون بها أو إلى النـاس جميعـا، أي ليتأمـل الكل فينال الكل نصـيبه بحسـب مسـتواه، فيهتـدي الكـافر إلى الإيمـان ويزيـد المؤمنـون هُـدىً بـربهم ﴿أَفَـأَمِنَ الَّذِينَ مَكَـرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ من أهل مكة الذين مكروا بـك ﴿أَنْ يَخْسِـفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كجهة مأمنهم أو جهةٍ لا يتصور مجيئ العذاب منه ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ يمنـة ويسرةً، فإن عـذاب اللـه لا يحتـاج إلا إلى أن الـنزول ﴿فَمَـا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ وفائتين من الله بـالهرب فلا ملجـأ من اللـه إلا إليـه ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أي على حين مخافـة وحـذر من اللـه تعالى بأن يهلك قوما قبلهم فيخـافون من نـزول العـذاب عليهم كما نزل على تلـك الأمـة السـابقة لوجـود العلـة فيهم أيضـا، أو يأخذهم على تَنَقُّصٍ من نفوسهم وأمـوالهم ووسـائل معيشـتهم شـيئا فشـيئا، فـإن النـاس إذا أتـاهم نقص في النفـوس ثم في الأمـوال ثم في المقـام والاحـترام خـافوا من هـذا الـترتيب في النقصان مآسِيَ وعقوباتٍ أخرى، فان لم يأتهم بما يخافون منـه ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ حيث لا يأتيكم بما تخافون منه.

ومما ينبغي أن يعلم أن ليس المـراد من الآيـة الشـريفة حصـر أسباب هلاك القوم، لأن الأسـباب لا تـدخل في الحسـاب. وقـد قال تعالى

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ فإن من جنده الهجوم من الأعداء، او نـزول العـذاب من السـماء، أو حـدوث الأمـراض والوبـاء، او المـوت بالقحـط والغلاء، أو بوقـوع الفتنـة بين النـاس فيقتـل بعضهم بعضا، أو باجتياح الحشرات السـامة أو السـباع الضـارية أو السيل والغرق والحرق أو الزلازل والبراكين وغير ذلـك ممـا لا يكاد يحصى. ولكن الله تعالى أراد أن يهددهم بما سـمعوا من المصائب الـواردة على الأقـوام المجـاورة السـاكنة في جزيـرة العرب وحاصل ذلك إما عذاب الإستئصال أو لا، والأول قد كـان بالبركان كمـا لقـوم ثمـود فخسـف اللـه بهم الأرض، أو بالريـاح المهلكة كما لقوم عاد. والثاني إما عند السـفر إلى خـارج البلـد في الأعمال التجارية. واما اتى عليهم في مسـاكنهم وأوطـانهم من البلايا المهلكة للناس شيئا فشيئا لا مرة واحدة وهذا القسم أخفها كما ترى ولذلك عقبه بقوله الكـريم ﴿فَـإِنَّ رَبَّكُمْ لَـرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ثم إنــه ليس سـياق القـرآن الكـريم سـياق الفلسـفة الـواردة المـترددة بين النفي والإثبـات حـتى تتبـاين الأقسـام. وعلى العموم بعضُها مع بعض لجواز اجتمـاع الـبراكين الأرضـية مع نزول العـذاب السـماوي كـأن يكـون مـع البركـان الخاسـف للناس في الأرض نـوازل سـماوية تهلـك المشـردين من القـوم في أطراف البلد كامطار الحجارة من السماء على أرض ثمــود التي تسببت في قتل ما بقي من أفراد القوم والأمر في رعايـة ذلك سهل يسير.

ثم إن في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ إلى قوله تعالى ﴿فَـإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فوائد مهمة.

الأولى: إن الذين أرادوا إعلاء كلمة الله في الأرض وتسبب ذلك لهجرتهم وتـركهم الـديار وصـلوا إلى السـعادة الكاملـة بالرفـاه والراحــة في الــدنيا والســعادة في الآخــرة، بشــرط مقارنــة هجرتهم بالصبر وتحمل الأذى والأتعاب، فإن الصـبر هي دعامـة الوصول إلى السعادة.

الثانيـة: وجـوب النظـر إلى الرجـال البـارزين في العـالم سـواء كانوا من أهل الدين أو الدنيا نظرة واقعية، فإنهم لم يكونوا من النحاس ولا من الذهب، بل كانوا بشرا كسائر البشر، وكان لهم مناسبة مع سائر الناس في الهيكل والصورة، ولكنهم خـالفوهم في السـيرة وجهـات الاختصـاص في تلـك الطبقـة تمـيزهم عن سائر الناس بالأخلاق العالية من: الفكرة السليمة، والمشـاورة، والإنتبـاه، وإعـداد العُـدّة، والنَظـر إلى المسـتقبل، والإسـتقامة، والوفاء بالعهود والوعود، وسائر ما يتقدم به الانسـان على بـني نوعه..

الثالثـة: أن القـادة هم أعلم بمبـادئ النظـام المقـرر للحركـة الدينية أو الدنيوية، ويجب مراجعتهم لشرح نصوص المبادئ في حياتهم ومراجعة من قام بأعباء مهماتهم بعد مماتهم.

الرابعة: أن الأمة كائنـة مـا كـانت يجب أن لا تغفـل في طريـق سـيرها عن العـثرات والـزلات، ومن أهمهـا الكفـر لنقمـة اللـه تعـالى والتـولي عن الحـق، والتوغـل في الشـهوات، فـإن اللـه لعباده بالمرصاد، وإن جنود الله لا تُعَدُّ ولا تُحصـى فكم من أمـة أتاها عذاب الله تعـالى من حيث لم تتصـور ورود ذلـك العـذاب عليها سواء كان العذاب عـذاب الإستئصـال أو عـذابا نزّلهـا إلى محلٍ لا يليق بها حتى تزول عن مكانهـا ومكانتهـا. وأهم أسـبابه البَطَر والغرُور والكفرُ بنعم اللـه تعـالى وتـركُ مـا اسـتقر عليـه كيانها أوّلاً. وفي ذلك كفاية لأهل العناية.

ثم نبه الله سبحانه وتعالى أولئـك الكفـار المبتعـدين عن إدراك الحقائق بالقلوب إلى احساسها بالحواس يعني هب إنهم ليسوا من أهل العقول، أليسوا من أهل الحواس حتى يسـتعملوها في ما يفيدهم فائدة تخـرجهم من العنـاد والإسـتكبار وتـرجعهم إلى إطاعة الملك الجبـار، وقـال: ﴿أَوَلَمْ يَـرَوْا إِلَى مَـا خَلَـقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ أيَّ شيءٍ كان مِن الشواخص المادية

المُظلّلة التي تُرى ظِلالُها عند ظهـور الشـمس على الأفـق إلى غروبها عن الأفق المقابل حيث ﴿يَتَفَيَّأُ﴾ أي ترجع وتميل ﴿ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ﴾ نحو الغرب إذا طلعت الشـمس وعن ﴿الشَّـمَائِلِ﴾ نحو الشرق إذا مالت نحو المغرب حـالكون الظلال أو أصـحابها ﴿سُـجَّدًا لِلَّهِ﴾ أي منقـادة لـه جاريـة على مـا أراد من الإمتـداد والتقلص وغيرهمـا، غـير ممتنعـة عليـه، أليس ذلـك الوضـعُ من ظهورِ الشمس وارتفاعها ووصولها إلى خط نصف النهار وميلها إلى المغرب؟ وأليست الشمسُ كوكباً نهاريا يستضيئ أكـثرُ من نصـف الكـرة الأرضـية بنورهـا؟ أليسـت هـذه الكـرة وأمثالُهـا والأرض والأعيـان والشـواخص مسـخرة بـأمره تعـالى أليسـت الكــرة الأرضــية تظلم بغيابهــا عن الأفــق وتضــيئ بظهورهــا وطلوعها مرةً اخرى منه تعالى؟ وقوله ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ بوصف المذكر العاقل وضميره لمراعاة وصف السجود الذي لا يليق إلا بأهـل العقـل والإدراك والشـهود لا بـالحيوان الغـير العاقـل ولا بالجماد الواقع بلا إدراك للوجود. أي والظلال وأصحابها داخرون متصاغرون وأذلاءُ خاضعون اللـه الـواجب الوجـود الخـالق لكـل ممكنٍ موجود، المعبود بالحق لمن يتأتى منه السجود.

ثم نبه الباري تعالى على أن ليس السجود مختصا بها، بل يعمها وغيرها وقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْـجُدُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ أيَّةَ دابــةٍ في الأرض أو البحــر أو الجــو أو الســماءَ ﴿وَالْمَلَائِكَـةُ﴾ الكائنــة فيهــا أو في الأرض أو غيرهمــا ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته تعالى والسجود له ﴿يَخَـافُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي يخافون مالك أمرهم وخالقهم الغـالب ﴿مِنْ فَـوْقِهِمْ﴾ واسـتيلاء الفوق والغلبـة منـه اسـتيلاء على بـاقي الوجـود ﴿وَيَفْعَلُـونَ مَـا يُؤْمَرُونَ﴾ وإذا أرجعنـا الضـمائر إلى العقلاء ممـا ذكـر فـالمعنى واضح، واذا أرجعنـاه الى الكـل فمعـنى الخـوف واطاعـة الامـر الخضوع وعدم المعارضة لما يرد ويتوجه

إليها حسب مستواها. واستدل بالآية على أن الملائكـة مكلفـون مُدارُون بين الخوف والرجاء. أما دلالتهـا على التكليـف فلقولـه تعالى ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وأما على الخوف فهـو أظهـر من أن يخفى، وأمـا على الرجـاء فلاسـتلزام الخـوف لـه ولكنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

﴿وَقَـالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِـذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَـا هُـوَ إِلَـهٌ وَاحِـدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (51) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الـدِّينُ وَاصِـبًا أَفَغَيْـرَ اللَّهِ تَتَّقُـونَ (52) وَمَـا بِكُمْ مِنْ نِعْمَـةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـأَرُونَ (53) ثُمَّ إِذَا كَشَـفَ الضُّـرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (54) لِيَكْفُرُوا بِمَـا آتَيْنَـاهُمْ فَتَمَتَّعُـوا فَسَـوْفَ تَعْلَمُـونَ (55) وَيَجْعَلُـونَ لِمَـا لَا يَعْلَمُـونَ نَصِـيبًا مِمَّا رَزَقْنَـاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْـأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَـرُونَ (56) وَيَجْعَلُـونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (57) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَـدُهُمْ بِـالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُـوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّـهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَـاءَ مَـا يَحْكُمُونَ (59) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَـلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (60)﴾

قوله تعالى ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ عطف على قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ الآية... فيقول ﴿وَقَالَ اللَّهُ﴾ أي وحكم الله تعالى وقرر أن

﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ أي فخافوني ولا تخافوا غيري. والفاء في قوله ﴿فَارْهَبُونِ﴾ واقعة في جواب شرط مقدر، وإيّايَ مفعول لفعلٍ محذوف يقدر مؤخرا يدل عليه فارهبون: أي إن رهبتم شيئاً فإياي ارْهَبوا.
﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ﴾ وحده ﴿وَاصِبًا﴾ واجبا لازما لا زوال له ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ والهمزة للإنكار والفاء للتعقيب، أي أبعد ما تقرر من تخصيص جميع الموجودات للسجود به تعالى، وكون ذلك كله له سبحانه، ونهيه عن اتخاذ الألهين، وكون الدين له واصبا المستدعي ذلك لتخصيص التقوى به تعالى تتقونَ غيرهُ؟ !

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ أي أيّ شيء يلابسكم من نعمة، أيّ نعمة كانت، فهي منه تعالى واعلموا أن منه تعالى لا مِن غيره ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ أي فإليه تتضرّعون في كشفه لا إلى غيره ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ﴾ أي رَفَع ما مَسَّكُم من الضرّ ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي يتجدّدُ إشراكهم ويستمرّ ذلك ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من نعمة كشفِ الضرِّ ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أمرُ تهديدٍ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمرِكم وما ينزل بكم من العذاب ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لآلهتهم المزعومة مما لا يعلمون شيئا ولا يهتدون سبيلا ﴿نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الحرث والأنعام وغيرهما، وهذا اجتراءٌ وافتراء على الغيب ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ من قولكم بأنها آلهة وأنها تُعبُد وأن لها شأنا من الإختصاصات ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ أي يعتقد بعض من العرب المشركين وهم خزاعة وكنانة، أن الملائكة بناتُ الله تعالى، وأطلقوا عليها اسم البنات لاستتارهن عن العيون كالنساء المخدرات ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه

وتقـديس لـه تعـالى عمـا نَسـبو اليـه حسـبَ زعمهم ﴿وَلَهُمْ مَـا يَشْتَهُونَ﴾ أي وجعلوا لله البنات وجعلـوا لأنفسـهم مـا يشـتهونه ويحبونه من البنين.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى﴾ أي وإذا أخبر أحدهم بولادة أنـثى لـه ﴿ظَـلَّ وَجْهُـهُ مُسْـوَدًّا﴾ من الكآبـة والحـزن والحيـاء من النـاس ﴿وَهُـوَ كَظِيمٌ﴾ أي مملـوءٌ غيظـا ﴿يَتَـوَارَى﴾ أي يتسـتر ويختفي ﴿مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ بحسـب عـرفهم، وإلا فـالبنت قـد تكـون أسـعد وأنفـع من الابن. ويـتردد في قلبـه: ﴿أَيُمْسِـكُهُ عَلَى هُونٍ﴾ يعني أيُبْقي ما بُشر بـه ويخدمـه ويربيـه مـع حقـارة وهَوانٍ له ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أم يحفر له حفرة ويخفيه في الترابَ؟ ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بـه من اختيـار البـنين لأنفسـهم واختيار البنات له تعالى، مع أنهم لا يرضـون بهـا، ويخجلـون من وجودها، هذا من ناحية اختيار أنفسهم بالخير، ومن ناحية أخـرى ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ﴾ وهم المشركون ﴿مَثَـلُ السَّـوْءِ﴾ أي صفة السوء وهي الحاجة الى الولـد ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَـلُ الْأَعْلَى﴾ وهـو الإستغناء عنه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ المنفـرد بالقـدرة الكاملـة الدائمـة ﴿الْحَكِيمُ﴾ الـذي يفعـل مـا يفعـل بالحكمـة، ولا حاجـة الى ذات واجب الوجود كامل الصفات إلى غيره بأي وجه من الوجوه.

﴿وَلَـوْ يُؤَاخِـذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَـا تَـرَكَ عَلَيْهَـا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَـاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْـتَأْخِرُونَ سَـاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (61) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِـفُ أَلْسِـنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَـرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُـونَ (62) تَاللَّهِ لَقَـدْ أَرْسَـلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِـكَ فَـزَيَّنَ لَهُمُ الشَّـيْطَانُ أَعْمَـالَهُمْ فَهُـوَ وَلِيُّهُمُ الْيَـوْمَ وَلَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ (63) وَمَـا أَنْزَلْنَـا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (64)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ﴾ يعني ولو يواخِذُ اللهُ الناسَ الظالمين مطلقا من أيّ وَجه، أو الظالمين بالإشراك ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾، أي بسبب ظلمهم ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أي على الأرض ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي من أي إنسان يدب على الأرض من الظالمين، لأن فساد الظلم يوجب إبادة الظالم جزاء وفاقا، أو ما ترك على ظهرها من دابة من الإنسان الظالم وغيره، أما الظالم فلظلمه، وأما غير الظالم فلشؤم ظلم الظالم على جريان سنة الله تعالى في الكون، من أن إهلاك الملزوم اهلاك اللازم، فإذا أراد إغراق الظالمين بالماء فقد أراد إغراق ما في مجرى الماء.

ولذلك قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ والمشهور في تفسير الآية أنه لو يؤاخذ الله الناس الظالمين بظلمهم ما ترك على الأرض من دابة من انسان أو غيره من ظالم أو غيره. أما الظالم فلظلمه، وأما غيره مطلقا فلشؤم ظلمه الساري الى غيره. وقال بعض: معناها أنه لو يؤاخذ الناس بظلمهم كانَ أهلكَ آباءنا الظالمين بظلمهم فما كان يحصلُ وراءهم عَقَب، وما من سلسلة الا وفي أصلها ظالم أو ظالمون. وإذا أهلك الأصل والنسل أهلك الدواب أيضا لانها خلقت لمنفعة الناس بالذات أو بالواسطة، كما أفاده قوله ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ ولكن لا يؤاخذهم بذلك بل يؤخرهم الى أجل مسمى عينهُ سبحانه وتعالى لكل ما دَبَّ عَلَى الأرض ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ المعين في علمه تعالى ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عنه ﴿سَاعَةً﴾ أي أقلّ مدة ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

قيل أن الإستئخار معقول، فما معنى الإستقدام؟ وأجيب عنه بأجوبة:

الأول: أن عطف جملة ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ على ما قبلها مقدم على ربطهما بصدر الكلام، فالمعنى فإذا جاء أجلهم لا مجال للتبدل مطلقا.

الثـاني: أن جملـة ﴿وَلَا يَسْـتَقْدِمُونَ﴾ معطـوف على الشـرط لا على جوابه.

فالجملــة الأولى انتهت في قولــه ﴿لَا يَسْـتَأْخِرُونَ سَــاعَةً﴾. ثم عطف جملة ولا يستأخرون على قوله ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ فتكــون بيانا لاستحالة طلب التأخير.

الثـالث: أن في الكلام طيّـا ونشــرهُ فـإذا أجلهم لا يســتأخرون سـاعة، وإذا لم يجئ لا يسـتقدمون. أي وقبـل مجيء الأجـل لا يطلب أحد تقديم أجله، لأن الله مادام عين ذلك الوقت للفــوت لا يُخلي الإنسانَ يَطلبُ تقديمه ولا يقدمه.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾: أي ويعتقد الكفار المشركون ثبوتَ ما يكرهونه من البنات لله تعالى ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَـذِبَ﴾ أي ومع ذلك تصـف ألسـنتهم الكـذبَ وهـو ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْـنَى﴾ أي العاقبة الحسـنى عنـد اللـه تعـالى. وأي حمـقٍ أوفى من عـداء ذاتٍ يكون مرجعا للخـيرات، واعتقـاد إختصـاص أعدائـه بـأوفى الحظوظ منها؟ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أي لا شــبهة في أن لهم النـار جـزاء لتلـك العقائـد الفاسـدة والاعمـال السـيئة ﴿وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُـونَ﴾ أي معجـلٌ بهم إليهـا، أي فكمـا مـاتوا وقعـوا في العذاب، وما في البرزخ يكون مقدمة نـزلهم يُبشـرهم بلـذة مـا وراء ذلك من النار.

ثم صبر رسوله وسلاه بأنّ هذه الأمة المشركة الفاسدة ليســت مختصة بك بل قد كان في السابق مثل أمتك أو أعلى منهـا في غلوها في الفساد فقال ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَـلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِـكَ﴾ أي رسلا ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ أي قـرينهم ﴿الْيَوْمَ﴾ أي يوم زين لهم الأعمال وأضلهم أضلالا ﴿وَلَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو عذاب نار الجحيم ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُـوا فِيـهِ﴾ من البعث والحشـر والنشـور ﴿وَهُـدًى وَرَحْمَةً﴾ عظيمين ﴿لِقَـوْمٍ يُؤْمِنُـونَ﴾ فـإنهم المغتنمـون بخيراتـه في الدارين.

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (66) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69)﴾

قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ جرى الباري بحكمته على ما تقرر من سنته في إرشاد العباد من بيان نعمه التي لا يحصى المحسوس منها والمعقول فقال ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي من السحاب، أو من الجهة العليا النظيفة اللطيفة التي ليس فيها شائبة الأدناس والاوساخ ماءً ومادة من أنفع المواد لمعيشة الحيوانات وإنبات النبات وبث الرخص في الكائنات ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ بما أنبت فيها من أنواع النبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي بعد يبسها. فالإحياء استعارة للإنبات، والموت للجَدَبِ واليَبس واليَأسِ مِن الـمُحَضّراتِ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ العمل الـمُتقن الحكيم أي إنزال الماء من السماءِ لإحياء الأرض ﴿لَآيَةً﴾ وعلامةً عظيمة على وجوده وقدرته وعلمه وحكمته واختصاصه بالتأثير ووحدته ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي يسمعون الآيات ويَقْبلونها وينتفعون بها في الاستدلال على الحق واليقين ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ﴾ أي في خلقها وجعلها محتوية على المنافع ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي لأمراً يعتبر

ويتعظ به ويتجاوز به من الجهل الى العلم، فاستأنف لبيان ما فيها وقال: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا﴾ مُصفى مما يصحبه من المواد الكثيفة بتضييق مخرجه، سائغا للشاربين سهل المرور في حلقهم لدهنيته، والفرث على ما في الصحاح: السرجين مادام في الكرش، والجمع فروث. وفي البحر: إنه كثيف ما يبقى من المأكول في الكرش أو المعى. وبين تقتضى متعددا، وهو هنا الفرث والدم، فيكون مقتضى الظاهر توسط اللبن بينهما. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن البهيمة إذا اعتلفت وانضج العلف في كرشها كان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دماً. وفي البيضاوي: ولعله إن صح فالمراد أن أوسطه يكون مادة للبن، وأعلاه مادة للدم الذي يغذي البدن، لأنهما لا يتكونان في الكرش بلى الكبد يجذب صفاوة الطعام المنهضم في الكرش، ويبقى تفلهُ وهو الفرث ثم يُمسكها ريثما يهضمها هضما ثانيا فيحدث اخلاطا أربعة معها مائية فتميز القوة المميزة تلك المائية بما زاد على قدر الحاجة من المرتين، وتدفعها الى الكلية والمرارة والطحال، ثم يوزع الباقي على الأعضاء بحسبها، ثم إن كان الحيوان أنثى زادت أخلاطها على قدر غذائها لاستيلاء البرد والرطوبة على مزاجها، فيندفع الزائد أوّلاً إلى الرحم لأجل الجنين فإذا انفصل انصب ذلك الزائد أو بعضه إلى الضروع فيبيض بمجاورة لحومها الغُدَدِيةَ البيض فيصير لبنا. ومن تدبر صُنْعَ الله تعالى في إحداث الأخلاط والألبان وإعداد مقارّها ومجاريها، والاسباب المُولدة لها والقوى المتصرفة فيها كل وقت على ما يليق به أضطر إلى الإقرار بكمال حكمته وتناهي رحمته انتهى.

وقوله تعالى ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب أي من عصيرهما وتتخذون منه سكرا ورزقا حسنا، كشف لكنه الأسقاء. والسَّكر مصدر سمي به الخمر

والرزق الحسن كالتمر والزبيب والدبس والخـل. والآيـة سـابقة على تحريم الخمـر لأنهـا مكيـة والتحـريم كـان بالمدينـة. وفيهـا إشارة إلى كراهة شربها إذ ذاك لمقابلتها بالرزق الحسن. ولعل أصل الكراهة أمرٌ ذاتي قبل ملاحظة الشـرع، وذلـك لتشويشـها للعقل الذي هـو مـداد السـعادة. وقيـل: السـكر النبيـذ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم بـالنظر والاسـتدلال بالآيات على النتائج النظريات.

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ أي ألهمهـا وألقى في روعهـا وعلمهـا بوجه لا يعلمه الا اللطيف الخبير، وكذلك كل ما كان من الغرائز في تربية النسل وصيانته وتداوي الامراض والجـروح الحيوانيـة، وحـــتى في كثـــير من الاوضـــاع النباتيـــة في التفافهـــا حـــول الشواخص، والتفافها إلى الحرارة الشمسـية ومـا شـابه ذلـك... ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أي أوكـارا ومحلاتِ قـرارٍ تناسـب أوقات الحرارة والبرودة وتربية العسل وتوليد النسل وغير ذلك مما تحتاج إليـه. ﴿وَمِنَ الشَّـجَرِ﴾ أي واتخـذي من الشـجر بيوتـا ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُـــونَ﴾ أي وممـــا يعرشـــه النـــاس أي يرفعـــه من الكروم. ومن في المواضع للتبعيض، فإن النحـل لا يتخـذ الـبيت في كـل جبـل وكـل شـجر وكـل مـا يعـرش ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُـلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ التي تناسب طبعك وتوافق منتوجك ﴿فَاسْلُكِي سُـبُلَ رَبِّكِ﴾ أي فاسلكي في تحصيل مـا تتغـذينَ بـه، وفي العـود إلى المقرات الاساسية السُّبُل التي ألهمك بها ربك حالكونهـا ﴿ذُلُلًا﴾ أي مُذَلـلـة ذللهـا اللـه تعـالى، وسـهلها لـكَ ﴿يَخْـرُجُ مِنْ بُطُونِهَـا شَرَابٌ﴾ أي عسلٌ يشرب ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُـهُ﴾ بالبيـاض والصـفرة والحمرة والسواد على اختلاف المراعي حسب سنته تعالى في مناسبة الناتج للأصـول أو لغـير ذلـك. ﴿فِيـهِ شِـفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ إمـا بنفسه أو مع امتزاجه بغيره وليس معنى الآيــة الكريمــة أن في العسل شفاءً لكل الناس من كل الأمـراض، بـل أن فيـه شـفاء لكلهم من الأمراض التي

تعالج بشربه حسب إرادته تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من اعمال الباري جل جلاله ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإن من تفكر في خلق النحلِ بتلك الأوصاف والمُهماتِ الدقيقة لأخذ البيوت من الجبال والأشجار والعريش، ولصنع الكوارة المسدسة التي تُعجِبُ المهندسين، وفي رعيها من الثمار، ورجوعها الى الأوكار، وإدارة العسل، وتربية النسل، ثم في إلهام النظام إلى ذلك النوع من حيث إطاعة الأمير والإصطفاف حوله، والتغني بأصوات رنانةٍ كالموسيقى العجيبة حتى يخرج الأمير ويطير فيطيرون وراءه.. لآياتٍ للمهتدين.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (71) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (72) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (73) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (74)﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ إستئناف لبيان قدرته تعالى على إبداء الإنسان من النطفة المعينة وتعريضه للعوارض فقال:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ وأخـرجكم من عـالم صـورةٍ نوعيـة الى صـورة نوعية أخرى وأبْقاكم حسبما تقتضيه علمه وإرادته ﴿ثُمَّ﴾ إذا جاءَ الأجل المسمى ﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾ ويقبض أرواحكم فتعودون إلى عالم البرزخ إلى يوم تُبعثـون ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُـرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُـرِ﴾ أي وبعد أن خَلَقكم فمنكم من يتوفى قبل الوصول الى أرذل العمر ﴿وَمِنْكُمْ﴾ من يرد الى أخسِّ العمـر وأحقـره، وهـو وقت الهَـرَم الـذي تنقص فيـه القـوى والحـواسّ ويعـود الانسـان كالطفـل الضعيف عقلاً وإدراكاً. وأرذل العمر لا حَـدَّ مُعينـاً لـهُ، وانمـا هـو يختلـف بـاختلاف الأمزجـة، فـربّ معمـر واصـل الى المائـة لم تنقص قواه، ورب منتقص في القـوة لم يتجـاوز ثمـانين. وكـان من دعائه صلى الله عليه وسلم كما اخرجـه البخـاري عن أنس ((اللهم إني أعوذ بك من البُخل والكَسَـل وأرْذَلِ العمـر وعـذاب القبر وفتنة الـدجال وفتنـة الــمَحيا والممـات)) وقولـه ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ اللام فيه للعاقبة وهي في الأصـل للتعليـل ولكنهـا اسـتعيرت للصـيرورة والعاقبـة كمـا في قولـه تعـالى ﴿فَالْتَقَطَـهُ آَلُ فِرْعَـوْنَ لِيَكُـونَ لَهُمْ عَـدُوًّا وَحَزَنًا﴾ والكلام كنايـة عن غاية النسـيان، أي ليصـير الإنسـان، نَسّـاءً بحيث إذا كسـب علما في شيء لم يلبث أن ينساه ان الله عليم بكل شيء قدير على كل شيء فهو قادر على كل شيء وعليم به.

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ وجعلكم متفــاوتين فيه ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا﴾ على غـيرهم فيـه ﴿بِـرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَـانُهُمْ﴾ أي لا يقـدرون على أن يَـرُدوا رزقهم الـذي رزقهم اللـــه على ممـــاليكهم. أي أن الســـادة المـُفضّلين على العبيد في الرزق لا يقدرون أن يجعلوهم مستوين لأنفســهم في الرزق، فكلٌّ يستوفي رزقه. ومعنى ذلـك أن السـادة وإن كـانوا مفضلين في الرزق وأغنياء لا يقدرون على زيـادة أرزاق العبيـد على ما قدره الله تعالى وقرره، ﴿فَهُمْ﴾ أي السادة والعبيد فيـه أي في الرزق سواء لا قدرة

لأحد الطرفين أن يزيد في رزق الآخر، فإن الكـل مـرزوق اللـه ورزقه من الله تعالى، وما يرى ظاهراً من أن السيد قـادر على زيـادة رزق العبيـد ليس كـذلك فالإنسـانُ أينمـا كـان، وفي أي زمانٍ فرِزقُه من الله لا من غيره، فكيفَ ينسـبُ أولئـك الكفـار المشركون أرزاقهم الى الأصنام ويجعلونها مبدأ لسـعة أرزاقهم دون اللـه؟ ﴿أَفَبِنِعْمَـةِ﴾ اللـه تعـالى وهي الأرزاق الـواردة منـه إليهم ﴿يَجْحَـدُونَ﴾ وينسـبونها إلى أولئـك الهياكـل الجامـدة؟ فسبحان الله عما يشركون.

﴿وَاللَّهُ جَعَـلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِـكُمْ﴾ أي من بـني نـوعكم ﴿أَزْوَاجًا﴾ تَستأنسـون بهن وتقيمُـون مَعَهُن مَصـالِحكم في الـدنيا وتَبْنـونَ اسـاس النسـلِ والعائلـة ﴿وَجَعَـلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ﴾ في الدرجـة الاولى ﴿وَحَفَـدَةً﴾ في سـائر الـدرجات ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَـاتِ﴾ في طبـائعكم للـزواج من النسـاء كمـا قـال تعـالى ﴿فَـانْكِحُوا مَـا طَـابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَـاءِ﴾ أو رزقكم مـع أزواجكم وبـنيكم وحفـدتكم الطيبـاتِ من الأقـوات والألبـان واللحـوم والفواكـه وغيرهـا ﴿أَفَبِالْبَاطِـلِ﴾ وهـو نسـبة هـذه المنـافع الى الاصـنام ﴿يُؤْمِنُـونَ وَبِنِعْمَـةِ اللَّهِ﴾ وهي النعم المخلوقـة للـه الواصلة منه تعالى ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ أي أولئك المشركون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَـيْئًا﴾ أي مـا لا يقـدر أن يـرزقهم شيئا ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ تملكَ شيءٍ لأن التملك يتفرع من الحياة والعلم والقدرة والاصنام بَراءٌ من تلك الصفات ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ أي فلا تجعلوا لله الموصوف بالكمال الأمثال والاكفـاء تعالى عن ذلك، وَلَم يكن لَهُ كفواً احَـدٌ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ كنـه مـا تفعلون فيعاقبكم عليها ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ كنه ذاته وصـفاته. او لا تضربوا الأمثال كما يضرب الله الأمثال، فإن الله يعلم الأمثال المناسبة

وضربها، وأنتم لا تعلمون فقفوا عنـد حـدودكم ولا تعتـدوا إنـه لا يحب المعتدين.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْـدِرُ عَلَى شَـيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَـاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْـرًا هَـلْ يَسْـتَوُونَ الْحَمْـدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (75) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَـدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَـأْتِ بِخَيْـرٍ هَـلْ يَسْـتَوِي هُـوَ وَمَنْ يَـأْمُرُ بِالْعَـدْلِ وَهُـوَ عَلَى صِـرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (76) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (77)﴾

قوله تعـالى ﴿ضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ بعـد أن نهـاهم اللـه عن ضـرب الأمثال لأنهم لا يقدرون اللهَ حَـقَّ قـدِرِه واللـه سـبحانه وتعـالى عالم بكل مادق وجل فيضرب الأمثال مطلقا وهو حقيق بذلك.. قال ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ أي وذكر لكم مثلا تعتبرون بـه وتـتركون الإشراك. وقوله ﴿عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ بـدل من قولـه مثلا. والحاصـل أن الله سبحانه ذكر أن هناك عبدا مملوكا ضـعيفا نحيفـا جـاهلاً بالحقائق ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ فهو جـامع لموجبـات الـوهن أي العبودية والإنقياد لأمر سيده، وجهله وعـدم قدرتـه على الوفـاء بأية مهمـة من المهمـات ﴿وَمَنْ رَزَقْنَـاهُ﴾ أي وشخصـا حـرا في تصـرفاته رزقنـاه ﴿رِزْقًـا حَسَـنًا﴾ حلالا طيبـاً أو مستحسـنا عنـد الناس ﴿فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ﴾ أي مما رزقناه ﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾ لأنه ملكه المختص به والناس يسـتفيدون منـه ﴿هَـلْ يَسْـتَوُونَ﴾ أي ذانـك الإنسانان في الحيازة للأموال والصرف على الناس مع النساء

والرجـال، وهـل يسـتويان في عقـول العقلاء قـدرا وشـرفا؟ !
والجــواب: لا. فالشــركاء الجامــدون الهامــدون أمثــال للعبــد المملوك بل العبد المملوك أقوى وأقدر، لأن فيه إنسانية وعلما وقوة وحركة ذاتية، والباري سبحانه وتعالى مثل للشخص الحــر القوي القـادر المتنفـذ البـاذل مالـه للنـاس حسـب مـا أراد، ولا يسـتوي الطرفـان بـأي عقليـة وتصـورٍ ناشـئ من المتصـورين الخبراء. وإنما جمع الضمير مع أن المرجــع مثــنى للإشارة إلى أن المقصود هنا من اتصـف بالأوصـاف المـذكورة المتخالفـة لا الفـردان. ﴿الْحَمْـدُ لِلَّهِ﴾ على خلقـه الممـيز بين الصـالح وغـيره ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحقائق فيضيفون النعم إلى غيره.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ أي مثلا آخـر: ﴿رَجُلَيْنِ أَحَـدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ بكمـاً وخرساً خُلقيا لا ينطق بخـير يسـتفاد منـه ولا بشـر يسـتفاد من اعتبار مقابله ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ من الأشياء المتعلقة بنفسه أو غيره ﴿وَهُوَ كَلٌّ﴾ أي حَملٌ ثقيل وعيـال دخيـل ﴿عَلَى مَـوْلَاهُ﴾ أي على من يتولى امره سيدا أو غيره ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ﴾ مولاه ﴿لَا يَـأْتِ بِخَيْـرٍ﴾ ولا يستحصـله لــه ﴿هَـلْ يَسْـتَوِي هُـوَ وَمَنْ يَـأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ وهو ناطق فصيح بليغ مفيـد مُـريحٌ ﴿وَهُـوَ عَلَى صِـرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لا يتوجه إلى مطلب إلا ويبلغه بأقرب فرصة سـانحة. والمثل مذكور للفرق بين الجامـد والنـامي، والجاهـل والعـالم، والعاجز والقادر، والأصنام الجامدة المصنوعة، والذات الــواجب الوجود الذي هو في كـل فعـال محمـود ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي وللــه العلم بمــا غــاب عن علم من ســواه في السماوات والأرض والسيطرة عليها ﴿وَمَـا أَمْـرُ السَّـاعَةِ﴾ الـتي تحدث بدمار هذا العالم وحدوث عـالم جديـد ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَـرِ﴾ أي كرجــع الطــرف من أعلى الحدقــة إلى أســفلها، ﴿أَوْ هُــوَ أَقْرَبُ﴾ لان ذلك اللمح الآني ينقسم إلى ما هو أدق منه بمرات، وقدرته تعالى نافذة في أصغر وقت يمكن

تحقق الحادث فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن الشيء تحقق الممكن في أقل وأدق من لمح البصر كما هو معلوم.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (79) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (80) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (81) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (82) يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (83)﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ عطف على قوله تعالى والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا، ومربوط به لفظا ومعنى، وكلاهما من الأدلة على وجود الباري تعالى وكمال صفاته ووحدته ذاتا ووصفا وفعلا. وقوله ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ النفي فيه لعموم السلب، أي يستغرق النفي فيه سائر المعلومات المتغايرة لذات العالم فلا ينافي أن يلازم النفس الناطقة علمها بنفسها، لأن كلامنا هنا في العلم بالمعلومات المباينة لها، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي وخلق لكم حاسة السمع

والبصر، وكـذلك سـائر الحـواس ليسـتعملوها في إحسـاس مـا خلقت لـه، وجعـل لكم القلب أي قـوة الإدراك المودعـة فيكم، فتأخـذ من مـدركات الحـواس وتربـط بعضـها ببعض وتكتسـب الأمـور المكتسـبة بحسـب قوتهـا وقابليتهـا. والحاصـل إن اللـه تعالى خلق من النطفة الطفل وهو بريء من المعلومات، إلّا ما لزم ذاته ثم أبدَعَ فيه الحواس وجعلها وسـيلةً لاكتسـاب العلـوم النظرية، فالمبدع للذوات والصفات بهذا النمط البـديع هـو اللـه الذي يجب أن يُعبَـدَ وحـدَه ولا يُشـرك بـه أدنى موجـودٍ مُفْتَعَـلٍ مَصنوعٍ خالٍ عن كل كمالٍ وفضيلةٍ؛ لأن الله تصرف فيكم بذلك التصــرف العجيب ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْــكُرُونَ﴾ نعمــة الإبــداع وإيــداع الصفات وجعلها وسيلة لاكتساب الكمالات لا للكفر به وإنكـاره، أو للإشراك بـه مـا لا يفهم شـيئا ولا يهتـدي إلى خـير في الـدنيا والدين.

﴿أَلَمْ يَـرَوْا﴾ أي أولئـك النـاس الـذين نَسُـوا نعمـة اللـه وتركـوا توحيـده ﴿إِلَى الطَّيْـرِ مُسَـخَّرَاتٍ فِي جَـوِّ السَّـمَاءِ﴾ في الهـواء المتباعــد من الأرض، وجعــل لهــا جنــاحين، وأودع فيهــا قــوة تحريكهما المستعجل حتى تقطـع المسـافات في مـدة يسـيرة، وقد تبقى في الجـو بـدون حركـة وانتقـال ﴿مَـا يُمْسِـكُهُنَّ﴾ في الجو وما يمنعهن عن الـنزول إلى الأرض مـع أن الأثقـال مائلـة إلى المركز ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ الخالق فيها قوة حافظة لهـا عن الوقـوع والنزول ﴿إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآَيَـاتٍ﴾ كثـيرة مهمـة ﴿لِقَـوْمٍ يُؤْمِنُـونَ﴾ بالله وبتأثير قدرته ومقارنته مع حكمته في التكوين.

﴿وَاللَّهُ جَعَـلَ لَكُمْ مِنْ بُيُـوتِكُمْ سَـكَنًا﴾ أي مَقـراً تسـكنون فيـه وتسـتريحون على حســب عــادتكم ﴿وَجَعَــلَ لَكُمْ مِنْ جُلُــودِ الْأَنْعَامِ﴾ من الإبل والبقر وأمثالهما وأدنى منهما ﴿بُيُوتًا﴾ مغايرة لبيوتكم المعهودة في دار المقامة، وهي بيوت الأمم الرحالة، أو الــذين يســكنون الجــزر في البحــار المعرضــين للمد والجــزر الموجبين للانتقال منها إلى محل آخر حسب الأوضاع الجارية

فيها ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي تجدونها خفيفة الوزن ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ أي للحمل يوم ارتحالكم وللحـط يـوم الإقامـة ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾ والضمائر للأنعـام. الصُّـوف للغنم، والوبر للابل، والشعر للمعـز ﴿أَثَاثًا﴾ أي متاعـا للـبيت كـالفرش وغيرها ﴿وَمَتَاعًا﴾ أي شيئا يتمتع به، ويحصل التمتع بوجوه كثيرة منها: واجبة كالستر والوقاية من الحـر والـبرد الواجـبين، ومنهـا سنة، ومنها زينة وجمال، ومنهـا مـا هـو عرضـة للـبيع والتصـدير وسائر وجـوه المتـاع من النسـج... كـل ذلـك ﴿إِلَى حِينٍ﴾ معين عند الله فإن ما في الدنيا زائل.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ﴾ أي من غير صُنع منكم ﴿ظِلَالًا﴾ أي أشـياء تسـتظلون بهـا ﴿مِنَ الْجِبَـالِ﴾ والكهـوف والأشـجار، وكالغمام في بعض الأوقات من الأيام ﴿وَجَعَـلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَـالِ أَكْنَانًا﴾ أي محلات للتسـتر من الأعـداء ونـزول البلاء كـالأمراض المحوجة إلى الصـافي من الهـواء ﴿وَجَعَـلَ لَكُمْ سَـرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ وكذا البرد إلا أن الأول أهم ولذا قدم بالإختصاص بالـذكر ﴿وَسَـرَابِيلَ﴾ من الجوشـن والـدروع ﴿تَقِيكُمْ بَأْسَـكُمْ﴾ أي تحفظكم عن الجـرح أو المـوت في يـوم حـربكم ﴿كَـذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي بهذا النوع من الإتمـام للحـوائج الـتي تنفعكم يتم الله تعالى إفاضة نعمه عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ وتنقـادون ظـاهرا وباطنـاً للـه تعـالى. وكـل هـذه النعم المـذكورة وأمثالها مخلوقـة للـه تعـالى مباشـرة، أو موادهـا مخلوقـة، وألهم اللـه تعالى عبـاده السـاعين في العلم والصـناعة تركيبهـا وتطويرهـا إلى درجـة الإنتفـاع والإعتبـار ﴿فَـإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي أولئـك النـاس الناسون لنعم الله تعالى، فلا يضر نسيانهم وتـركهم شـكرها إلا أنفسـهم ولا يصـل الضـرر إليـك ﴿فَإِنَّمَـا عَلَيْـكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ الواضح المفهوم.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾

يعني أن الناس المتولين من نعم الله تعالى وشكرها يعرفون نعمة الله؛ فإنها واضحة جلية ولا ينكرها إلّا أولو الأذهان الكليلة والطبائع الغبية، وأكثرهم من الكافرين وأقلهم من المؤمنين الغافلين.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (85) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (86) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (87) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (88)﴾

قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ الآية... المراد باليوم يوم القيامة أي ﴿وَ﴾ اذكر ﴿يَوْمَ نَبْعَثُ﴾ او نرسل ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾ وجماعة من الناس ﴿شَهِيدًا﴾ يشهد لهم بالإيمان والطاعة إن كانوا من المؤمنين وبالكفر والعصيان ان كانوا من الكافرين، وذلك الشهيد نبيها ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ منهم بالإعتذار عن كفرهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يطلب منهم أن يزيلوا عَتَبهم، أي عَتَبَ ربهم وغضبه عليهم.

وكأن هذه الجملة تفسير لما سبقها، فإنهم إذا لم يؤذن لهم حتى يتكلموا لا يعتذرون عن ذنوبهم ولا يدفعون غضب ربهم عن أنفسهم ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالكفر والمعاصي ﴿الْعَذَابَ﴾ أي العذاب الذي يستحقونه يوم القيامة ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ ذلك العذاب لأنه عذاب وارد بحكمٍ صادر

من الله تعالى، وإذا حكم الله بشـيء فلا مـرد لحكمـه ﴿وَلَا هُمْ
يُنْظَرُونَ﴾ أي يُمهلون، يعني إن العذاب إذا جاء أوانه تحقق ولم
يتخلف بأي شيء.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْـرَكُوا شُـرَكَاءَهُمْ﴾ الـذين كـانوا يزعمـونهم
شفعاء ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَـؤُلَاءِ شُـرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَـدْعُوا مِنْ دُونِـكَ﴾
أي نعبـدهم ونطيعهم ﴿فَـأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَـوْلَ إِنَّكُمْ لَكَـاذِبُونَ﴾ أي
فأجـابهم شـركاؤهم وقـالوا لهم: إنكم لا شـبهة لكـاذبون في
دعـوى أنكم تعبـدوننا وتطيعوننـا، بـل كنتم تعبـدون أهـواءكم
وأغراضكم الفاسـدة ومطـامعكم الدنيئـة، وإلا فـإذا جـاء الحـق
وأتـاكم كتـاب اللـه وبرهانـه مـع الرسـول فلم كنتم تعانـدونهم
وتعـادونهم؟ ﴿وَأَلْقَـوْا﴾ أي الشـركاء ﴿إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّـلَمَ﴾
والإطاعـة ﴿وَضَـلَّ عَنْهُمْ مَـا كَـانُوا يَفْتَـرُونَ﴾ للـه سـبحانه من
الشركاء الجامدين.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي وأضافوا إلى كفـرهم
فسادا آخر وهـو منعهم النـاس عن سـلوك سـبيل اللـه أي دين
الإسـلام ﴿زِدْنَـاهُمْ عَـذَابًا﴾ في مقابلـة صـدهم للنـاس ﴿فَـوْقَ
الْعَـذَابِ﴾ أي عـذاب كفـرهم، لأن كفـرهم إفسـاد لأنفسـهم،
وصدّهم إفساد لغيرهم ﴿بِمَا كَانُوا﴾ يباشـرونه من طـرق القـوة
والحيلة وأنواع الدسائس الدنيـة لابعـاد النـاس عن إطاعـة اللـه
وهذا العمل الشنيع إفسادٌ ما فوقه إفساد كما قال تعالى: ﴿بِمَـا
كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ أي وما زدناه على عذاب كفرهم حصل بسـبب
إفسادهم لغيرهم وتنفيرهم لهم عن دين رب العالمين.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَـهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِـهِمْ وَجِئْنَـا بِـكَ
شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًـا لِكُـلِّ شَـيْءٍ وَهُـدًى
وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (89)﴾

وهـذه الآيـة الكريمـة عـرض واسـتعراض مهـول ومهيب ليـوم القيامة وأحوال الأمم في ذلك اليوم كما يظهـر منهـا. وحاصـلها أنه تعالى يقول يا حبيبي اذكر يوم القيامة ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُـلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ﴾ وهـو رسـولهم المبعـوث إليهم فيشـهد على المؤمـــنين بإيمـــانهم وأعمـــالهم وعلى الكـــافرين بكفـــرهم ومعاصيهم وأحوالهم، وذلك ليكون أقطع للمعذرة. ومعنى كونـه ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أنـه منهم ويشـهد على علم ﴿وَجِئْنَـا بِـكَ شَـهِيدًا عَلَى هَـؤُلَاءِ﴾ أي على أمتـك، يعـني أنـه كمـا بعثنـا رسـل الأمم السابقة شهداء عليهم بعثناك شـهيدا على أمتـك، فلا تبقى أمـة من الأمم إلا ويشـــهد عليهـــا شـــاهد من أزكى الشـــهداء وهـــو رسولها، فلا يفوتنا عقيدة من العقائـد ولا عمـل من الأعمـال إلا يتحقق بإثبات وبرهان ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ القويم الهادي إلى الصراط المسـتقيم ﴿تِبْيَانًـا لِكُـلِّ شَـيْءٍ﴾ من العقائـد والقواعـد بحيث ينص على بعض، ويظهـر في بعض، ويؤيـد ويفسـر على حسب المقصـود في بعض، وقـرر أمـوراً تـدل على المـراد في بعض وهي القياس والإسـتدلال من جـانب من هـو أهـل لـذلك، فإن الناس على درجات مختلفـة من الإدراك والشـعور والنـور. أي حالكون الكتاب تبيانا له ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ لـه بشـرط قبولـه بصورة عامة ﴿وَبُشْرَى لِلْمُسْـلِمِينَ﴾ بصـورة خاصـة، فـإنهم هم المستبشرون به.

وما أحْسَنَ هذه الآية الكريمة الجامعة للصفات الموجـودة فيـه، وهي أنـه يوضـح طريـق الحـق للناس ويـبين الأحكـام الدينيـة الإعتقاديـة والعمليـة بطريـق مُسَـلَّمٍ عنـد أهـل العقـل والعلم والمطالعة، وذلـك البيـان بـالنص أو بغـيره بطريـق من الطـرق التي اعتادها العلماء الراسخون في معرفة الأمور الخفية بحيث لا تبقى عندهم مسألة من المسائل إلا وعليها دليل من الـدلائل حتى يكون المتمسك بهذا الكتاب على بصيرة في سـلوكه على الحق إلى أن يلقى ربّ العالمين.

وفي روح المعاني: والمـراد من كـل شـيء على مـا ذهب إليـه جمع ما يتعلـق بـأمور الـدين، أي بيانـا بليغـا لكـل شـيء يتعلـق بذلك. ومن جملته أحوال الأمم مع أنبيائهم عليهم السلام. وكـذا ما أخبرت به هـذه الآيـة من بعث الشـهداء وبعثـه عليـه الصـلاة والسـلام فانتظـام الآيـة بمـا قبلهـا ظـاهر. والـدليل على تقـدير الوصــف المخصــص للشــيء المقــام وأن بعث الأنبيــاء عليهم الصلاة والسلام إنما هي لبيـان الـدين. ولـذا أجيب عن السـؤال عن الاهلة بما أجيب، وقال صلى اللـه عليـه وسـلم ((أنتم أعلم بأمر دنياكم)) وكون الكتاب تبيانا لذلك باعتبار أن فيه نصـا على البعض، وإحالةً للبعض الآخر على السنة حيث أمر باتبـاع النـبي صلى الله عليه وسلم وقيل فيه ﴿وَمَا يَنْطِـقُ عَنِ الْهَـوَى﴾ وحثـا على الإجماع في قوله سـبحانه ﴿وَيَتَّبِـعْ غَيْـرَ سَـبِيلِ الْمُـؤْمِنِينَ﴾ الآية... فإنها على ما روى عن الشافعي رضي الله عنه وجماعةٍ دليل الإجماع. وقد رضـي صـلى اللـه عليـه وسـلم لأمتـه باتبـاع أصحابه حيث قال صلى الله عليه وسلم: ((عليكم بسنتي وسنة الخلفـاء الراشـدين من بعـدي، عضـوا عليهـا بالنواجـذ)) وقـد اجتهدوا وقاسوا ووطأوا طرقَ الإجتهاد، فكانت السنة والقيــاس والإجمـاع مسـتندة إلى بيـان الكتـاب، وذهب بعضـهم الى مـا يقتضيه ظاهر الآية غير قائل بالتخصـيص، فقـال: مـا من شـيء من أمر الدين والدنيا إلا يمكن استخراجه من القرآن.

وقد بين فيه كل شيء بيانا بليغا واعتبر في ذلك مراتب النــاس في الفهم فرب شيء يكـون بيانـا بليغـا لقـوم ولا يكـون كـذلك لآخرين، بل قد يكون بيانا لواحد ولا يكون بيانا لآخر، فضـلا عن كـون البيـان بليغـا أو غـير بليـغ. وليس هـذا إلّا لتفـاوتِ قـوى البصائر، ونظـير ذلـك اختلاف مـراتب الاحسـاس لتفـاوت قـوى الأبصار.

وقيل: معنى كونه تبيانا أنه كذلك في نفسه وهو

لا يستدعي وجود مُبَيَّنٍ له فضلا عن تشارك الجميع في تحقق هذا الوصف بالنسبة إلَيهم بأن يفهموا حال كل شيء منه على أتم وجه. ونظير ذلك الشمس، فإنها منيرة في حد ذاتها وإن لم يكن هناك مستنير أو ناظر. ويغني عن هذا الإعتبار إعتبار أن المبالغة بحسب الكمية لا الكيفية، ويؤيد القول بالظاهر أن الشيخ الأكبر قدس سره وغيره قد استخرجوا منه ما لا يحصى من الحوادث الكونية. وقد رأيت جدولا حرفيا منسوبا إلى الشيخ كتب عليه أنه يعرف منه أحوال أهل المحشر، وآخر كتب عليه أنه يعرف منه حوادث أهل الجنة، وآخر كتب عليه أنه يعرف منه حوادث أهل النار. وكل ذلك على ما يدعون مستخرج من الكتاب الكريم. ومثلُ هذا الجفر الجامع المنسوب إلى أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه، فإنهم قالوا: إنه جامع لما شاء الله تعالى من الحوادث الكونية، وهو أيضا مستخرج من القرآن العظيم. إنتهى مع ترك غير المقصود منه.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (91) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (92) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (93) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (94) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (95) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (96) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97)﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه هذه الآية أجمَعُ آيةٍ في القرآن للخير والشر، وصارت سبب إسلام عثمان بن مظعون رضي الله عنه، ولو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء وهدى ورحمة للعالمين. ولعل إيرادها عقيب قوله ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا﴾ للتنبيه عليه.

والمراد بالعدل التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط وهو رأس الفضائل كلها، ويندرج تحته فضيلة القوة العقلية الملكية من الحكمة وهي القوة المتوسطة بين الجربزة والغباوة. وفضيلة القوة الشهوية البهيمية وهي العفة المتوسطة بين الفجور والجمود. وفضيلة القوة الغضبية السبعية وهي الشجاعة المتوسطة بين التهور والجبن. ويشمل العدل التوسط في الإعتقاد والأعمال والأكل والشرب واليقظة والمنام، والعدل في الحكم بين الأنام، وبين الأولاد في الرعاية والوئام، وبين الزوجات في المقام والمنام، وبين

الأصـدقاء في الحب والإحـترام، وبين سـائر النـاس من الرعايـا والحكـام... إلى غـير ذلـك. وعن سـفيان بن عيينـة أن العـدل: إستواء السريرة والعلانية في العمل.

والمراد بالإحسان إحسان الأعمال والعبادة أي الإتيـان بهـا على الوجه اللائق وهو إما بحسـب الكيفيـة كمـا يشـير إليـه مـا رواه البخاري من قوله صلى اللـه عليـه وسـلم: ((الإحسـان أن تعبـد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) أو بحسب الكمية كالتطوع بالنوافل الجابرة لمـا في الواجبـات من النقص ويجـوز أن يـراد بالإحسـان الإحسـان المتعـدي بـإلى أي الإحسـان إلى الناس والتفضل عليهم. فقد أخرج ابن النجار في تأريخـه قـال: مـرّ علي بن أبي طـالب كـرم اللـه وجهـه على قـومٍ يتحـدثون. فقال: فيم أنتم؟ فقالوا: نتذكر المروءة. فقال أو ما كفاكم الله عــز وجــل ذاك في كتابــه إذ يقــول ﴿إِنَّ اللَّهَ يَـأْمُرُ بِالْعَـدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾؟ فالعدل الانصـاف والاحسـان التفضـل، فمـا الـذي بقي بعد هذا. وأعلى مـراتب الاحسـان على هـذا الإحسـان إلى المسيء، وقد أمر بـه نبينـا صـلى اللـه عليـه وسـلم. وروي عن الشعبي قال: قال عيسى بن مريم عليه السـلام إنمـا الإحسـان أن تحسن إلى من أسـاء إليـك وليس الإحسـان أن تحسـن إلى من أحسن إليـك. وفسـر ابن عبـاس رضـي اللـه عنهمـا العـدل بالتوحيـد. وفسـر الإحسـان بـأداء الفـرائض. والمـراد بإيتـاء ذي القربى إعطاء الأقارب حقهم من الصلة والبر. وهـذا داخـل في العدل أو الإحسان، وصرح به إهتماما بشأنه.

وقولـه تعـالى ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَـاءِ﴾ أي الإفـراط في متابعـة القوة الشهوية، كالزنا مثلاً. وفسرها ابن عباس رضي اللـه عنـه بالزنـا. والمنكـر: كـل مـا ينكـر على مباشـره من الإفـراط في إظهار القوة الغضبية وفسر بالشرك وبمباشـرة مـا توعـد عليـه بالنار، وبمخالفة السريرة للعلانية، وبكل

ذنب لا يوجب الحد في الدنيا، لكن يـوجب العـذاب في الآخـرة. والبغي: الإستعلاء والإسـتيلاء على النـاس والتجـبر عليهم، وهـو من آثار القوة الوهمية الشيطانية التي هي حاصـلة من رذيلـتي القوتين المذكورتين الشهوانية والغضبية. وفي تفسير الآية أمور مهمـة إيجابيـة وسـلبية هي الأسـاس للأحكـام الإسـلامية. ولكن الـذي يظهـر من ملاحظـة اسـتعمال الكلمـات الـواردة هنـا في الكتاب والسنة والأدب العربي أن المراد بالعدل رعاية الإعتدال والإنصاف في الأحكام الـواردة على النـاس، وبالإحسـان العفـو بالنسـبة الى مـا يخص الإنسـان في ذاتـه فإنـك إذا حكمت في قضية مربوطة بالغير لاحظت العـدل، أو مربوطـة بنفسـك ممـا يمكن لك فيه السماح لاحظت العفو والإحسـان وصـرف النظـر عن حقك وبإيتاء ذوي القربى بذل المبرات الى النـاس الاقـرب فـالاقرب. وأن المـراد من الفحشـاء المنهي عنـه مـا يتعلـق بالشرف والأعراض سواء كـان زنـا أو مقـدماتها. وبـالمنكر كـل ذنب لم ينشـأ من الإسـتيلاء والسـيطرة وبـالبغي كـل عـدوان ناشـئ عنهمـا. وقولـه تعـالى ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَـذَكَّرُونَ﴾ أي يرشدكم وينبهكم بما يأمر به وينهى عنه سبحانه وتعالى أحسـن تنبيه، ابتغـاء أن تتعظـوا بـذلك وتأخـذوا طـريقكم إلى اللـه رب العالمين.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ أي وأدوا واجب بيعة الاسـلام اذا بايعتم الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الآيـة نـزلت في بيعـة النبي صلى الله عليه وسلم: أو المراد به العموم في كل موثـق مشروع جار بين شخصين أو طائفتين أو الرعايا وصاحب الأمـر في الإسـلام حـتى يكـون النـاس في أمـان واطمئنـان قلب من المقابل في العهود والمعـاملات الجاريـة بينهم، فـإن الأمـة هي الأخلاق، وأعلى صفاتها رعاية الأمانـة والصـدق حضـورا وغيابـا. ومـاعـدا ذلـك يكـون كـذبا ونفاقـا ولا يحصـل منهمـا إلا العـداء والشقاق المدمران للعالم. وقوله تعـالى: ﴿وَلَا تَنْقُضُـوا الْأَيْمَـانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ نهي عن ابطال نفس

العهود الواقعة بينهم. والمعطوف عليه للوفاء بما تعاهدوا عليه، والمعطوف لإدامته والبقاء عليه فإن الناس كـانوا يعلنـون نقض العهد في بعض الأحيان إذا زاد النفـع في نقضـه، ولا يسـتمرون إلى تمام المدة. وقولـه تعـالى: ﴿وَقَـدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ وعيد لهم على مخالفـة الفقـرتين. أي وقـد جعلتم اللـه شـاهداً وكفيلاً على العهد ورعايـة بنـوده وإدامتـه فمخالفـة شـيء منهـا حرام عليكم. وكذلك قولـه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَـا تَفْعَلُـونَ﴾ أي من مخالفة البنود وعدم الإستمرار على العهود.

﴿وَلَا تَكُونُـوا﴾ في نقضـها ﴿كَـالَّتِي نَقَضَـتْ غَزْلَهَا﴾ أي مغزولهـا ﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ أي من بعد غزلها وإحكامهـا ﴿أَنْكَاثًا﴾ جمـع نِكث بكسر النون، وهو ما ينكث فتله. والمراد به تشبيه الناقض بمن هذا شأنه أيّاً كان. وقيل المراد امـرأة معلومـة وهي ريطـة بنت سعد بن تيم القرشية، فإنها كانت خرقاءَ تفعل ذلك في غزلهــا. وقولـه: ﴿تَتَّخِـذُونَ أَيْمَـانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي لا تكونـوا متشـبهين بامرأةٍ هذا شأنها متخذي أيمانكم وعهودكم مفسدة بينكم، فـإن من لا يراعي العهود لا يعتبرها كأشياء أساسـية واجبـة الرعايـة، وإنما يعتبرها كأمور خارجيـة غـير مهمـة يعتبرهـا تـارة ويبطلهـا أخـرى، فيـؤل ذلـك العهـد المنقـوض إلى أساس فتنـةٍ وفسـاد ومنشأ أحقاد وحزازات بينهم وقولـه تعـالى ﴿أَنْ تَكُـونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي بسبب أن تكون جماعة وهي الامة المعاهـدة بالكسـر أربى واقـوى واكـثر عـدداً وعـددا من الأمـة الأخـرى المعاهد معها، أي لكـثرتكم وقـوة المقابـلٍ لكم، أو المـراد أمـة أخرى غير الذين عاهدتموه بأن تجدوا قوماً آخر أقوى من القوم الذين عاهدتموه فتنقضون عهدكم معهم وتعاهدون ذلـك القـوم الأقوى وذلك ينشأ من قلة المروءة والشهامة ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ أي إنمـا يمتحنكم اللـه تعـالى بنقض عهـدكم ذلـك ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي ما كنتم تخالفون

من أحكام الدين، أو ما تختلفون فيه في الدين، فبعضكم يـرجح الدوام على العهد وبعضكم يرجح نقضه ﴿وَلَوْ شَـاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على ملة واحـدة هي الإسـلام، أو أمـة واحـدة غـير متعددة، لا تحتاج إلى معاهدة بعضهم مع بعض ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ يختار لدينه من كان أهلا له، ويـترك من ليس أهلا لـه ﴿وَلَتُسْـأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ﴾ فيجـازيكم عليـه حسب ميزان الإستحقاق.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِـذُوا أَيْمَـانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ تصـريح بـالنهي المستأنف عما نهي عنه ضمن قيود نسبة أخـرى. فيقـول ناهيـا متوعداً مُهـدّداً: ﴿وَلَا تَتَّخِـذُوا أَيْمَـانَكُمْ﴾ وعهـودكم ﴿دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي دغلا ومكراً وخديعـة ﴿فَتَـزِلَّ قَـدَمٌ﴾ لكم عن طريـق إطاعـة الله تعالى ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ عليـه بـإبرام العهـد ﴿وَتَـذُوقُوا السُّـوءَ﴾ يوم القيامة ﴿بِمَـا صَـدَدْتُمْ﴾ أي بسـبب صـدكم وإعراضـكم عن سـلوك سـبيل اللـه وهـو إبـرام مبايعـة الإسـلام ﴿وَلَكُمْ عَـذَابٌ عَظِيمٌ﴾ عنـد حلـول وقت العقـاب ﴿وَلَا تَشْـتَرُوا بِعَهْـدِ اللَّهِ﴾ أي بدل بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ بالنسبة إلى ثواب الآخرة ﴿إِنَّمَا عِنْـدَ اللَّهِ﴾ من الثـواب ﴿هُـوَ خَيْـرٌ لَكُمْ﴾ من ذلك الثمن القليل ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

والآية نزلت في قـوم بمكـة أسـلموا وزين لهم الشـيطان نقض الإسلام لما رأوه من غلبة قريش، ولكن اللـه تعـالى ثبتهم على الإيمان واسـتمروا عليـه ﴿مَـا عِنْـدَكُمْ﴾ أي متـاع الـدنيا ﴿يَنْفَـدُ﴾ وينقضـي ﴿وَمَـا عِنْـدَ اللَّهِ﴾ من الثـواب ﴿بَـاقٍ﴾ لا نفـادَ لَـه ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أذى المشـركين واسـتمروا على الإيمان ﴿أَجْرَهُمْ﴾ وثوابهم ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ واحسنه الصبر، فإن جزاءه عند الله، ولا يعلم بمقداره أحد غـيره، يعـني أن الله سبحانه وتعالى ينظر إلى أعمـال الصـابرين ومـا آتـاهم من الشدة والمحنة، ويختار أحسنها

عنـده، ويجعـل كلهـا في درجـة ذلـك الأحسـن ويجـزي أولئـك الصـابرين بـذلك المسـتوى العـالي عنـده فيختـار لهم أحسـن النعيم.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله ورسـوله ويعمل ذلك. لإطاعة الله تعالى ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَـةً﴾ والمـراد بالحياة الطيبة إما الحيـاة في الـدنيا وطيبهـا مقارنتهـا لانشـراح الصدر واطمئنان القلب وسروره بجزائه يوم لقائه تعـالى، فـإن هذه الحياة توجب نسيان المصائب والمعائب والمعاتب ولو كان في أسوأ أهـوال الـدنيا. وإمـا الحيـاة في الآخـرة في الجنـة، إذ هناك حياة بلا موت، وغنى بلا فقر، وصـحة بلا سـقم، وملـك بلا هلك وسعادة بلا شقاء. روي عن الحسـن أنـه مـا تطيب الحيـاة لأحد إلا في الجنة ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والحمد لله رب العالمين.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُـرْآنَ فَاسْـتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّـيْطَانِ الـرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (100) وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَـرٍ بَـلْ أَكْثَـرُهُمْ لَا يَعْلَمُـونَ (101) قُـلْ نَزَّلَـهُ رُوحُ الْقُـدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (102) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُـونَ إِنَّمَـا يُعَلِّمُـهُ بَشَـرٌ لِسَـانُ الَّذِي يُلْحِـدُونَ إِلَيْـهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَـانٌ عَـرَبِيٌّ مُبِينٌ (103) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُـونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْـدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ (104) إِنَّمَـا يَفْتَـرِي الْكَــذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُــونَ بِآيَــاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَــاذِبُونَ (105)﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآَنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ جملة مستأنفة وَعودٌ من حكاية ما مضى على الرسل من أذى الكافرين، وبيانِ هول البعث والحساب والميزان وشهادة الأنبياء والمرسلين، وبيان أن الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم فيه دواء كل داء وحصانة كل سقم وشقاء، وأن محتواه الإيجابي أمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، والسلبي نهي عن الفحشاء والمنكر والبغي الى التمسك بالقرآن الكريم وأحكامه وأخلاقه، ويؤديه في تلاوته بأنك إذا قرأت القرآن على الكافرين لدعوتهم الى الدين فاستعذ بالله ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ كي يبتعد عن الناس الذين تقرأه عليهم، وإذا أردت تلاوة القرآن عادةً فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم أي فاسأله عز وجل أن يعيذك من وساوس الشيطان المطرود من رحمة الله كي لا يوسوسك في قراءة القرآن ويشغل قلبك.

وكيفية الإستعاذة عند الجمهور من القراء وغيرهم: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لتضافر الروايات على أنه صلى الله عليه وسلم كان يستعيذ كذلك.

﴿إِنَّهُ﴾ أي الشيطان ﴿لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ واستيلاء ﴿عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ بالله وبرسوله ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي يعتمدون عليه تعالى لا على غيره ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ أي يجعلونه واليا عليهم فيحيونه ويجيبونه ويطيعونه ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أي وعلى الذين هم بسبب إغواء الشيطان لهم يشركون بالله ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آَيَةً مَكَانَ آَيَةٍ﴾ أي إذا نسخنا آية لفظا ومعنى بآية أخرى حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿قَالُوا﴾ أي الكفار ﴿إِنَّمَا أَنْتَ﴾ يا محمد ﴿مُفْتَرٍ﴾ أي متقول على الله تعالى تأمر بشيء ثم

تتندم منه فتنهى عنه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون شيئا أصلا. أو لا يعلمون أن في النسخ والتبديل مصلحة.

﴿قُلْ نَزَّلَهُ﴾ أي القرآن الناسخ ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ أي جبريل عليه السلام وأطلق ذلك عليه لانه روح له علاقة خاصة بالذات المقدس جل جلاله، أو روح ذو قدس ونظافة ونزاهة وبراءة من الأدناس النفسانية ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ أي من أمر ربك أو من جانب ربك متلبسا ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي الحكمة المطابقة للواقع ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ على الإيمان والأعمال الصالحة ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي وليكون ذلك الحكم المنزل هداية وبشارة للمسلمين.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ وعنوا بذلك البشر غلاما لعامر بن الحضرمي وكان قد قرأ التوراة والإنجيل ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ أي لغة ذلك الرجل الذي ينسبون تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم إليه أعجمي، أي لغة ركيكة مبهمة لا يستفاد منها المقصود بوجه واضح ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ وهذا القرآن الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم لسان عربي ذو بيان وإيضاح وفصاحة في المفردات وبلاغة في المركبات علاوة على ما يحتويه من الأخبار الماضية والمستقبلة، وعلوم العالم الغيبي، ومواقف البعث والحشر والنشر وأسرار الآخرة. وفي نقل هذا القول إشارة إلى أن أولئك الكافرين لا عقل لهم ولا خبرة يميزون بها بين الكلام العالي والسافل، فقولهم ذلك عند منزلتهم السافلة الفاسدة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآَيَاتِ اللَّهِ﴾ أي لا يصدّقون بأنها نازلة من عند الله تعالى ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ إلى طريق إدراك الحقائق، ويبقيهم في الجهالة والضلالة لجهلهم وغيهم وعَيهم وعتوهم وعنادهم، بل يجعلهم على طريق الإشتباه لقلة إنتباههم ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على ما نسبوه من الأمور الغير السليمة إلى ذلك النبي الزكي الصالح السليم ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ﴾ على الله ويتكلم بكلام من عند نفسه أو من انسان آخر من هو فاسدٌ ماشٍ على

سلوك الفاسدين وهم المفترون ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآَيَـاتِ اللَّهِ﴾ لا النـبي الـزكي والرسـول الأمي الـذي يـؤمن باللـه وكلماتـه ﴿وَأُولَئِكَ﴾ المفترون على الله ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

﴿مَنْ كَفَــرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْــدِ إِيمَانِــهِ إِلَّا مَنْ أُكْــرِهَ وَقَلْبُــهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَـرَحَ بِـالْكُفْرِ صَـدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَـبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (106) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآَخِـرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْـدِي الْقَـوْمَ الْكَـافِرِينَ (107) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَـافِلُونَ (108) لَا جَـرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآَخِـرَةِ هُمُ الْخَاسِــرُونَ (109) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَـدُوا وَصَـبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (110) يَـوْمَ تَـأْتِي كُـلُّ نَفْسٍ تُجَـادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (111)﴾

قولـه تعـالى: ﴿مَنْ كَفَـرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْـدِ إِيمَانِـهِ﴾ مبتـدأ خـبره محذوف دل عليه قوله فعليهم غضب، والجملة مسـتأنفة لبيـان حال من كفر بآيات الله تعالى بعدما آمن بها.

وقولــه ﴿إِلَّا مَنْ أُكْــرِهَ وَقَلْبُــهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَــانِ﴾ إســتثناء من الموصـول وصـلته، أي فليس عليـه ذنب لعـذره بـالإكراه على التلفظ بكلمة الكفر، ويجتمع ذلك التلفظ مع وجـود الإيمـان في القلب، وخبر المبتدأ مقدر أي فهو معذب معـدود من الكـافرين ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِـالْكُفْرِ صَـدْرًا﴾ أي إعتقـده وطـابَ بـه نفسـا ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ﴾ وربط الغضب بقوله من

الله للتهويل والإشعار بعظمة الغضـب ﴿وَلَهُمْ عَـذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إذ لا أعظم من جرمه. روي أن قريشا أكرهوا عمارا وأبويه ياسـرا وسمية على الإرتداد، فأبوا فربطـوا سُـمية بينَ بعـيرين ووجئت بحربة في قُبُلِها، وقالوا: إنما أسْـلَمتِ للرجـال. فقتلوهـا وقتلـوا ياسـراً، وهمـا أوّل قـتيلين في الإسـلام وأمـا عمـار فأطـاعهم بلسانِهِ وأعطاهم مـا أكرَهُـوه عليـه. فقيـل: يـا رسـول اللـه إن عماراً كَفَرَ. فقـال رسـول اللـه: كلّا إن عمـاراً ملـيئٌ إيمانـاً مِن قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه. فأتى عمارٌ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فجعلَ رسـولُ اللـه صـلى الله تعالى عليه وسلم يمسح عينيـه، وقـال: مـا لَـكَ؟ إن عـادُوا فَعُدْ لَهم بما قلت.

﴿ذَلِكَ﴾ الغضب الوارد عليهم ﴿بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الـدُّنْيَا عَلَى الْآخِـرَةِ﴾ أي اختاروهـا وقـدَّموها على رعايـة دار الآخـرة، وهـو العبادة والطاعة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَـافِرِينَ﴾ أي الـذين ثبت كفـرهم في علم اللـه تعـالى بسـوء أفعـالهم في الـدنيا ومعانـدتهم لأوامـر رب العـالمين ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَـعَ اللَّهُ عَلَى قُلُـوبِهِمْ وَسَـمْعِهِمْ وَأَبْصَـارِهِمْ﴾ فلا يُصْـغُون لقـول الحـق ولا يُبْصرون الآيات البينات المرشـدة الى اطاعـة الرسـل ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَـافِلُونَ﴾ أي الكـاملون في الغفلـة ﴿لَا جَـرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حيث ضـيعوا مـا عنـدهم من رأس مـال الأعمـار وصـرفوها فيمـا لم يفـدهم إلا النـار ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ الى دار الإسلام وهم أمثال عمار ﴿مِنْ بَعْدِ مَـا فُتِنُـوا﴾ أي عذبوا على الإرتداد ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا﴾ الكفار ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ﴾ لسـيآتهم الـتي فعلوهـا قبـل ذلـك ﴿رَحِيمٌ﴾ ينعم عليهم مجازاةً لما صنعوا. ﴿يَـوْمَ﴾ ظـرف منصـوب بـرحيم ﴿تَـأْتِي كُـلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ أي تدافع عنها وتسعى في استخلاصها من العذاب بالإعتذار إلى الله تعالى

﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَـا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُـونَ﴾ بزيـادة العـذاب على ما يستحقونه.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَـانَتْ آَمِنَـةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَـا رِزْقُهَـا رَغَـدًا مِنْ كُـلِّ مَكَـانٍ فَكَفَـرَتْ بِـأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَـا اللَّهُ لِبَـاسَ الْجُـوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَـانُوا يَصْـنَعُونَ (112) وَلَقَـدْ جَـاءَهُمْ رَسُـولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (113) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (114)﴾

قوله تعالى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ والمعنى جعلها الله تعـالى مثلا لأهل مكة أو لكـل قـوم أنعم اللـه تعـالى عليهم فَـأبْطَرَتْهُمُ النعمةُ ففعلوا ما فعلـوا فجـوزوا بمـا جُـوزُوا. ودخـل فيهم أهـلُ مكة دخولا أوليـاً ﴿كَـانَتْ آَمِنَـةً﴾ أي ذات أمنٍ لا يـأتي عليهـا مـا يوجب الخوفَ ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾ أقواتها ومـا يتمتعـون بـه ﴿رَغَـدًا﴾ واسعا ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي من جميـع نواحيهـا ﴿فَكَفَـرَتْ بِـأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ وأنكـرت أنهـا من اللـه بـل نسـبوها الى قـوة سـواعدهم وكثرة مساعيهم ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَـوْفِ بِمَـا كَـانُوا يَصْنَعُونَ﴾ في اللبـاس إسـتعارة مصـرحة حيث شـبه مـا غشـي القومَ مِن أثر الخوف والجوع وضررهما الشـامل لهم، باللبـاس فاسـتعير لـه اسـمه إسـتعارة مصـرحة تحقيقيـة لأن مـا غشـي القرية أو القوم من أثرهما أمر محقق محسوس كما يحتمل أن يكـون فيـه إسـتعارة مكنيـة بـأن يشـبه لبـاس الجـوع والخـوف بالطعم المرّ البشع بجامع الإستكراه. وقد طوى ذكر المشبه به فتكون هناك إستعارة مكنية، وقرينة الأولى إضـافة اللبـاس إلى الجـوع والخـوف، وأمـا قرينـة المكنيـة فهي الإذاقة الموهومـة المستعارة للإذاقة الحقيقية ادّعاءً

إستعارة أصلية، ثم يشتق من الإذاقة الفعل المـذكور المسـتعار للفعل المطوي المعبر عنه بقوله أذاقهـا اللـه المـراد بـه إذاقـة واقعية كاستعارة الأظفار الوهمية لأظفار السبع المحقق ادعــاءً في قـولهم «أظفـار المنيـة نشـبت بفلان» وقولـه تعـالى ﴿بِمَـا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ متعلق بقوله تعالى ﴿فَأَذَاقَهَـا اللَّهُ لِبَـاسَ الْجُـوعِ وَالْخَوْفِ﴾. أي أن تلك الإذاقة تنشأ عما صنعوه من كفران نعمة الله تعالى ولقد جاءهم رسول منهم أي من عشـيرتهم فكـذبوه في رسـالته من اللـه تعـالى فأخـذهم العـذاب وهم ظـالمون ومتلبسـون بـالظلم حين ذاك، ﴿فَكُلُـوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أيهـا النـاس البـاقون من الجماعـة الظالمـة ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ وذروا مـا تفترونه مما تحرمونه بهواكم ﴿وَاشْـكُرُوا نِعْمَـةَ اللَّهِ﴾ واعـترفوا بأنها من الله المنعم في الحقيقة واحمدوه عليهـا ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُـدُونَ﴾ أي إن صح مـا تزعمونـه من أن عبـادتكم لأي شـيء عبادة لله رب العالمين.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (115) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَـرَامٌ لِتَفْتَـرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (116) مَتَـاعٌ قَلِيـلٌ وَلَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ (117) وَعَلَى الَّذِينَ هَـادُوا حَرَّمْنَـا مَـا قَصَصْـنَا عَلَيْـكَ مِنْ قَبْـلُ وَمَـا ظَلَمْنَـاهُمْ وَلَكِنْ كَـانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (118) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُـورٌ رَحِيمٌ (119)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيـرِ وَمَـا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ تعليل لحل ما أمرهم الله بأكله مما رزقهم يعني لم يحرم عليكم ربكم إلا ما ذكر هنا فكلوا مما سواه. ثم الحصر إضافي أي إنما حرم الله تعالى أكلَ هذه الأشياء دون ما حرمتموه أنتم من البحائر والسوائب ونحوها. فلا تنافي الآية الكريمة تحريم أشياء غير ما ذكر فيها كذوات الأنياب من السباع وذوات الأظفار من الطيور والحشرات السامة والحيوانات المستقرة ونحوها ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أي دعته الضرورة إلى تناول شيء من تلك المحرمات حالكونه ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على مضطر آخر ﴿وَلَا عَادٍ﴾ متجاوز مقدار الضرورة وسد الرمق ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لا يؤاخذه على ذلك.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ مفعول به للقول و﴿هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ بدل منه، وما في قوله تعالى ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ﴾ موصولة واقعة على البهائم، وعائد الموصول محذوف وبيان الوصف محذوف مستفاد من شهرة توصيفهم لها بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام. يعني ولا تقولوا للبهائم التي تصفها ألسنتكم بوصف من الأوصاف المذكورة الكلامَ الكذبَ المخالف للواقع، وهو قولكم ﴿هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ وقوله تعالى ﴿لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ اللام فيه للعاقبة والصيرورة، أي وعاقبة قولكم ذلك الإفتراء على الله تعالى بأن تلك البهائم محرمة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ ويتعمدون الكذب عليه ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي لا يفوزون بمطلوب له شأن ووزن في الآخرة ﴿مَتَاعٌ﴾ أي أن المنفعة التي قصدوها وراء ذلك متاع ﴿قَلِيلٌ﴾ يتمتعون به في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (117) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾ خاصة دون غيرهم ﴿حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي قبل نزول هذه الآية، وذلك ما في سورة الأنعام من قوله تعالى ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ الآية ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بذلك التحريم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث فعلوا ما عوقبوا عليه بذلك

كما ذكره الباري بقوله ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾، ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ﴾ من كفر أو معصية أو افتراء على الله تعالى ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ أي بسبب جهالة تدعوهم إلى تلك الضلالة ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ فأمنوا بعد الكفر وصَدَقوا بعدَ الإفتراء وأنابوا إلى الله وتابوا إليه ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أعمالهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي من بعد عمل السوء والتوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ لذنوبهم و﴿رَحِيمٌ﴾ بهم يقبل توبتهم، فإنه يحب التوابين.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (123) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (124)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ إرشاد للرسول النبي الأمي العربي محمد صلى الله عليه وسلم بالثبات على العزم والقوة والتخلق بأخلاق أبيه إبراهيم في نشره التوحيد في العالم بدون مبالاة بمزاعم المشركين، وأنانياتهم، والصبر على أذاهم، وبيان لبطلان مزاعم المشركين من العرب أنهم على دين إبراهيم بأن إبراهيم كان عابدا لله وحده مائلا عن الباطل إلى الحق وموحدا مخلصا ولم يكن من المشركين، فمزاعم أولئك الكفار باطلة عاطلة فاسدة، وإيذان بأن نسبة اليهود أنفسهم إلى دين إبراهيم، أو أن إبراهيم كان على دينهم لا أصل لها ولا أساس للتباين بين آداب اليهود وآداب سيدنا إبراهيم فإنه ما كان يهوديا ولا نصرانيا ولكن

كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين. والأمة بضـم الهمـزة الرجل الجامع للخير والإمام ومن هو على الحق ومخالف لسائر الأديـان، وهـذه المعـاني تطلـق على سـيدنا إبـراهيم بالحقيقـة. وجاءت بمعنى الجماعة الكثيرة من الناس، ويجوز اطلاقها بهـذا المعنى عليه أيضا تجوزا لاستجماعه كمالات لا توجد إلا متفرقـة في أمة جمة. والقانت: المطيع. والحنيف: المائـل عن كـل دين باطل إلى الدين الحق ﴿وَلَمْ يَـكُ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ﴾ في أمـر من أمور دينهم الإعتقـادي أو العملي ﴿شَـاكِرًا لِأَنْعُمِـهِ﴾ صـفة ثالثـة لأمة والجار والمجـرور متعلـق بشـاكرا ﴿اجْتَبَـاهُ﴾ ربـه واختـاره لحمل أعباء الرسالة ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِـرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ﴾ سـالم من الخلل موصل إلى الله عز وجل ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ وهي صفة الرسـالة ودعـوة النـاس إلى توحيـد اللـه وقـد كـان أهلهـا ووفى بحقهـا ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِـرَةِ لَمِنَ الصَّـالِحِينَ﴾ لحمـل أعبـاء الرسـالة الواصـلين إلى الـدرجات العاليـة المناسـبة لمقـام المرسلين.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا رسولي الكريم المولود من نسل إسماعيل بن إبراهيم ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْـرَاهِيمَ﴾ وعقيدتـه الراسـخة الرفيعـة الوحيـدة وهي توحيـد البـاري سـبحانه ﴿حَنِيفًـا وَمَـا كَـانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين جَعَلوا مع اللـه إلهـا آخـر، وهـذا الأصـل أمـر مشترك بين جميع الأنبيـاء والمرسـلين لقولـه: ﴿شَـرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْـرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾.

وهذا الإتباع هو الموافقة في أصل الدين ﴿إِنَّمَـا جُعِـلَ السَّـبْتُ﴾ يعـني إنمـا فـرض تعظيمـه والتخلي للعبـادة فيـه ﴿عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي على اليهود الذين اختلفوا على نبيهم فيه حيث أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت وهم اليهود، وليس السبت من شرائع إبراهيم عليه السلام كما زعمت اليهود ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين المختلفين ﴿يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ فِيمَـا كَـانُوا فِيـهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي

يقضي بينهم بالمجازاة على اختلافهم على نبيهم ومخالفتهم لــه في ذلك حيث لم يقبلوا منه يوم الجمعة حتى بدله بيوم السبت وفرض عليهم العبادة وحرّم عليهم الصيد فيـه مـع أنهم خـالفوه في ذلــك أيضــا حــتى غضــب اللــه تعــالى عليهم وجعلهم من الممقوتين.

﴿ادْعُ إِلَى سَـبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَـةِ وَالْمَوْعِظَـةِ الْحَسَـنَةِ وَجَـادِلْهُمْ بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ إِنَّ رَبَّكَ هُـوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَـلَّ عَنْ سَـبِيلِهِ وَهُـوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (125) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِـهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْـرٌ لِلصَّـابِرِينَ (126) وَاصْـبِرْ وَمَـا صَـبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُـرُونَ (127) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128)﴾

قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَـةِ﴾ معنـاه مـادام أتت من الرسـل الهُـداة الى الطريــق القــويم وعلى عقيـدة جـدك العظيم إبـراهيم فـادع الى سـبيل ربـك أي الاسـلام الـذي هـو سبيل معين للوصول الى رضـاه بالحكمـة أي بالحجـة القاطعـة المحكمة المزيلة للشبه عن قلب المدعويين، وهذا إذا كانوا في مستوى فهمها وكانوا من أهل الاستفادة من البراهين القطعيــة والحجج العقلية ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ وهي الخطابات المقنعة للغـير النافعـة للنـاس على مجـاري عـرفهم وعـاداتهم أي بـأن تكـون مقـدمات الـدليل مقبولـة عنـدهم ﴿وَجَـادِلْهُمْ بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي وجادل معانديهم بالطريقة الـتي هي أحسـن طـرق المنـاظرة من الرفــق واللين، وعــدم جـرحِ عاطفــة المقابــل، والتنــازل لــه بحســب المقــام، والاســتماع كلامــه، واســتعمال المقـدمات المشـهورة... وهـذا النـوع من طـرق الـدعوة هـو المطلـوب منـك للوفـاء بتبليـغ الرسـالة، وليس عليـك الهدايـة وإخراج الناس من الضلالة

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُـوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَـلَّ عَنْ سَـبِيلِهِ﴾ الـذي أمـرك بـدعوة الناس اليه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ إليه فيهدي من يشاء ويضــل من يشاء وهو أحكم الحاكمين.

﴿وَإِنْ عَـاقَبْتُمْ﴾ أي وإن أردتم معاقبــة النـاس الـذين يعانــدون الحق وقاتَلُوكم وقَتلُوا منكم ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُـوقِبْتُمْ بِـهِ﴾ أي مثل ما فَعَلُـوا بكم ﴿وَلَئِنْ صَـبَرْتُمْ﴾ عَن المعاقبـة بالمثـل ﴿لَهُـوَ خَيْـرٌ لِلصَّـابِرِينَ﴾ أي فالصـبر خـير من المعاقبـة والإنتصـار بهـا للصابرين الذين يبتغون وجه الله ﴿وَاصْبِرْ﴾ على مـا أصـابك من جانبهم من أنواع الآلام ﴿وَمَا صَبْرُكَ﴾ مصحوبا بالشيء وملابسـا به ﴿إِلَّا بِاللَّهِ﴾ فإنه هو المفيض لقـوة الصـبر على القلـوب عنـد تفاقم الكروب ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي على الكافرين المـاكرين ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ صدر ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ فإن نفحة من نفحات القدس تزيل هموما واردة من أعداء الجن والإنس ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ معية الرأفة وإفاضة الرحمة وشرح الصدر وتقويـة الهمة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ في الطاعة ويخلصـون للـه حـتى تحصل لهم وحدة الشـهود ولا يـرون الخـير والشـر إلا من اللـه تعالى.

الجزء الخامس عشر

<159>

سورة الإسراء، مكية، وهي مائة وإحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آَيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1)﴾

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ كلمة ﴿سُبْحَانَ﴾ مصدر سبح تسبيحا بمعنى نزه تنزيها. وذلك الوزن مسموع في المصادر كالغفران.

وقيل إنه اسم مصدر لأن قياس مصدر سبح التسبيح، وقد يستعمل علما للتسبيح بمعنى التنزيه فيقطع عن الاضافة لأن الاعلام لا تضاف. ومع أنه موضوع للتنزيه فلا ينافيه إرادة التعجب. والمقصود: ما أبعد اللهَ الذي له قدرة الإسراء بعبده ليلا عن جميع النقائص فله الكمال المطلق والتصرف المطلق في الممكنات كلها ما خفي منها وما انجلى، وما سفل منها وما عَلَا، فلا يكون اصطفاؤه لعبده المخصوص به إلا حكمة وصوابا. وأسري وسرى بمعنى واحد وهو سير الليل أو أكثره فليست همزة أسرى للتعدية، وقيل: الهمزة للتعدية

ومفعول محذوف، والتقدير: أسرى ملائكته بعبده أي سبحان الذي جعل ملائكته ساريا بعبده. وليلاً منصوب على الظرف، وفائدة ذكره مع وضوح أن السرى لا يكون إلا في الليل الدلالة بتنكيره على تقليل مدة الإسراء ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بعينه ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ وهو بيت المقدس، لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد، أو لنظافته وبعده عن الأقذار ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ لكونه مهبط الوحي من لدن موسى عليه السلام إلى زمان الرسول عليه السلام، ومتعبد الأنبياء ومحفوفا بالأنهار والأشجار والبساتين وإنما أسرى بعبده قال تعالى ملتفتا من الغيبة إلى التكلم ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آَيَاتِنَا﴾ كذهابه في برهة من الليل الواحد مسافة مسيرة شهر تقريبا، ومشاهدة بيت المقدس، وتمثل الأنبياء له صلى الله عليه وسلم هناك، وسائر ما شاهده مِن ملكُوتِ العالم... ﴿إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوال الكافرين و﴿الْبَصِيرُ﴾ لأفعالهم ويعلم أن حبيبه محمداً صلى الله عليه وسلم تأذى منهم فجازاه بما ينسيه تلك الأذى وما فوقها أو أنه هو السميع لأقوال محمد صلى الله عليه وسلم وبصير بأفعاله، ويعلم أنه عبد مستحق للإعلاء والترقية واراءة عجائب الأمور مما يطمئن به وتسكن به نفسه المقدسة، وتتوجه به إلى الحي القيوم الذي بيده ملكوت السماوات والأرض.

وهذا الإسراء، وإن كان فيه وفي وقته وكيفيته أقوال كثيرة، إلا أن الراجح منها أنه كان بالروح والجسد في ليلة الإثنين السابع والعشرين من رجب، عندما كان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في حجر إسماعيل عليه السلام عند الكعبة الشريفة لما روي أنه عليه السلام قال: ((بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل بالبراق...)) الحديث الشريف، والظاهر أن المراد بالمسجد الحرام

المسجد المشهور بين الخاص والعام بعينه، وكان صلى الله عليه وسلم إذ ذاك في الحجر منه. فقد أخرج الشيخان والترمذي والنسائي من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((بينا أنا في الحجر..)) وفي رواية في الحطيم ((بين النائم واليقظان، إذ أتاني آت فشق ما بين هذه الى هذه، فاستخرج قلبي فغسله، ثم أعيد، ثم أُتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار، أبيض يقال له: (البراق) فَحُمِلْتُ عليه)) قال الراوي: وهو البراقُ يضع خطوه عند أقصى طرفه.

وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم كان في بيت عمته فاختة بنت عبدالمطلب المكناة بأم هانئ الصحابية. فقد أخرج النسائي عن ابن عباس وأبو يعلى في مسنده والطبراني في الكبير من حديثها أنه صلى الله عليه وسلم كان نائما في بيتها بعد صلاة العشاء فأُسري به ورجع من ليلته وقص القصة عليها. وقال: ((مُثلَ لي النبيون فصليتُ بهم)) ثم خرج إلى المسجد وأخبر به قريشا... الحديث وهذا هو الإسراء.

وفي الحديث وسعى رجالٌ إلى أبي بكر وأخبروه بالقصة، فقال: إن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: تصدقه على ذلك؟ قال: إني أُصدقه على أبعد من ذلك؛ أُصدقه خبر السماء غدوةً أو روحةً! فسمي الصديق.

وكان في القوم من يعرف بيتَ المقدس فاستنعتوه إياه، فجلي له فطفِق ينظر اليه وينعته لهم، فقالوا أما النعتُ فقد أصاب فيه. فقالوا: أخبرنا عن عيرنا فهي اهم إلينا، هل لقيتَ منها شيئا؟ قال: نعم مررت بعير بني فلان، وهي بالروحاء، وقد أضلوا بعيراً لهم وهم في طلبه، وفي رحالهم قدحٌ من ماء، فعطشتُ فأخذته وشربته ووضعته كما كان. فاسألوا هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا؟ قالوا: هذه آية. قال: ومررت بعير بني

فلان؛ وفلانٌ وفلانٌ راكبان قعودا، فنفرَ بعيرُهُما مني، فانكسر فاسألوهما عن ذلك. قالوا: هذه آية أخرى. ثم سألوه عن العُدَّة والأحمال والهبات، فمثلت له العير فأخبرهم عن كل ذلك. وقال: تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس، وفيها فلانٌ وفلانٌ يقدمها جملٌ أورق عليه غرارتان مخيطتان، قالوا: وهذه آية أخرى. فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية، فجعلوا ينظرون متى تطلع الشمس فيكذبوه، إذ قال قائل هذه الشمس قد طلعت وقال آخر: هذه العير قد أقبلت يقدمها بعير أورق فيها فلانٌ وفلانٌ كما قال. فلم يؤمنوا وقالوا: هذا سحر مبين! قاتلهم الله أنّى يؤفكون.

وأما السنة التي وقع فيها الإسراء ففيها أقوال منها ما ذكره النووي في الروضة أنه كان بعد النبوة بعشر سنين وثلاثة أشهر. ونقل عنه بعض المحققين أنه كان في السنة الثانية عشرة من المبعث. وعن ابن حزم دعوى الإجماع على ذلك.

وأما معراجه صلى الله عليه وسلم ففي صحيح البخاري أول كتاب الصلاة ما نصه: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أبو ذر رضي الله عنه يحدث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((فُرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل عليه السلام، فَفَرَجَ صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمةً وإيمانا فأفرغه في صدري، ثم أطْبَقَه ثم أخذ بيدي فعرج بي الى السماء الدنيا، فلما جئت الى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء: افتح. قال: مَن هذا؟ قال جبريل. قال: هل معك احدٌ؟ قال: نعم مَعِي محمد صلى الله عليه وسلم فقال: أرسل إليه؟ قال: نعم. فلما فتح عَلَونا السماء الدنيا، فإذا رَجَلٌ قاعد على يمينه أسْوِدة، وعلى يساره أسْودة، إذا نظر قبل

يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم صلى الله عليه وسلم وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نَسَمُ بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى. حتى عرج بي إلى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال الأول. فَفَتحَ)) قال أنس: فذكر أنه وجد في السماوات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم صلوات الله عليهم ولم يثبت كيف منازلهم. غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة، قال أنس: فلما مر جبريل عليه السلام بالنبي صلى الله عليه وسلم بادريس قال: مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح، فقلت: من هذا؟ فقال: هذا إدريس. ثم مررت بموسى فقال: مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح قلت: من هذا؟ قال: هذا موسى.

ثم مررت بعيسى، فقال مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح، قلت: من هذا قال: هذا عيسى. ثم مررت بإبراهيم. فقال: مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: إبراهيم عليه السلام. وكان ابن عباس وأبو حبة الأنصاري يقولان: قال النبي صلى الله عليه وسلم. ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام. قال أنس ابن مالك: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ففرض الله عز وجل على أمتي خمسين صلاةً فرجعت بذلك حتى مررت على موسى صلى الله عليه وسلم، فقال: ما فرض الله لك على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة. قال: فارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تُطيق ذلك. فراجعت، فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى قلت: وَضَعَ شطرها. فقال: راجعْ ربك فإن أمتك لا تطيق. فراجعت فوَضع شطرها. فرجعت إليه، فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك.

فراجعته، فقال: هي خمس، وهي خمسون لا يبدل القول لدي. فرجعت إلى موسى فقال: ارجع إلى ربك، قلت استحييت من ربي. ثم انطلق بي حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى وغشيها ألوان ما أدري ما هي. ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبائل اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك، انتهى.

وفي فتح الباري: وقال بعض من اعتنى بالبخاري: الحبائل جمع حبالة، وحبالة جمع حبل على غير القياس، والمرادُ أنّ فيها عقودا وقلائد من اللؤلؤ إنتهى.

ثم إن الإسراء والمعراج بالروح والجسد معجزتان من أهم المعجزات وأقصاها في الإدراك، ومع ذلك، فمادامتا من الممكنات، والله تعالى قادر على كل ممكن، فلا محالة يجب على كل مؤمن الإيمان بهما. أما الإسراء فهو منصوص الكتاب بقوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ فإن العبد اسم للروح والجسد، والسري بالليل ظاهر في حركته بهما وإلا فلا غرابة في الإسراء بالمنام ولا مجال للتعجب عنه بقول تعالى سبحان الذي أسرى بعبده، ولما كانت المعجزات من خوارق العادة فلا فرق بين سري شخص في بعض ليل المسافة البعيدة ولا صعوده من الأرض إلى ما فوق السماوات، وبين قلب العصا من الخشب حية تسعى، وجعل نهر النيل يبسا تمر عليه القوافل، وبين إحياء عيسى للأموات وإبراء الأكمه والأبرص، وكل من له إيمان بالقرآن الكريم يعلم ذلك كله، ويعلم أن وصول عرش بلقيس من سبأ الى القدس خارق للعادة في طرفة العين، ومن لا إيمان له بالقرآن يعلم سرعة حركة المجموعة الشمسية حول الشمس، وحركة بعض تلك الكواكب على نفسها دورة في كل يوم وليلة. وكل ذلك واقع محسوس بالإرصاد ونسبتها مع جذبها ودفعها ودورانها المستمر الى قوة

لا شعورية خارجة عن أفق الشعور السليم، فلم تبق إلا نسـبتها الى الفاعـل القـادر المختـار ونسـبة قدرتـه الى كـل ممكن من الممكنات على حد سواء.

وفي كون الإسراء من المسـجد الحـرام الى المسـجد الاقصـى وعروجه منه الى السماء إرشاد الى الاهتمام بمهمتين:

الأولى: أن المسـجد الأقصـى كـان مجمعـا للأنبيـاء والمرسـلين ومهبطا لوحي رب العـالمين، والتـبرك بآثـارهم من شـعار أهـل الذكر والرسالة من رب العالمين.

والثانيـة: تعلـق علم اللـه سـبحانه وتعـالى بـأن الكفـار بالـدوام حاقـدون على المسـلمين وهم بالمرصـاد للإسـتيلاء على تلـك البقعة المقدسة وجعلها مركزا لبث سمومهم الى آسيا وأفريقيا الموطنين للمسلمين، وعلى ذلك أثاروا فتنة الحـروب الصـليبية هناك، وبعد إخراجهم منها أعادوا الكرة على المسلمين، بإرجاع اليهود اليها واسكانهم فيها حتى يتسنى لهم تطـبيق مـا يريـدون من الوقيعة بالمسلمين، وفي ذلك عظة للامة المسلمة وعـبرة وإرشاد لهم لليقظة والانتباه الواسع للدفاع عنها واستعادتها إلى حظيرة الإسلام بـأي ثمن كـان. ومن أهم أسـباب ذلـك الوحـدة والإعتصام بحبل الله المتين والرجوع الى إرشاد القرآن المبين، فإن المسلمين قد ذاقوا أمر الأمرين في صيانتها حتى صـانوها، ولم يرجع الأجانب إليها إلا بعد إضعاف قوى المسلمين وتفريق قواهم المتحدة وجعلهم على أصناف شتى. ولا تعود الكـرة إلى المسلمين إلا بالتسلح بالإيمان والوحدة والاعتصام بالدين.

﴿وَآَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (2) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (3)﴾

قوله تعالى: ﴿وَآَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ الواو عاطفة لهذه الجملة على جملة ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ والجامع بينهما أن كلا منهما يدل على مفخرة عظيمة لذات عظيم؛ فإن اعطاء التوراة لموسى عليه السلام. وكلامه تعالى معه بدون واسطة بمنزلة معراج سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأنه منح موسى التكليم كما دعا عبده محمداً صلى الله عليه وسلم وأسرى به وعرج به إلى ما شاء الله من المقام العالي وكلمه وناجاه وفرض عليه وعلى أمته الفرائض، وجعلها عماد دينه وأساس تقواه. أو اعطينا موسى التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي الكتاب أو موسى ﴿هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ثم فسر جعله ذلك هدى لهم بقوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ أي رباًّ تُفوضون إليه أمورَكم غيري وقوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ منصوب على النداء، أو على الإختصاص. أي يا من مننا عليهم بحملهم في سفينة النجاة مع نوح حتى يسلموا من الغرق ويبقوا لنشر التوحيد في العالم ﴿إِنَّهُ﴾ أي نوحا عليه السلام ﴿كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾

كثير الشكر لمولاه على ما أولاه من نعمة الرسالة وإخراج الناس من الجهالة والضلالة إلى الهداية والجلالة.

عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: كان نوح عليه السلام إذا لبس ثوباً، أو طعم طعاما حمد الله تعالى فسمي عبدا شكورا. وعن عبد الله بن أحمد قال شكره عليه السلام أنه كان يسمي اذا اكل، ويحمد الله تعالى اذا فرغ.

﴿وَقَضَــيْنَا إِلَى بَنِي إِسْــرائِيلَ فِي الْكِتَــابِ لَتُفْسِــدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَــرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُــوًّا كَبِــيرًا (4) فَــإِذَا جَــاءَ وَعْــدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَــادًا لَنَــا أُولِي بَــأْسٍ شَــدِيدٍ فَجَاسُــوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُــولًا (5) ثُمَّ رَدَدْنَــا لَكُمُ الْكَــرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَــرَ نَفِــيرًا (6) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَــأْتُمْ فَلَهَــا فَــإِذَا جَــاءَ وَعْــدُ الْآَخِــرَةِ لِيَسُــوءُوا وُجُــوهَكُمْ وَلِيَــدْخُلُوا الْمَسْــجِدَ كَمَــا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَــوْا تَتْبِــيرًا (7) عَسَــى رَبُّكُمْ أَنْ يَــرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُــدْتُمْ عُــدْنَا وَجَعَلْنَــا جَهَنَّمَ لِلْكَــافِرِينَ حَصِيرًا (8)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ أي أعلمنا بني إسرائيل في التوراة ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ﴾ جواب قسم محذوف، وحذف متعلق القضاء للعلم به، والتقدير وقضينا إلى بني اسرائيل بفسادهم وعلوهم وقلنا: والله لتفسدن إلخ ويكون هذا تأكيدا لتعلق القضاء. ويجوز جعله جواب ﴿قَضَيْنَا﴾ بإجراء القضاء مجرى القسم فيجاب بما يجاب به القسم و﴿مَرَّتَيْنِ﴾ منصوب على أنه مصدر لقوله ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ من غير لفظه والمراد إفسادين. ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أي لتستكبرن عن طاعة الله أو لَتَغْلبنَّ على الناس بالظلم والعدوان ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أي أولى مرتي الإفساد ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ أي تَرَّددوا وسط ديار بني اسرائيل لطلب الناس ليقتلوهم ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ محتم التحقق في علمنا. وكان ذلك أيام الملك يواقيم الإسرائيلي سنة خمسمائة وسبع وثمانين قبل ميلاد عيسى عليه السلام في الدور الثالث من الأدوار الخمسة لبني اسرائيل، وكان سببه أنه صار بينه وبين بختنصر البابلي حرب فانتصر على الاسرائيليين، ولكنه بعد بُرهة من الزمان استعاد الملك يواقيم قوة وثار على بختنصر وصارت هذه الثورة سبباً لعودة

بختنصرـ على ديار الإسرائيليين ودخوله (أورشليم) القدس الحالي وتخريبها وقاد أكثر أهلها أسرى ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي الغَلَبة والإنتصارَ على الأعداء البابليين ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ كثيرةً بعدما نُهِبت أموالكم وقتل اولادكم ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ والنفير من ينفرُ معَ الرجل من عشيرته وأهل بيته للحرب ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ﴾ أعمالكم إزاء الله وعباده ﴿أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أي لنفعها أي إن أحسنتم عادت منفعةُ الإحسان إليكم ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي فالإساءة تعود لأنفسكم ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ﴾ المرّة ﴿الْآخِرَةِ﴾ من مرتي افسادكم ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي بَعَثنا عليكم عباداً آخرين ليقهروكم وتظهر آثارُ قهرهم وعتوهم في وجوهكم ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في عهد البابليين ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ أي وليدمروا ما غَلَبوا عليه تدميراـ

وذلك كان في الدور الرابع من الأدوار الخمسة لبني إسرائيل وفي سنة مائة وخمس وثلاثين بعد الميلاد، وذلك أنه في سنة اثنتين وأربعين قبل الميلاد استعاد (انتيفُون) ابن أريسْتُوبُولَ الإسرائيلي حرية البلاد واستقلالها، ولكن لم تأتِ سنة (37) قبل الميلاد حتى ساعَدَ الرومانيون الملكُ هيرود الإسرائيلي على تدويخ مملكة يهودا فاستولى عليها وقتل (انتيفُون) و(هيركانَ) الذي هو آخر ولدٍ من ذرية (ماكابيه) وتحت حكم (هيرودانتياس) حكم على عيسى عليه السلام بالإعدام. ولكن الله تعالى عصمه كما يقول تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ فلما عسف الرومانيون باليهود وسامُوهُم سُوءَ العذاب ثارُوا فاضطّر الرومانيون لأخذ (أورشليم) سنة سبعين بعدَ الميلاد وأمرَ ملكهم (تيتوس) بإحراق مَعبَدهم وذبح مُعْظَم أهلها وبَيْعِ من بقي منهم، فلم يمض غيرُ قليل حتى عمرت أورشليم بالسكان ثانية، ولكن ثورة أخرى

جَعَلتِ الإمبراطورَ الروماني (ادرْيان) سنة مائة وخمس وثلاثين ميلادية يأمرُ بهدم المدينة من أساسها وذبح خمسمائة الف من اليهود وبيع الباقين وتشريدهم في جميع أرجاء المملكة. ولكن هذا التشريد الهائل لم يزد اليهود إلا تمسكاً بدينهم وتقاليدهم ومن هذا التأريخ بدأ الدور الخامس الإسرائيلي إلى أن جاءَ دورُ وعدِ بلفور المشئوم واعطاء اليهود أرض فلسطين وإسكانهم هناك بحماية خاصة وقوة هائلة من الأوربيين كما نراها بعيوننا وإن في ذلك لعبرةً لأولى الأبصار.

وإنما فَسرتُ وَعدَ أولاهما بوعد استيلاء بختنصر البابلي على أورشليم وَوَعد الأخرى باستيلاء (أدريان) الروماني عليها، مع أنه كان لملك بابل بختنصر قبل ذلك استيلاء على أورشليم وقادَ الملك (يواقيم) و(سَدْياس) إلى أرض بابل أسيريْنِ، وكان لملك آشور (سالمانازار) قبل بختنصر إستيلاء على مدينة السامِرَة وقادَ أهل مملكة إسرائيل إلى بلاده، لأن الحركة الهائلة الـمُخيفة التي وردت على بني إسرائيل في عهد بختنصر وغارته الأخيرة في عهد الملك (اَدَرْيان) الروماني لم يكن لها نظير في تأريخهم، ولذلك نُفَسر الوعدين بما ذكرنا.

وما يتخيل من ظاهر الآية الكريمة أن الداخلين في البلاد الاسرائيلية أخيراً هم أعيان الداخلين فيها أولا ليس بمراد، وأن الأعداء وان كانوا من غير صنف الأولين فهم اعداء والعدوُّ عدو كيفما كان وأينما جاء.

﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد البعث الثاني ان تبتم وانزجرتم عن المعاصي ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ﴾ للافساد في البلاد على عادتكم السابقة ﴿عُدْنَا﴾ لمعاقبتكم على سنتنا. وكثيرٌ من المفسرين قالوا: إن الشرط تحقق في تكذيبهم للنبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم وقصدهم قتله فعاد

الله عليهم بقتل بني قريظة، وإجلاء بني النضير وضرب الجزية على الباقين، ولكن المحققين يقولون: إن العود لم يتحقق إلا في تأريخ ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين ميلادية عند اعتراف الغربيين بدولة اليهود وإسكانها في فلسطين، لأن العود إلى الدولة والسلطة لم تتحقق إلا في ذلك الوقت. لان ظاهر قوله تعالى ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ﴾ العود إلى الدولة والسلطة الرسمية والبغي على العباد والإفساد في البلاد. والعود بهذا المعنى لا يتحقق إلا بما تقرر لهم من السيادة الرسمية. ويؤيد هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم كما رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر او الشجر: يا مسلم يا عبدالله هذا يهودي خلفي فاقتله، إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود)). والغرقد شجر معروف له شوك ينبت بأرض بيت المقدس، وهناك مقتل اليهود. وأول بعض شجر الغرقد ببعض الكفار الموالين لليهود، أي يكون الكفار على عدائهم إلا بعضا مخصوصا منهم، فهو لا يرغب في قتالهم. ومما يستأنس على هذا المعنى بقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي سجنا حاصرا لهم محيطا بهم فإنه يدل على اقتراب تلك الأيام من أيام آخر الزمان الذي تحقق أهمُّ مع علاماته من قلةِ العلم والإيمان والأمان وسائر أخلاق المؤمنين.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآَنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (10) وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (11) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آَيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آَيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آَيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (12)﴾

قوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآَنَ يَهْدِي﴾ جملة مستأنفة لبيان نعمة أخرى اَخْرى من نعمة الإسراء والمعراج وهي القرآن الـمُعجز بألفاظه ومبانيه، الهادي بأنواره ومعانيه. فيقول: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآَنَ﴾ الذي آتيناكه ﴿يَهْدِي﴾ الجن والإنس كافة بلا فرق بين عنصر وعنصر إلى الحق أي الطريقة ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ الطرق الموصلة إلى سعادة الدارين ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ بعد الإيمان بالله ورسوله المؤيد بالآيات البينات ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ لا يدرك مداه الشامل لما ذكرناه ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وقوله ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ﴾ عطف على ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ والمعنى: أنه يبشر المؤمنين ببشارتين: ثوابهم، وعقاب أعدائهم. أو عطف على يبشر بإضمار يخبر.

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ بيان لحال الإنسان وضعفه عن مقاومة الشدائد والبلايا كما هو ضعيف عن شكر النعم والعطايا فقال: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ﴾ على نفسه بالشر وهو الموت والفناء عند تفاقم البلاء ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ أي دعاء كدعائه بالخير وطلب الأولاد والأموال والجاه ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ يسارع الى طلب كل ما يخطر بباله. روي أنه عليه السلام دفع أسيرا إلى سَوْدَةَ بنت زمعة أم المؤمنين فترحمت عليه فَأَرْخَتْ كِتافه، فهرب، فدعا عليها بقطع اليد ثم ندم، فقال عليه السلام: ((اللهم إنما أنا بشر فمن دعوت عليه فاجعل دعائي رحمة له)) فنزلت.

وقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ شروع في بيان بعض الأدلة على القدرة القاهرة الباهرة التي كما تدل على وجود الباري ووحدته تدل على أن معجزة الإسراء والمعراج وأمثالهما ليس بأعظم من خلق الشمس والقمر ودوران القمر حول الأرض ودوران الأرض حول الشمس بطول الأزمان بدون فتور، حتى يستنتج منهما العقلاء وذوات الأرواح والاحساس أوقات منامها ومقامها وعملها وراحتها فقال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ أي جعلناهما آيتين دالتين على قدرة الباري وحكمته في خلق النهار للعمل والتعب، والليل للراحة والإستراحة ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي فجعلنا الليل مظلما والنهار مضيئا أو جعلنا لهما آيتين هما الشمس والقمر ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ وهي القمر وجعلناها في نفسها مطموسة لا نور لها إلا ما يستفيد من آية النهار أعني الشمس ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ﴾ وهي الشمس ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي مضيئة، أو مبصرة للناس من أبصره اي جعله مُبصراً وذلك ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهو كسب العلم والرزق في النهار وكسب الراحة للحواس والأعضاء بمنام الليل ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ﴾ التي يتعلق بها غرض الإنسان لمعرفة الحوادث التاريخية وأسبابها، وجعلها درسا نافعا ودفترا واسعا لاكتساب المعلومات القيمة ومعرفة طريق الحياة والحذر من البينات ﴿وَ﴾ لتعلموا ﴿الْحِسَابَ﴾ لأوقات العمل والراحة التي يتعلق بها أعمال البشر في التعليم والتدريب والتهذيب وما يحتاج إليه البشر من استخدام الأجراء والعمال وأوقات العبادات وأداء المناسك وغيرها ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ مما تفتقرون إليه للمعاش والمعاد وطرق تطور العباد، وإصلاح الأنفس وتعمير البلاد، ومكافحة أهل الفساد بإعداد العدة وتوفير الزاد ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ في هذا القرآن وفي سائر الكتب المنزلة على الرسل الهداة إلى السبل ﴿تَفْصِيلًا﴾ مناسبا لتطور أهل الزمان.

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (13) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14) مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (15) وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (16) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (17)﴾

قوله تعالى ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ﴾ منصوب على الإشتغال ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ﴾ أي عمله الصادر منه بكسبه واختياره. وسمي طائرا بالمجاز كأنه طار إليه من الغيب ﴿فِي عُنُقِهِ﴾ أي ثابتة في رقبته وذمته، هذا في الدنيا ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا﴾ هي صحيفة عمله ﴿يَلْقَاهُ﴾ الانسان المقيد به ﴿مَنْشُورًا﴾ غير مطوي أي واضحا غير مخفي: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ أي ويقال له من جانب ملائكة الحساب: اقرأ كتابك واعلم ما فيه ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14) مَنِ اهْتَدَى﴾ بهدايته وعمل بما يرضاه ربه ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ﴾ عن طريق عنايته ولم يهتد بهدايته ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي فإنما وبال ضلاله على نفسه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي ولا تحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس أخرى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ أي وما كنا معذبين أحدا من العقلاء البالغين حتى نبعث إليه بالذات أو بالواسطة رسولا يهديه إلى الحق ويبين منهج عقيدته وعمله وطموحه وأمله، وهذه الآية صريحة في أن الانسان العائش في الفترة وانقطاع الوحي السماوي واندراس الشريعة السابقة،

ليس مكلفا في الدنيا ولا معاقبا في الآخرة، وبما أنه ليس هناك واسطة بين الجنة والنار فهم في الجنة لكن على درجة تناسب حالهم، وكما أن نص الكتاب هذا فأصول أهل العلم تدل دلالة قاطعة على أن الغافل لا يكلف، وأما إلزامه غرامة ما بتلف فمن باب خطاب الوضع، ومن هنا يظهر بوضوح ما أفاده المحققون كالغزالي رضي الله عنه أن الناس المتوطنين في الجزر البعيدة عن المعمورة، وسكان الوديان العميقة السحيقة، وأهل قمم الجبال الشاهقة ممن لم تصلهم البعثة ليسوا مكلفين ما داموا كذلك. وأما اليوم الذي نرى ما يجري، ونسمع ما يقال، ويذاع فيه فلم يبق مجال لأحد من العقلاء أن يعتذر بعدم وصول البعثة إليه. نعم إن الناس الضعاف في العلم والمقدرة الواقعين تحت سيطرة دعاة السوء عذابهم أقل من عذاب المسيطرين عليهم المحرفين لهم عن طريق الحق والصواب.

ولما بين الباري سبحانه أنه جرت سنته على ترتب الحساب والعذاب على البعث وتمرد الناس العابثين اللاهين اللاعبين بأصول الدين عقب الآية السابقة بقوله الكريم ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ أي نهلك أهلها وندمر ساحة العمارات كأن لم يكن عليها قصر ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ بالطاعة وكف النفس عن الغفلة والغرور والفسق والفجور، وبشكر الخالق على النعمة والدثور ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ وخرجوا عن طاعة باريها وتمردوا وعاندوا الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ أي كلمة العذاب ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ بحيث لم يجدوا للدفاع وليا ولا نصيرا.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ﴾ تميز لكم، وهي خبرية. أي وأهلكنا كثيرا من أهل القرون الماضية ﴿مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ عليه السلام كعاد، وثمود، وشعب نمرود، وأهل مدين المردود، وفراعنة مصر ذوي الكفر والجحود، وأصحاب الأخدود النار ذات الوقود... والقرن مائة سنة على

الراجح، ولم يكن إهلاكها منا إلا لتمردها وطغيانها وبغيها وعدوانها على بني الإنسان ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ محيطا بظواهرها وبواطنها فيعاقب عليها وكفى بربك على العقاب قديرا.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (18) وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (19) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (20) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (21) لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (22)﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ يعني انا أرسلنا الرسل وأوضحنا السبل، وبينا على لسان المبلغ الصادق أن الله خلق العباد للرشاد، لا للبغي والعناد والغي والسفه والفساد، وأن الدنيا دار المتاع المؤقت وأن الآخرة دار الجزاء المؤبد، وبعد ذلك ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ أي متاع الدنيا الحاضرة عنده ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا﴾ أي في الدنيا العاجلة ﴿مَا نَشَاءُ﴾ من المتاع ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾ أي لمن نريد تعجيله له منهم. وإلا فليس كل ما يريده أهل العاجلة يأخذه فما كل ما يتمنى المرء يدركه ﴿ثُمَّ﴾ بعد وفاته وبعثه وحسابه ﴿جَعَلْنَا لَهُ﴾ مكان ما عجلنا له ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا﴾ عند الله ﴿مَدْحُورًا﴾ أي مطرودا من رحمته تعالى ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ﴾ أي الدار الآخرة ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي السعي اللائق لنيلها ﴿وَهُوَ﴾ مع ذلك السعي ﴿مُؤْمِنٌ﴾ بالله ورسوله إيمانا صحيحاً لا يشوبه ما يقدح فيه

﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ مقبولا مثابا عليه هناك. ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ﴾ أي ونمد كلا من الفريقين هؤلاء المريدين للعاجلة وهؤلاء المريدين للآخرة ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ أي من معطاه الواسع الذي لا منتهى له ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي ممنوعا عمن يريده، بل هو واصل إلى كل من أراده له ربه.

﴿انْظُرْ﴾ أيها الناظر المتبصر المتفكر ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ في الدنيا ﴿وَلَلْآَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي أكبر من درجات الدنيا وتفضيلها، لأن التفاوت فيها بالجنة ودَرَجاتها العالية ومثوبة الله، وبزيادة على ذلك من اللقاء هناك، وما النسبة بين من يراه مسرورا ومن يُحْرم منه مقهورا. وفي بعض الآثار أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن بَيْن أعلى أهل الجنة وأسفلهم درجة كالنجم يرى في مشارق الأرض ومغاربها. وقد أرضى الله تعالى الجميعَ فما يغبط أحدٌ أحَدَاً. وصح ان الله تعالى اعد لعباده الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر.

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ﴾ الخطاب مع الرسول والمراد به أمته ﴿فَتَقْعُدَ﴾ أي فتمكث في أسوإ حال ﴿مَذْمُومًا﴾ عند الله ﴿مَخْذُولًا﴾ حائِراً تائها متفكرا.

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (25) وَآَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (26) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (27) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (28)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ من هذه الآية إلى آخر آية الثماني والثلاثين بيان لصفات وأعمال هامة من شعار الإنسان الكامل والعبد الفاضل بحيث إذا حاز عبد تلك الصفات اعتبر متميزا بأحسن الصفات ومتوسما بأعلى السمات، منها ما يتعلق بالإعتقاد، ومنها ما يتعلق بغيره، وهو إما متعلق بأقرب الإنسان إلى الإنسان وأحقهم بالرعاية أعني الوالدين. أو بمن يليه من الأقارب وغيرهم. ومنها ما هو نهي عن اقتراف الرذائل وما يتعلق بها من الحقوق الثابتة بينه وبين غيره، ومنها ما يتعلق برذائل نفسية شخصية، ويختمها بما بدأ به أولا.

فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ﴾ أي وأمر أمراً مقطوعا به بأن لا تعبدوا إلا إياه أي خصصوا عبادتكم به تعالى ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي وبأن تحسنوا إليهما إحسانا.

وقوله ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ كلمة إما فيه مركبة من إن الشرطية وما الزائدة للتأكيد. ولذلك صح إلحاق نون التأكيد بالفعل بعدها. وقوله ﴿عِنْدَكَ﴾ بمعنى في كنفك ورعايتك. وقوله ﴿الْكِبَرَ﴾ مفعول به و﴿أَحَدُهُمَا﴾ فاعل يبلغن، والجملة مع ما بعدها بيان لجملة ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ باعتبار بعض الصور ويعلم حال سائر الصور بالأولى. وحاصله فإن بلغ أحد الوالدين أو كلاهما حد الكبر وضعف القوى مطلقا، ولانَتْ قلوبُهما بحيث لا تتحمل أي عنفٍ ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا﴾ أو لأحدهما

في حال من الأحوال المزعجة لك ﴿أُفٍّ﴾ ولا تتضجر مما يستقذر منهما، ولا تستثقل من مؤنتهما أو مؤنة أحدهما شيئا ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي ولا تزجرهما عما لا يعجبك بإغلاظ ﴿وَقُلْ لَهُمَا﴾ بدل التأفيف والنّهر ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾ محترما لا خشونة ولا سوء أدب فيه.

ولما نهى الله سبحانه وتعالى عن التأفيف والنهر لهما نهيا تحريما علم أنّ ما فوقهما من الأقوال والأفعال الغير المناسبة لهما حرام بالطريق الأولى. وذلك المعنى اما مستفاد من القياس الجليّ، أو من العُرْف، أو بطريق المجاز. ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا﴾ أي للوالدين ﴿جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ أي تذلل وتواضع لهما ففي الذل إستعارة مكنية حيث شبه الذل بطائر يطير في الهواء وينحط ويتنزل من علو، وذكر الجناح قرينة لها، وفيها إستعارة تخييلية. أو في الجناح إستعارة مصرحة حيث شبه العطف ولين القلب بالجناح وإضافته إلى الذل قرينة، وذكر الخفض ترشيح لمناسبته للمشبه به. وقوله ﴿مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي من فرط رحمتك عليهما. وتنبه حتى لا يظن الوالدان أو أحدهما فيك تعنتا ويَرَيا أن خفض الجناح منك نوع من التأثر وتضجر القلب فيزداد ألَمهُما النفسيُّ من ذلك ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ أي وادع الله سبحانه أن يرحمهما برحمة خالدة ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ أي كما ترحما عليّ عندَما كنتُ صغيراً لا أدبّر نفسي وأتَيا بما احْتَجْتُ إليه، وتَرَجيا مع ذلك دوامي وبقائي في الدنيا.

روي أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أبويّ بلغا من الكبر بحيث أنّي ألي منهما ما وَليا مني في الصغر، فهل قضيتهما؟ قال: ((لا فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وتريد فَوتَهما)) وقوله تعالى ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ تأديب وتنبيه للأولاد على تصفية النفس من كل ما يخالف الإخلاص فان العمل بدون اخلاص ليس

له نتيجة إلا الإفلاس. فقال ربكم أعلم بما في نفوسكم من
قصد البر إليهما وفاءً بحقهما وأداء وامتثالاً لأمر الله تعالى اولا
﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ أي إن تكونوا
صالحين وقاصدين للصلاح تكونوا أوّابين رَجّاعين إلى الله، وعند
ذلك يغفرُ الله تعالى لكم فإنه كان للأوابين غفورا.

ولما أمر الله تعالى عبده المخلص بإخلاص العبادة له
وتخصيصه بالطاعة والتذلل وتوحيده، ثم أمره بالإحسان إلى
الوالدين، وهما أحق الناس بالرعاية، أمره بإعطاء ذوي القربى
والمساكين وأبناء السبيل حقوقهم وقال: ﴿وَآَتِ ذَا الْقُرْبَى﴾ أي
صاحب خصلة القرابة من العصبات وذوي الفروض وذوات
الأرحام ﴿حَقَّهُ﴾ من الصلة وحسن المعاشرة في الحضور،
وحفظ الغيب في الغيبة، والمساعدة بما يمكن عند الكرب.
وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: حقهم إذا كانوا محارم فقراء
أن ينفق عليهم ﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ أي وآتهما حقهما
وهو الزكاة إذا كان الأمر للوجوب، وحقهما من زيادة المساعدة
اذا كان الأمر للندب، فإن رعاية المساكين وأبناء السبيل صدقة
تطوع ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ أي ولا تصرف المال فيما لا ينبغي
فَأعطِهِمْ مقدار الكفاية، ولا تنفق مالك فيما لا يحتاج إليه، ولا
في المعاصي ولا للسمعة ولا للرياء. ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ
الشَّيَاطِينِ﴾ أي كانوا أمثالهم في الشرارة ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ
لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أي مبالغا في الكفر والتعنت والعناد وبذلك خرج
عن طريق الرشاد ولعن إلى أبد الآباد ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ
ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي وإن أعرضت عن المذكورين
لفقدان المال وانتظار حصوله في المستقبل ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا
مَيْسُورًا﴾ أي فقل لهم في طلب السماح منهم قولا لينا
يرتضونه ولا يتأذون به حتى إذا حصل المجال آتيتهم بقدر
الحال.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (29) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (30) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (31) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (32)﴾

قوله تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾... الآية في الآية الكريمة تمثيلان بليغان لمنع الإنسان الشحيح من الشح والمبذر من التبذير زجراً لهما عن الصفتين الرذيلتين ودعوة لهما الى التوسط بينهما، لأن خير الأمور أوسطها. عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الإقتصاد نصف المعيشة)) وفي رواية عن أنس مرفوعا: ((التدبير نصف المعيشة، والتودد نصف العقل والهم نصف الهرم، وقلة العيال أحد اليسارين)) ويستفاد ضمن الآية تشبيه الهيئة الحاصلة من المال الموجود وحاجة الإنسان إليه وعدم صرفه في قضاء الحوائج بوجود اليد والقوة لصاحبها وربطها بالعنق بحيث لا يقدر على تحريكها ودفع أي أذى من صاحب وجلب أي خير إليه. كما أنه يستفاد تشبيه الهيئة الحاصلة من المال الكثير وإفاضته على الناس المحتاجين وغير المحتاجين وصرفها المناسب وغير المناسب بإنسان له يدان مبسوطتان ممتدتان يمنة ويسرة بحيث لا تتحركان لمنع الأذى وعمل مفيد له، فكأن الإنسان ما له يد، أو له يدان لا تعملان ولا تأتيان بنفع لصاحبهما وقوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ متفرع عن المتعاطفين أي فتصير لذينك الأمرين ملوما مذموما عند الله وعند عقلاء الناس بالبخل

واللؤم والإسراف وإتلاف المال وسوء التصرف نادما متحسرا، أو منقطعا عن الناس لا يميل إليك أحد ولا يأتيك من أحد مَدَدٌ۔

وقوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ تعليل لقوله السابق ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ الآية وللنهيين الواقعين قبلها. يعني إن أعرضت عن الانفاق على الناس أولا وإن بخلت على الناس في صرف المال، أو بسطْتَ اليدين على الكل، فإن ذلك لا يؤثر في تغيير ما قسمه الله تعالى بين الناس من المعيشة، فلا تجعل نفسك عاصية عن إطاعة أوامر قدسك ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ عالمنا بسرائرهم بصيرا عالما بظواهرهم، فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم بل يخفى على كل أحد سواه ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ أي فقر وقلةٍ في الأرزاق، فالمراد بالأولاد البنات وبالقتل وَأدهن في الحفرات ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي نحن نرزقهم لا أنتم ونحن نرزقكم أيضا وأنتم آباؤهم لا انتم ترزقون أنفسكم ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ في حد ذاته لأنه إبادة نفس معصومة بدون موجبات معلومة، فهذا التعليل كاف في منع الآباء عن قتل الأولاد، وإنما العلة الأولى لردع النفوس المخطئة المتوهمة عما توهمته من تحمل أعباء النفقات.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾ بمباشرة مقدماته كالنظر بشهوة، والمسّ، والغمز، والخلوة، والكلام الفاسد لهن، واستمالة قلوبهن... فضلا عن مباشرة نفس الإيلاج المحرم ﴿إِنَّهُ﴾ أي الزنا ﴿كَانَ﴾ في جميع الملل ولم يزل ﴿فَاحِشَةً﴾ يستنكرها الطبع السليم ﴿وَسَاءَ﴾ سبيل الزنا ﴿سَبِيلًا﴾ لقضاء الشهوات الجنسية لأن صاحبها إذا تعوده استمر عليه وذلك موجب لجلب الفتن والمنازعات والويلات وخراب العائلات وعدم استقرار النفوس بمن يصاحبه من الأزواج والزوجات، وطبيعة المرء متحاشية عن قبول تلويث الفراش بالعمل الفاسد، وحتى الحيوانات والطيور فكيف بالإنسان الشهم

الجسور الغيور! علاوة على كبر اثمها في الدين. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن....)) وجاء في روايات ((إنه إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان)) ولذلك عد من الكبائر وشرع عليه حد جلد لغير المحصنين، والرجم بالحجارة لهما، وكفى بذلك عارا وبوارا.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (33) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (34) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (35) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (37) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (38) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (39)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ يعني حرم الله قتلها ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي إلا بسبب من الأسباب التي توجب قتلها، بأن قَتَلَتْ نفسا معصومة فقُتِلت قصاصا، أو كان رجلا مُحصناً وزنى، أو امرأة

محصنة وزنت، أو ارتد عن دين الإسلام، وفسر الحق بما رواه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا يحل دم امرئ يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيّب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة)) وأما قتل الصائل على الانسان فلاعتباره في حكم القاتل في الجملة، وقتل تارك الصلاة لاعتباره من المرتدين، وقتل اللائط لاعتباره زانيا. والتفصيل في المطولات. ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ أي بغير حق يوجب قتله ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ﴾ أي لمن يلي أمرهُ وارثا أو سلطانا إذا لم يوجد الولي ﴿سُلْطَانًا﴾ أي تسلطا واستيلاء على القاتل بمؤاخذته بأحد أمرين: القصاص، أو الدية. وقد تتعين الدية كما في قتل الخطأ ﴿فَلَا يُسْرِفْ﴾ أي الولي ﴿فِي الْقَتْلِ﴾ أي فلا يتجاوز الحد المشروع بأن يقتل اثنين بواحد، أو يقتل القاتل بطريق يؤذي إيذاء زائدا على العادة كأن قتل شخص بالسيف الحاد فيقتل القاتل بالسكين الكالّ، أو بأن يأتي بالمثلة كقطع الأنف والأذن وغيرهما ﴿إِنَّهُ﴾ أي الولي ﴿كَانَ مَنْصُورًا﴾ من الله حيث أحل له القصاص وأخذَ الدية. فلا يجوز أن يجعل نفسه مكسورا بارتكاب ما لا يحل في الدين.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي إلا بالخصلة التي هي أحسن الخصال وهي صيانته وتنميته ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي حتى يبلغ أوان قوته في العقل وهو وقت البلوغ رشيدا، وعند ذلك لا يجوز التصرف في ماله إلا بإذنه وظاهر إطلاق الآية الكريمة النهي عن التعرض له قليلا أو كثيرا، فالمطلق يبقى على إطلاقه ويجب على المسلمين التورع عن إضاعة أموال اليتامى بأي وجه كان. نعم يجوز لإخوة اليتيم إذا كانوا في دار واحدة ولهم أموال مشتركة وزراعات وبهائم التصرف في ذلك المال بحيث

لا يتضرر مال اليتيم، وذلك بتخويل القاضي عند وجوده أو أهل الخبرة عند فقده أو إهماله لذلك الأمر أحد الإخوة في بيع حصته مع ماله إذا كان فيه منفعة حتى يتسنى له إدارة شؤن اليتيم كسوة وتربية وتعليما.

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ أي بما عاهدتم الله عليه من أحكام الدين إيجابا وسلبا، وبما عاهدتم عليه غيركم سواءٌ كان بالأحلافِ المشروعة أو بالمعاملات والعقود الشرعية أو النذور الصحيحة ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ أي مسؤلا عنه. وفيه إستعارة بالكناية حيث شبه العهد برجل رشيد إلتزم أمرا، وذكر مسؤلا قرينة ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أتموه ولا تُخْسِرُوه ﴿إِذَا كِلْتُمْ﴾ للمشترين ﴿وَزِنُوا﴾ المواد الموزونة عادة في المعاملات ﴿بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي بالميزان المعتدل صغيرا كان أو كبيرا ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من إيفاء الكيل والوزن بالميزان المعتدل ﴿خَيْرٌ﴾ مما يختاره الناس، ويعدونه خيرا لأنفسهم في المعاملات لأن المذكور خير تشريعي وما كان مختارا عند الناس خير جعلي ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي أحسن عاقبة لما يترتب عليه من الثواب ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي ولا تتبع ما ليس لك به علم فيما يطلب فيه العلم من المعتقدات والشهادات، ولا تشهد بالزور ولا تقذف أحَدا بدون العلم بعمله السيئ، ولا تقل سمعت من فلان أو رأيت فلانا فيما لم تسمعه ولم تره، ولا تنسب إلى أحد كفراً أو كبيرة بدون علمك به ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ أي يسأل كل تلك الأجهزة عما نسب إليه، فيسأل السمع: هل سمعت؟ والبصر هل رأيت؟ والفؤاد هل علمت؟ أو يسأل أصحابها عن العلم بسببها ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي فخرا وكبرا ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ إذا وطئتها بالقوة ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ اذا رفعت قامتك تكبرا ﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ المذكور في جملة الأوامر والنواهي ﴿كَانَ سَيِّئُهُ﴾ أي السيئ منها ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ الناهي

عنه ﴿مَكْرُوهًا﴾ غير محبوب وغير مرضي وإن كان مرادا له تعالى إذ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وليس بين الإرادة والكراهة تضاد حتى يمتنع إجتماعهما في محل لأنهما أعم وأخص من وجه مادة اجتماعهما أولئك الناس الآتون بتلك المنهيات ومادة افتراق الارادة عن الكراهة ارادة الباري لإيمان المؤمن فانه مراد غير مكروه ومادة افتراق المكروه عن الارادة كراهة كفر المؤمن فانه مكروه وليس بمراد لانتفائه.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور المتقدم في التكاليف ﴿مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ أي من الشرائع التي هي مشتملة على الإتقان والخير والمناسبة مع سعادة المكلفين، وأهمها هو الأبعاد عن الاشراك الذي هو شرك الهلاك المؤبد فاذكر ربك ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ من جهة نفسك اللوامة على ما فعلت من موجبات الندامة ﴿مَدْحُورًا﴾ مبعدا من رحمته الواسعة. والخطاب، وإن كان مع الحبيب، فإنه يراد به غيره من البعيد والقريب.

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (40) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (41) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (42) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (43) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (44)﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ الهمزة للإستفهام الإنكاري، والخطاب مع المشركين الذين قالوا الملائكة بنات الله، فيقول: أيها الجهلة

المحتارون في وادي الضلال أفلا تتفكرون في أن خالق العالم ليس ممن يحتاج الى النسل لحفظ نوع الأصل فانه أصل فرد صمد ليس مثله أحد، ولو فرض فارض بالتقدير إختياره لنسل فكيف اختاركم بأشرف صنف منه وخص نفسه بصنف لا تختارونه لأنفسكم؟ ! ﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ وهذا خلاف ما عليه عقولكم ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ ثقيلا على السماوات والأرض قبولُه ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ كررنا في مواضع منه إنكارَ نسبةِ النسلِ إليه مُطلقا، لأنه الغني المطلق الموصوف بالكمال المطلق ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي ليتفكروا في الحقائق ويختاروا لأنفسهم الإعتقاد الصحيح اللائق ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ تصريفنا ذلك ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحق الى الباطل وذلك عادة كل إنسانٍ عار عن العقل جاهل.

وبعد أن بينت لهم إستغناءه تعالى عن الاولاد بين لهم استحالة وجودِ الشريك له تعالى، فانه الواجب الوجود، القادر المعبود الذي يفعل ما يريد ولا مجال لوجود الشريك له.

و ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أيها المشركون لكان بينهم وبينه مناسبة ومراسلة ﴿إِذًا لَابْتَغَوْا﴾ أي أولئك الآلهة ﴿إِلَى ذِي الْعَرْشِ﴾ المجيد الفعال لما يريد ﴿سَبِيلًا (42) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى﴾ تنزيهاً له ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من وجود الآلهة أو وجود إله واحد معه ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ فَليس هُو من الموصوف بالإمكان والحدوث حتى يمكن أن تكون فيه شائبة الحاجة ويكون له افتقار إلى الشريك والمعاون في الأمور وذلك معلوم عند ذوي الفطنة والشعور. فهو المتوحد بالكمال والجمال والجلال والمتفرد بالإستيلاء على الكائنات الموجودة كلهن وجزئهن ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهنَّ﴾ من الملائكة والجن والإنس ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ﴾ من الجمادات والنبات والحيوانات ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ﴾ له تعالى

متلبساً ﴿بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ إذ ليس تسبيحهم بتقطيع الأصواتِ أو تركيب الحروفِ والكلمات، فإن لكل موجود حدودا ولكل موزونٍ ميزاناً فبقاؤها في الجوّ الواسع، وَدَورانُها المستمر لإفادة المنافع، ورعاية مقدار الحركات على الوجه اللائق الرائع، وتغيرها بإرادة الباري في إنزال الثلوج والبرد والأمطار على البراري والبحار لتفجير الينابيع وجريان الأنهار كل ذلك تسبيح وتقديس أفصح من تسبيحات أهل النفوس للملك الديان القدوس. وكيف تفقهون تسبيح ذواتٍ لا فُتور لها عنه بالساعات والدقائق والثواني؟ فَتبينَ أنا ما وَجدْنا في الإنسان مثلهنّ مُسبحا شكورا، ولكن الله يسامحُ العِباد ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآَنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (45) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آَذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآَنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (46) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (47) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (48)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآَنَ... ﴾ هذه الآية الكريمة تمثيل لهم في عدم استماع الحق بمنْ كانَ وراء حجاب يمنعه عن رُؤية منْ يمرّ وراءَه أو عن سماع كلامِهِ كما أنَّ الأكنة كذلك أي ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآَنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ لا يُبصر بالعين المجردة فلا يرونك حتى لا يؤذوك وهذا الحجاب مانع عن رؤيتك فقد روي أنها

نزلت في أبي جهل والنضر وأم جميل وأمثالهم إذ كانوا يؤذونه إذا قرأه فحجب اللهُ أبصارهم عنه فكانوا يمرون ولا يرونه ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ تُكِنها وتسترُها وتحوُل دونها عن إدراك معناه أي مَنَعناهم ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي صمما وثقلا عظيما مانعا عن استماعه، وكل هذه الجعليات ترتبت منه تعالى على اعتقادات وسخة راسخة في قلوبهم، وأعمال سيئة أبرزوها في معاندة أبرز رسولٍ هادٍ ناشرٍ لأحكام الإسلام، وإلا فالباري سبحانه قالَ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ أي غير مذكور معه آلهتهم ﴿وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ أي نفرة وهربا من استماع التوحيد لله المجيد ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ أي بسببه ولأجله ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ أي ونحن أعلم بغرضهم حين هم مستمعون للقرآن عند قراءته ونحن أعلم بحالهم حين هم ذوو نجوى متناجون به ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ أي رجلا سحر فزال عقلهُ ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ أي ذكروا لك الأشباه والنظائر فمثلوك بالشاعر والساحر والكاهن والمجنون وليس عندهم من ذلك النوع صنف آخر وإلا كانوا يمثلونك به أيضا ولكن لا تهتمَّ بهم فإنما المشركون بهائم بُهْمٌ لا يُهِمُّهم إلا فروجُهم وبُطُونهم ﴿فَضَلُّوا﴾ عن طريق الحق ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى طعن واقعي يطعنونك به.

﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (49) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (51) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (52)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ أي وقال المشركون المنكرون للبعث واستفهموا استفهاما انكاريا: ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا﴾ أي أئذا متنا ولم تبق لحومنا وبقي منا العظام المجردة ﴿وَرُفَاتًا﴾ والرفات: ما بُلِيَ فَتَفَتَّتَ. وقيل إنه التراب ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ على غضاضة الحي وطراوته مع ما بينها وبين يبوسة الرميم من مباعدة ومباينة تامة ﴿قُلْ﴾ يا حبيبي في جوابهم: ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ ويبتعد عن قبول الحياة أيّاً كان فإنكم تحيون وتبعثون ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ بعد قولك هذا: ﴿مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ﴾ أي قل يعيدكم الرب القادر الذي خلقكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وكنتم ترابا باعتبار الأصل، ثم كنتم نطفة، ثم علقة، ثم مضغة ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي فإذا قلت لهم ذلك وكان يحتوي دليلا دقيقا جليلا، فَبَدَلَ أن يقبَلُوا منك الكلامَ السليم سيحركون إليك رءوسهم استهزاء وتعجبا ﴿وَيَقُولُونَ﴾ لاستبعاده: ﴿مَتَى هُوَ﴾ أي في أي زمان يتحقق ذلك العود ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ فإن كلَّ آتٍ قريب. وذلك يتحقق ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ أي يوم يبعثكم فتبعثون استجابة لدعوته متلبسين ﴿بِحَمْدِهِ﴾ على كمال قدرته أو تعلمون أن كل ما وعد به فهو حق ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ إذ ذاك سبحانك اللهم وبحمدك وتظنون في ذلك اليوم ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا (53) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (54) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (55)﴾

قوله تعالى ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي وقل يا حبيبي لعبادي المؤمنين يقولوا في المحاورات مع أولئك المشركين المستكبرين الكلمة التي هي أحسن الكلمات المناسبة في المخاطبة، وليأتوا باللين منها، ولا يخاشنوهم ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي يفسد ويهيج الشرّ بينهم وبين الكافرين. والمداراةُ والملاينة انسَبُ بهم لإصلاح ذات البين من المخاشنة ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ واضح العداوة. وهذه العداوة قد تكون بافساد نفسه في ذاته، وقد تكون بإيقاع الفتنة بينه وبين إنسان آخر، أو أناسي آخرين. ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بالتوفيق للنيات الطيبة والأعمال الحسنة ﴿أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ في الدنيا أو في الآخرة بخلق العزم على ما لا تحسن عاقبته وبمباشرة الأعمال السيئة في نفسه أو مع غيره ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي وما أرسلناك مفوضة إليك أمورهم وإنما أرسلت للتوجيه والتنبيه والإرشاد إلى كسب سعادة المعاش والمعاد ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بنياتهم وأعمالهم وحالهم ومآلهم فيختار منهم من يختاره للرسالة وإخراج الناس من الضلالة إلى الهُدى باختيار سلوك طريق الحق، ومنهم من يختاره لقبول ما وصل إليه من التوجيهات، ومنهم من كان على غير ذلك ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ بالمواهب القدسية، والمراتب النفسية، والأخلاق العالية الزكية، أو بالمعجزات

الجسيمة، أو بعموم الرسالة، أو بفضائل الأمة ﴿وَآَتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾. وفيها الأذكار الصباحية والمسائية ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ وقد كتبنا فيه من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون. وأن القدس يأخذها الأمة المحمدية الصالحون المصلحون باختيار الدين على الدنيا كما ورثها الأصحاب الكرام في سابق الأيام، وكما ورثها جيش الحق جيش صلاح الدين بعد استيلاء الكفار عليها مدى من الأعوام وسترثها الأمة الإسلامية بالنصر العزيز والفتح المبين بعون الله العلام.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (56) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (57) وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (58)﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ جاء الزعم بتثليث الزاء قريبا من الظن. ويقال: إنه القول المشكوك فيه، ويستعمل بمعنى الكذب حتى قالوا: إن كل ما ورد منه في القرآن الكريم فهو بمعنى القول الكذب، كما أنه جاء بمعنى القول المحقق، وهذا موردهُ الكذب البواح، ومفعولاه محذوفان، والتقدير قل يا حبيبي للكفار المشركين: ﴿ادْعُوا﴾ الشركاء ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ وهم آلهة ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي من دون الله. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في المشركين الذين أشركوا بالله تعالى فعبدوا عيسى وأمه وعزيراً والشمس والقمرً والكواكب. هل يجيبونهم في

ما يدعونهم له والجواب كلا. فإذا تبين أنهم ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾ من المرض والفقر وما ابتليتم به ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ لذلك الضر عنكم إلى غيركم. ومن لا قدرة له على ذلك لا يستحق أن يعبد لأن العبادة وصحتها مترتبة على اتصاف ذلك المعبود بقدرة الخلق والإبداع والإيجاد ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي أولئك الآلهةِ الذين يدعوهم المشركون ويسمونهم آلهة ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ أي القربةبالطاعة والعبادة والإنقياد ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ بدل من فاعل يبتغون. يعني إن أي واحد منهم أقرب الى الله تعالى بامتيازه عن غيره بالنبوة والرسالة كعزير وعيسى عليهما السلام، أو بكرامة حاصلة بالطاعة والإخلاص كسائر أعيان الأمة الذين كانوا من الصالحين فنقشوا صورهم وحولوها الى الاصنام وعبدوها بعد بالتدريج العادي ﴿وَيَرْجُونَ﴾ من الله ﴿رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ فكيف يتصورون أنهم آلهة وكيف يعقل أن لهم ابداعا في الكائنات من الأرض أو السماوات وانما يرجون رحمته، ويخافون عذابه كهيبة عذاب الله في قلوبهم؟ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ وحقيقا بأن يخاف ويحذر منه أعاذنا الله تعالى منه.

ولما ذكر أن عذاب الله سبحانه وتعالى كان مهيبا مهولا يخاف، وأن العذاب لا ينزل إلا باستحقاق الإنسان له بالعقائد الفاسدة والأعمال السيئة، لاسيما الظلم والطغيان والبغي والعدوان، وأن الأمة في آخر أدوار الدنيا تستحق بهما العذاب. قال تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي ما من معمورة في الدنيا ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي مهلكو أهلها إهلاكا عاما ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بابتلائهم بأنواع البلايا المحيرة للعقول ورفع الأمان عنهم المذكور من الإهلاك الجماعي أو العذاب الشديد ﴿كَانَ ذَلِكَ﴾ ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ أي اللوح المحفوظ ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوباً.

ثم إن من الناس من ادعى أن الإهلاك والتعذيب المذكورين مختصان بالكفار وبلادهم، وذلك لكفرهم. ومنهم من قال بعمومهما لجميع البلاد والعباد سواء كانت بلاد الإسلام أو غيرها، والعباد من المسلمين أو الكافرين.

وهذا هو الظاهر لدليلين: الأول دلالة ظاهر الآية الكريمة، فإنها ليس فيها التخصيص ببلد دون بلد ولا بقوم دون قوم. والثاني: أن الظاهر من الكتاب والسنة أن نزول العذاب ناتج من المعاصي وخروج الناس عن إطاعة الباري. وهذه العلة موجودة في مشارق الأرض ومغاربها وجنوبها وشمالها. ومعاصي أمة الإسلام لو فرضنا أنها لا تصل إلى درجة معاصي الكفار، لكنها لما كانت مسلمة وعارفة بالآيات والآداب كان الواجب أن تتنزه عنها بالمرة. فالذنوب الصغيرة الناشئة من المسلم كبيرة وكبيرته من أكبر الكبائر. وعلى كل حال فقد رأينا تغييرات هامة وتخريبات عامة في بعض المناطق الإسلامية، ونسترحم المولى جل شأنه أن يسامحنا ولا يستمر في تعذيبنا ويرحمنا برحمته التي وسعت كل شيء إنه رؤوف رحيم.

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآَيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآَيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (59) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآَنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (60)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآَيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ يعني بالآيات التي اقترحتها قريش على الرسول صلى الله عليه وسلم. فقد أخرج أحمد والنسائي والحاكم، وصححه والطبراني وغيرهم عن ابن

عباس رضي الله عنهما قال: سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا، وأن ينحي عنهم الجبال فيزرعوا. فقيل له: إن شئت أن تستأنِيَ بهم، وإِنْ شئتَ أن تؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم من الأمم فقال عليه الصلاة والسلام: ((لا بل أستأني بهم)) فأنزل الله تعالى هذه الآية. والحاصل أنه ما منعنا أن نرسل الآياتِ التي اقترحتها قريش الا أنه كذب بها الأولون المقترحون لنوع تلك الآيات، فلما آتيناهم تلك الآيات كذبوا بها فأهلكتهم، وهذه سنتي ولا تبديل لها فإذا أرسلناها كذبت بها قريش، ولابد أن نهلكهم ولا نريدُ أن نهلكهم وانت فيهم، أو لا نريد أن نهلكهم ونعلم أن مِن أولادهم من يؤمن بالله ورسوله ﴿وَآَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ﴾ أي التي اقترحتها حالكونها ﴿مُبْصِرَةً﴾ للناس العقلاء أي جاعلة لهم أهل بصيرة بالحق أي كان من شأنها ذلك ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي فكفروا بها، وعقرها أشقى ثمود فأهلكناهم، ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآَيَاتِ﴾ المقترحة ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ لمن أرسلناها إليهم. يعني أنه كلما أرسلت آية مقترحة كانت كإنذار للناس المقترحين بهلاكهم عند إنكارهم لها، وما تزال هذه سنتنا في الكائنات، ولن تجد لسنتنا تبديلا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ مناسبته مع ما قبله هي أن القوم لما طالبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمعجزات القاهرة وأجاب الله تعالى بأن إظهارها ليس بمصلحة صار ذلك سببا لجِرأة أولئك الكفار بالطعن فيه، وأن يقولوا له: لو كنت رسولاً حقاً من عند الله تعالى لأتيت بهذه المعجزات التي اقترحناها منك كما أتى بها موسى وعيسى وغيره من الأنبياء، فعند هذا قوى الله قلبه وبين له أنه تعالى يَنصرُهُ ويؤيده. فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أي إن قدرته محيطة بالناس فهم في قبضة قدرته. ومادام الأمر كذلك فهم لا يقدرون على

أمر من الأمورِ إلّا بقضاء الله وقدره، فلا تهتم بما يقولون، فإنا ننصرك ونُقويكَ حتى تُبلغَ رسالتنا وتُظهر ديننا. أو المراد: إن الله تعالى أحاط بالناس المشركين المستولين على مكة وما حولها، وستفتحها بجيش المؤمنين المجاهدين وتظفر بهم، ونحن نريد بك وبأتباعك الخير، وكل ما ظهر منك وكان محلا لاستهزاء الناس وتطويل ألسنتهم عليك وعلى دينك كان مآله خيرا لك ولأمتك ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾ عامَ الحديبية أن تدخل أنتَ وأصحابك المسجد الحرام ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ حيث عبروها بدخولكم في تلك السنة ولم يعلموا أن المراد دخوله في العام القابل وأن صدهم لكم عن دخوله في تلك السنة وجريان الصلح بينكم صار خيراً للمسلمين. أو ما جعلنا الرؤيا التي رأيتها عام واقعة بدر وأنك بينت مصارع الكفار.. إلا فتنة لهم حيث سخر المشركون منك واستهزأوا مع أن النتيجة كانت لكم والعاقبة للمتقين. ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ أي وما جعلنا بحث الشجرة البعيدة عن رحمتنا أي شجرة الزقوم، وأنها تخرج في أصل الجحيم إلا فتنة للناس حيث استهزأوا وقالوا: كيف تنبت الشجرة في الجحيم وهي مجتمع النار؟ ! ولم يعلموا أن الله قادر على ذلك، وأنه جعلَ من الشجر الأخضر ناراً، وانه جعلَ طير النعامة بحيث يبتلع الجمر ولا يحترق، وقطع الحديد المحماة الحمر ولا تضره وجعل السمندل بحيث يتخذ من وبرهِ مناديل إذا توسخت تُلقى في النار فتذهب أوساخها وتبقى هي سالمة وتستعمل كالسابق! وعلى كل حال ومقال فلا تعتمد إلا على الله القادر العليم ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ في الأوقات بآيات جسام من الغلاء والوباء وغير ذلك ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويفُ ﴿إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ ونحن لهم بالمرصاد فنجزيهم على طغيانهم وعدوانهم بما تقتضيه الحكمة الإلهية وأنَا احكم الحاكمين.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (62) قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (63) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (64) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (65) رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (66)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ﴾ من سنة الله تعالى في إنزال كتابه الكريم أنه يذكر الناس في كثير من المناسبات بأمره الملائكة بالسجود لخليفته المخلوق من التراب ﴿فَسَجَدُوا﴾ له ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ أبى واستكبر فطرد من باب الرحمة لغروره وذلك ليتفكر الإنسان في أصل خلقته ويعلم أن إطاعة خالقه رحمة وأن مخالفته نقمة فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ﴾ تحية وأدبا واحتراما ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ لم يسجد لغروره ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ أي خلقته من طين ولم يكتف بالمخالفة وإبائه عن السجود بل ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ الكافُ حرف خطاب لتأكيد معنى التاء قبله، ورأيتَ بمعنى علمت، وهذا مفعوله الأول، والموصول وصلته صفته، والمفعول الثاني

محذوف، والتقدير: لا يستحق التكريم عليّ وقوله ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ أي لأستولينَّ عليهم إستيلاءً كاملا، أو لأستأصلتهم وأهْلِكنهم جميعا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم وهم المخلصون ﴿قَالَ﴾ سبحانه وتعالى له ﴿اذْهَبْ﴾ يعني أنت مخول ومؤجل ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ وضل عن طريق الحق ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ أي مكملا لا يُدَّخَر منه شيء ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ والمراد بصوته وسوسته التي أعلى وأندى من الصوت في الوصول إلى الأسماع، ولا يبعد أن يراد به صوتُ دعاته الداعين إلى الضلال بالطرق الإحتيالية ووضع الشبكات الإصطيادية ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ والباء مزيدة أي اجمع على الناس أتباعك الخيالة والمشاة. وهذا كناية عن استيعاب الأتباع، أي اجلب لمعونتك وإغواء الناس المفلسين جميع من تقدر عليهم أن تستعملهم في هذه المهمة التي ليس شيء أهم منها عندك.

﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ﴾ بكسبها من الجهات المحرمة وانفاقها فيها ﴿وَالْأَوْلَادِ﴾ بالإستيلاء على أمهاتهن بالعقود المشبوهة، والإنفاق عليهن من المحرمات والمشبوهات، حتى إذا ولدنَ فبإرضاع الأولاد من حليب النساء بدون التقيد بالصلاح والعفة، ثم بتربيتهم على غير منهج الدين المبين، حتى إذا بلغوا أو أن البلوغ والعمل عملوا ما شاؤا بدون رعاية الدين ﴿وَعِدْهُمْ﴾ بالمواعيد الباطلة، وأملهم بالآمال الفاسِدة، وقال معترضا بين خطابه والإلتفات الى الغيبة ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وهو تحسينُ الخطأ وتمويهه بما يوهم أنه صواب.

ثم قال تعالى مثبتا لقلوب العباد المخلصين ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي قدرةٌ واستيلاء لإغوائهم ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ لهم يتوكلون عليه، ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ﴾ أي يجريه فيه بالرياح

اللينة أو إلهام العلوم السليمة الهينة ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ﴾ ولم يزل ﴿بِكُمْ رَحِيمًا﴾ والموصول وصلته صفة الرب المجرور بالباء الزائدة للتأكيد.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (67) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (68) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (69)﴾

قوله تعالى ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ تجهيل لعباد الأصنام من حيث انهم يعبدون ما يعلمون أنه لا نفع فيهم ومع ذلك يعبدون تجاهلاً وعناداً واستمرارا على الحماقة التقليدية بدليل أنه اذا مسكم الضر وخوف الغرق في البحر ضل من تدعون إلا إياه. وذهب عن خواطركم بحيث لا تعتمدون عليهم ولا تلتفتون اليهم لعلمكم بأنها لا تضر ولا تنفع ولم تنتفعوا بها قطعا ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ وحصل لكم الأمان من الغرق ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾ عن ذكره تعالى بعد أن كنتم مستغرقين فيه ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ لنعمته تعالى طبيعة ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ الذي هو مأمنكم أي إن يغيبه الله تعالى ويذهب به في أعماق الأرض وأنتم عليه ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي من فوقكم في ﴿حَاصِبًا﴾ وهو مطر الحجارة أي مطراً يحصبكم أي يرميكم بالحصباء ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ تكلون إليه أموركم فيحفظكم من ذلك، أو يصرفه عنكم غيره ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ أي في البحر ﴿تَارَةً أُخْرَى﴾ أي مرة غير المرة الاولى ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾ وهي الريح الشديدة التي تقصف ما تمر به من الشجر

ونحوه ﴿فَيُغْرِقَكُمْ﴾ الله سبحانه بواسطة ما ينال فُلككم وذلك ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي بسبب كفركم السابق ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ أي نصيرا ينصركم وينجيكم من هذا الغرق.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (70) يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (71) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (72) وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ﴾.. هذه الآية الكريمة عرض إجمالي لنعم الله تعالى على الآدميين مما يوجب شكره والاستمرار في طاعته ويقول ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ﴾ أي والله لقد كرمناهم وشرفناهم صورةً وسيرةً. أما صورةً فبالمشي على رجلين، وبوجود يدين عاليتين قابلتين للبسط والقبض والجذب والدفع، وبوجهٍ جميل وملامح جَذابة، ورأس محتوٍ على مشاعر مهمة، وأما سيرةً فبالعقل والعلم والصفات الحسنة والأخلاق العالية، والتطور والترقي من السيء الى الحسن، ومنه الى الأحسن، وبالتعلم التعليم والإسترشاد فالإرشاد، وتوجيه الجيل للمستقبل

الـمُفضل، وحفظ مآثر السلف الشُّرفاء علماً وعملاً وأدباً وحسبا وغير ذلك، بتأريخ يضبط الحوادث النافعة والضارة، وأسبابها وطرق الإستفادة منها، وبطهارته في الحياة والممات، وبصيانة هيكل المقدسين منهم من البلى والآفات، وبتحمله للقوى النفسية مع التقوى والتوجه إلى الحضرة القدسية، ولذلك راعيناهم بإبقاء الأصل والنسل في العسر واليسر ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ﴾ على أكباد رطبة في ﴿الْبَرِّ﴾ وأعواد يابسة في ﴿الْبَحْرِ﴾ وجعلناهم مستولين على الحيوان الإنسي والوحشي من السبع والطير، ومقتدرين على تسخير الأجواء والصحارى والبحار، وجعلناهم شاكرين لأنعم الله وذاكرين في الأسحار ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من فنون المشتهيات وصنوف المستلذات المستفادة من آثار القدرة أو من الصناعات ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾.

وبعد أن أعلن الله سبحانه وتعالى أنه كرم بني آدم بأمور لا اختيار لهم فيها كحسن الصورة والسيرة وإنشاء العقل فيهم الذي هو ينبوع واصل يتفجر منه فوائد وكمالات لا تحصى بينَ أنه فضلهم وميزهم على كثير ممن خَلَقه باكتساب صناعات وأمور إختيارية لهم فيها الكسب والإختيار. فالتكريم متعلق بمبادئ لا اختيار لهم فيها، والتفضيل مربوط بأمور اكتسابية لهم فيها شأن واعتبار. وأما تقييد المفضل عليه بالكثير فوجهه أنه خلقَ حملة العرشِ على تلك الطاقة العظيمة، وخلق جبريل على تلك القوة الشديدة، وخلق الجن بحيث يتمكن من أعمال شاقة في البر والبحر والجوّ خارجة عن طاقة الانسان الا ترى أن عفريت سليمان قال له: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾؟ وتلك الطاقات أعلى وأقوى وأوسع من طاقة البشر.

ولا يلزم من امتياز البعض من الملائكة والجن على البشر في تلك الأمور زيادتهما على البشر في القدر والمقام عند الله تعالى: فإن الإمتياز الإكتسابي

دون الامتياز الوهبي، فقد جعل الله سبحانه في البشر رسلا هادين مهتدين مرشدين حاملين لأعباء الرسالة وأنوار الجلالة، وخلق لخاتمهم أمة هي خير أمة أخرجت للناس رضي عنهم وأحب أن يرضوا عنه، وخلق فيها أفرادا من العباد تقربوا الى الله مع ابتلائهم بموانع من القوى النفسية الهائلة إلى أعلى درجات القرب بحيث لم يصلها غيرهم. وأما الملائكة فلا يمكن منهم الفسوقُ والفجور، ولا مزية لذات خلقت عاريةً عن الموانع والشهوات أن يُطيع آمرهُ في الإتيان بالأعمال الممتازة من الحسنات. فقول أهل العقائد بتفضيل البشر على الملائكة: خواصهم على خواصهم، وعوامهم العادلين على عوامهم ثابت محقق ولا يعارضه تفضيلهم وتفضيل الجن في بعض الأعمال على البشر. هذا والله الهادي إلى الصواب.

ولما بينَ الله سبحانه وتعالى نعمةُ الموهوبة والمكسوبة على عباده من بني آدم، بين أنهم مع كل تلك النعم المتوفرة انقسموا قسمين بالإجمال؛ فقسمٌ تبعوا أئمة الهدى والكمال، وقسم تبعوا أئمة الغيّ والضلال. فقال: ﴿يَوْمَ﴾ أي أذكر يا حبيبي ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ سواء كان إمامهم إمام هدى، أو إمام ضلال، وينادي المنادي يا أمة آدم، أو نوح، أو ابراهيم، أو موسى، أو عيسى، أو محمد المصطفى صلوات الله عليهم. أو يا أمة عاد، أو ثمود، أو فرعون، أو نمرود، ويا أتباع الأئمة المجتهدين والمرشدين الى طريق الحق واليقين، ويا أتباع الدُّعاة المبتدعة الضالين الخارجين عن الإسلام والدين، فيدعون للميزان والحساب، ويسلم الى كل فرد من أفرادهم صحيفة الأحوال ودفتر الأعمال، مميزين بين السعداء والأشقياء بإعطاء كتاب الأوائل بالإيمان، وكتاب الأشقياء وراء الظهور بالشمال ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ بشروا واستبشروا، وجعلهم الله قارئين، ولو كانوا من الأميين لأن قراءة الإنسان كتاب أعماله بنفسه إعتبار

وعناية ﴿فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ ويقفون على تفصيله، ويستبشرون بما فيه، ويعلمون أنهم أوتوا جزاءً فوق الإستحقاق ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ أي ولا ينقص من أجورهم ﴿فَتِيلاً﴾ أي قدر فتيل، وهو القشر الذي في شق النواة.

وبعد أخذ الكتاب بالإيمان وقراءته وتسليمه لأقرانه ليطلعوا عليه زيادة في الإستبشار، كما قال تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾، ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (9)﴾ وَذَكَرَ مقابله بقوله ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ﴾ أي في هذه الدنيا التي اغترّ بها ﴿أَعْمَى﴾ لا يبصر طريق النجاة ولا يهتدي إلى الحق ﴿فَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ أي وأما من أوتي كتابه بشماله وحوسب حسابا عسيرا فهو الذي كان في هذه الدنيا أعمى وقد علم حاله ومآله. ونسأل الله الرؤوف الرحيم والعفو الكريم أن يدخلنا في زمرة عباده الصالحين وينجينا من عذابه وعسر حسابه، إنه هو الجواد الهادي الى الرشاد الراحم بالعباد في الدنيا والدين. وهذه الآيات البينات كافية لمن اكتفى بالإرشاد، والمرجو منه تعالى شرح الصدور وتيسير الأمور والصيانة عن كل مكروه وفساد إنّه أرحم الراحمين.

قوله تعالى ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن جبير بن نفير أن قريشا أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا له: إن كنتَ أرسلت الينا فاطردِ الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم، لنكون نحن أصحابك! فنزلت أي ﴿وَإِنْ﴾ الشأن قد قرب أن يميلوك عن الذي أوحينا اليك من ملازمة المسلمين الفقراء لرقة قلبك وشدة رغبتك في إيمانهم ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ أي لتتقول علينا غير الذي أوحيناه اليك مما اقترحه عليك بعض من المشركين ﴿وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ أي لو

فعلت ذلك ليتخذنك صديقا لهم ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ﴾ على ما أنت عليه من الحق بحفظنا لك ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ أي ولولا تثبيتنا لك لقاربت أن تميل اليهم شيئا يسيرا من الميل اليسير لقوة خدعهم، وشدة احتيالهم لكن أدركتك العصمة فمنعتك من أن تقرب أدنى الأدنى من الميل إليهم فضلا عن نفس الميل. ﴿إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي ولو قاربت أن تركن إليهم أدنى ركون لأذقناك ضعفا وهوانا. في الحياة بعدم النجاح في مهمة الرسالة وضعفا وهوانا في وقت الممات بعدم اكتراث الناس بوفاتك أو بعد الممات بإصابة ما لا يحمد في البرزخ وما وراءه. وقيل: معناها لأذقناك عذاب الدنيا وعذاب الآخرة مضاعف ما يعذب به غيرك في الدارين، لأن ذنب الكبير أخطر وعقابه اكثر ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ يدفع العذاب أو يرفعه عنك.

روي عن قتادة أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا﴾ الى هنا قال: صلى الله عليه وسلم: ((اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عينٍ))، وينبغي للمؤمن إذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها، وأن يستشعر الخشية وازدياد التصلب في دين الله. ويقول كما قال النبي صلى الله عليه وسلم.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (76) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (77) أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (79) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (80) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81) وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82)﴾

قوله تعالى ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ أي أن المشركين كما قرب أن يستميلوك إليهم ولم ينجحوا في مرادهم كادُوا وقربوا أن يزعجوك ويستخفوك بعداوتهم ومحاولاتهم البائسة اليائسة ليخرجوك من الأرض أي الأرض التي أنت فيها وهي مكة المكرمة الأرض التي أنت أحق بها، لأن فيها بيت العز والكرامة بيت العبادة والطاعة، وبيت الشرف والسعادة، وذلك أول بيت وضع للناس، وأول بيت بني في تلك الديار على التقوى، وحقه أن يكون مقرا لك لانك كنت مقصودا بدعاء أبيك إبراهيم، ومفتاحُ بيتِ الكرامة يُسلم الى الكريم. وكان هذا الإستفزاز بما فعلوه من حصره صلى الله عليه وسلم في شعب أبي طالب والتضييق عليه وعلى أقاربه المختصين به وأتباعه، ووقع ذلك بعد نزول الآية كما في تفسير البحر، وصار سببا لخروجه صلى الله عليه وسلم مهاجرا ﴿وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي وإن استفزوك فخرجت منها لا يبقون فيها بعدك إلا زمانا قليلا. وهذا وعيد لهم بإهلاكهم، وقد كان في بحر عشر سنين.

﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أي سننا سنة من قد أرسلنا وهي أن لا ندع أمةً تستفِز رسولها لتخرجه من بين ظهرانيها تَلبث بعده إلا قليلا. والسنة: سنة الله وإضافتها إلى المرسلين للملابسة ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي ولا تجد لسنتنا تحويلا منا لجريان القضاء بها، ولا من

غيرنا إذ لا قدرة لهم على تحويلها ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أي لزوالها عن خط نصف النهار، ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم أتاني جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ أي الى وقت تقرر ظلمته، وهو وقت صلاة العشاء الأخيرة ﴿وَقُرْآَنَ الْفَجْرِ﴾ أي وأقم صلاة الفجر أي صلاة الصبح. وسميت قرآنا لأنها ركنها، وخص بها لأن وقتها وقت الجهر وفراغ القلب ونشاط الإنسان والصوت إذ ذاك يخرج صافيا وافيا بنزعات الضمير وما أسره الانسان، ولان الوقت مبارك وتجتمع فيه ملائكة الليل وملائكة النهار كما قال تعالى ﴿إِنَّ قُرْآَنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي تشهده الملائكة. والآية الكريمة جامعة للصلوات الخمس المفروضة، فإن زوال الشمس من نصف النهار إلى ظلمة الليل يستوعب الظهر والعصر والمغرب والعشاء وقرآن الفجر صلاة الصبح فهذه الصلوات موجودة ومفروضة في مجموع ذلك الوقت.

وأما تخصيص كل منها بوقتها المحدود فمأخوذ من الإجماع ومن سنة الرسول صلى الله عليه وسلم. فقد روى أبو داود وغيره وصححه الحاكم وغيره أنه صلى الله عليه وسلم قال: أمَّني جبريلُ عند البيت مرتين فصلي بي الظهر حين زالت الشمس، وكان الفيء قدر الشراك، والعصر حين كان ظله (أي الشيء) مثله. والمغرب حين أفطر الصائم (أي دخل وقت افطاره). والعشاء حين غاب الشفق، والفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم. فلما كان الغد صلى بي الظهر حين كان ظله مثله. والعصر حين كان ظله مثليه. والمغرب حين أفطر الصائم والعشاء إلى ثلث الليل. والفجر فأسفر وقال: هذا وقت الانبياء من قبلك. الوقت ما بين هذين الوقتين. وأما الجمع بين الظهر والعصر في وقت أحدهما تقديما أو تأخيرا، وكذلك المغرب والعشاء فإنما أخذ من الحديث الوارد في الموضوع.

والسنة الفعلية وتقريره صلى الله عليه وسلم لأسباب خاصة مذكورة في كتب الفقه في مواضعها المعينة. وأما جمعه صلى الله عليه وسلم بين الظهر والعصر بدون سبب من الأسباب من الخوف والمرض والسفر والمطر فأجاب الفقهاء عنه بأجوبة. منها أن صورته كانت صورة الجمع ولم تكن جمعا في وقت واحد منهما، أي أنه صلى الله عليه وسلم صلى الظهر في آخر وقته، وبعد فراغه عنه مباشرةً دخل وقت العصر وصلاه بلا فصل. وعلى الطالب المراجعة لأماكنها في كتب الفقه والحديث.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ أي وفي بعض أجزاء الليل تجنب النوم واتركه للصلاة حالكونها ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ أي فريضة زائدة على الصلوات المفروضة فضيلة لك لاختصاص وجوبه بك. فالنافلة بمعنى الزائدة على معناها اللغوي. وهذا بناء على أن قيام الليل كان واجبا عليه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم خاصة أمر بقيام الليل وكتبت عليه دون أمته. لكن صحح النووي أنه نسخ عنه فرضية التهجد، ونقله أبو حامد من الشافعية وقال: انه الصحيح. وفي مسلم ما يدل عليه. ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ أي مقاما يحمده كل من عرفه، وهو مطلق يحتمل كل مقام كرامة، لكن المشهور أنه مقام الشفاعة لما روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: ((هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي)) وذلك حين فرض قيام الليل في أول الإسلام قبل فرض الصلوات الخمس، والجمهور على أنه صلى الله عليه وسلم لما جاءه الملك في غار حراء وحاوره بما حاوره رجع الى خديجة رضي الله عنها. فقال: ((زملوني زملوني)) فنزلت ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2)﴾ وعلى أثرها نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ كما سنذكره بالتفصيل إن شاء الله تعالى في تفسير السورتين.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي﴾ أي في القبر ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ أي إدخالا مرضيا ﴿وَأَخْرِجْنِي﴾ أي منه عند البعث ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ إخراجا مرضيا. وقيل: المراد إدخال مكة ظاهرا عليها بالفتح وإخراجه منها آمِناً من المشركين. وقال محمد بن المنكدر: إدخاله الغار قبل الهجرة وإخراجه منه. وقيل: الإدخال في الصلاة والإخراج منها. وقيل: الإدخال في المأمورات والإخراج من المنهيات، وقيل: الإدخال فيما حمله صلى الله عليه وسلم من أعباء النبوة وأداء الشرع وإخراجه منه مؤديا لما كُلّف به من غير تفريط.

وقيل: المراد إدخاله في كل ما يدخل فيه ويلابسه من أي أمر كان وإخراجه منه فيكون عاما في جميع الموارد والمصادر. وقالوا: هذا هو الموافق لظاهر اللفظ والمطابق للمقام. ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ أي حجة تنصرني على من خالفني. وعن الحسن أنه أريد به التسلط على الكافرين. وقيل: أراد به عزا ينصر به الإسلام على غيره سواء كان من الغيب أو الشهادة، بأهل الجهاد بالسيف أو بالحرف. والحق أن المراد من السلطان كل ما يفيده الغلبة على أعداء الله تعالى وظهور دينه ووصفه بقوله نصيرا للمبالغة.

﴿وَقُلْ﴾ مبشرا نفسك وغيرك من الأصحاب بأمر الله تعالى وإذنه ﴿جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي الإسلام والدين الثابت ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ أي زال واضمحل ولم يبق له كيان في جزيرة العرب وسائر البلاد الإسلامية ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي زائلا مضمحلا غير ثابت الآن أو فيما بعد، أو مطلقا لكون الباطل باطلا في الواقع. أخرج الشيخان وجماعة عن ابن مسعود قال: دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة وحول البيت ستون وثلثمائة نُصب فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ وفي رواية الطبراني

في الصغير عن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم جاء ومعه قضيب فجعل يهوي به الى كل صنم منها فيخر لوجهه فيقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ حتى مر عليها كلها.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآَنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وننزل من القرآن المخصوص بالنبي الذي أرسل رحمة للعالمين ما هو شفاء لمرض الكفر والرذائل النفسية بكافة أصنافها ولمرض الجهل البسيط، وهو عدم العلم بالمقصود، والمركب اذا أنصف الجاهل ولم يعاند البديهة، ولسائر الأمراض البدنية من الأعصاب، والأوجاع، والأورام، والحميات، وغيرها... لمن شاء الله أن يكون شفاءً له. فإذا كان المعنى هذا فتكون كلمة من للبيان ومقدمة على المبين لرعاية الفواصل أو للاهتمام بالمقدم. أما شفاؤه لمرض الكفر فظاهر لمن نظر الى كثير من الناس الكافرين الذين أسلموا بمحض استماعه وفهم مدلوله المنبئ عن أسرار الغيب وأنوار الحق، وأما للرذائل فمن جهتين: الأولى جهة كشف أسباب المرض وهي محبة الدنيا والامور العاجلة التي لا قيمة لها، وأن مردها الى الفناء، والثانية أن طاعة الله هي التي تنفع وتبقى عند الله تعالى، وأما للجهل البسيط فيظهر من أن الناس لم يكونوا عالمين بأن الله هو الخالق للسماوات والأرض وما بينهما ومن يعيش فيها، وأن الإنسان والجن مخلوقون للعبادة ونيل السعادة الأبدية الخالدة، فإذا نزل القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم وبلغه الى الامة وانتشر بينهم، وأدركوا معانيه ومقاصده خرجوا من ظلمات الجهل الى أنوار العلم. وأما شفاؤه من مرض الجهل المركب فلأن الإنسان، كائنا من كان إنما يكون معذورا بجهله بالحقائق واغتراره بما يعتقده في نفسه من الدوام أو الخلود أو الإستغناء من غيره، أو عدم المسؤولية إذا لم يسمع الحقائق ولم يعش في المجتمع المكتسب للفوائد والمترقي من البساطة إلى أفق العلم

والرقي. وأما بعد ذلك كله وبعد فهم القرآن ونشر مبادئه واعتناق الناس لها لا يبقى عذر لأي مكلف أن يبقى على فساد اعتقاد ورسوخ عناده، واختيار الضلال في شأن مسؤليته ومعاده. وأما شفاؤه لأمراض البدن فقد ثبت من قراءة أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الفاتحة على اللديغ من الحي الذي مروا عليه وشفائه وتقريره صلى الله عليه وسلم لذلك. وكل آية تقرأ على أي مريض فلها بركة ودخل في شفائه من مرضه، ولاسيما الآيات التي فيها مادة الشفاء وهي ست: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾. ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾. ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾. ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾. ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ قال السبكي: وقد جربت كثيرا، وعن القشيري: أنه مرض له ولد يئس من حياته فرأى الله في منامه فشكا له ذلك، فقال له اجمع آيات الشفاء واقرأها عليه، أو اكتبها في إناء واسقه فيه ما محيت به، ففعل فشفاه الله تعالى. والأطباء معترفون بأن من الأمور والرقي ما يشفي بخاصية روحانية كما فصله الأندلسي في مفرداته. نعم العلماء اختلفوا في جواز نحو ما صنعه القشيري عن أثر الرؤيا وعرفوها بأن يكتب شيء من أسماء الله تعالى، أو من القرآن ثم يغسل بالماء، ثم يمسح به المريض أو يُسقاه. فمنع ذلك بعض من التابعين، وأجازه بعض، وهو الراجح كما في فتح الباري على صحيح البخاري. والنشرة التي منعها صلى الله عليه وسلم ما كان مشتملا على ألفاظ لا يعرف معانيها أو على أسماء الأصنام. وأما ما فيه أسماء الله الحسنى أو الآيات القرآنية الكريمة، ولاسيما ما هي من الآيات الست المذكورة فجائز بلا شبهة. وقال مالك رضي الله عنه: لا بأس بتعليق الكتب التي فيها أسماء الله تعالى على أعناق المرضى على وجه التبرك بها. وما بينته من أن القرآن كله شفاء للمرضى على الوجه المذكور هو الحق.

والإمام الرازي عمم شفائيته، وقد أحسن فقال: هو شفاء للامراض الروحانية، وهي نوعان: إعتقادات باطلة، وأخلاق مذمومة. فلاشتماله على الدلائل الحقة الكاشفة عن المذاهب الباطلة في الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر المبينة لبطلانها يشفي عن النوع الأول من الأمراض. ولاشتماله على تفاصيل الأخلاق المذمومة وتعريف ما فيها من المفاسد والإرشاد الى الأخلاق الفاضلة والأعمال المحمودة يشفى عن النوع الآخر. والشفاء إشارة الى التخلية. والرحمة إشارة الى التحلية. ولان الأولى أهم من الثانية قدم الشفاء على الرحمة. هذا وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ نص في أن القرآن كما أنه عسل لأهل الإنصاف كذلك أسل لأهل الظلم والإعتساف، فإن الدواء إنما ينفع من يشربه لا من يصبه، والظالمون أنفسهم باستمرار العناد لا يهتدون إلى سبيل الرشاد.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (83) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (84) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85) وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (86) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (87) قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (89)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ بيان لنقص الإنسان من ناحية الصفات الفاضلة ويحتاج إلى مدد ومعونة من الله تعالى بتخليته عن الرذائل وتحليته بالفضائل. وذلك موقوف على الإسلام والإنقياد للرسول الكريم في ما جاء به من الله تعالى ويقول: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ أي إنسان كان إلا من تخلى عن الرذيلة وتحلى بالفضيلة، فأعطيناه الصحة والأمن وسعة ذات اليد ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ذكرنا كأنه مستغن عنا من كافة الجهات ﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ أي لوى عطفه عن طاعتنا ولم يهتم بها ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ من مرض أو خوف أو فقر ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ شديد اليأس من رحمتنا، لأنه لم يحسن معاملته في حال الرخاء حتى يرجو الفرج منا ويطلب الخروج من ذلك الشر ويبقى تائها متأثرا الى ان يفرج الله تعالى عنه، أو يبقى على ما كان عليه حتى يلقى ربه. فالدواء النافع للانسان اتباع طريق الرسول الهادي الى الحق بالشكر على النعمة والصبر على النقمة وبذلك يصل الى سعادة الدارين.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ والشاكلة كما في القاموس: الشكل والنية والطريقة والمذهب. وكل من هذه المعاني مناسب للمقام، لأن كل إنسان يعمل على حسب ما يناسب شكله وطبعه ويمارس أعماله على طريقته المختصة به، وهي عبارة عن كيفية استعمال عقله وسائر قواه في سبيل أداء واجباته في حياته وترك المحرمات مع رعاية الشريعة اذا كان من المهتدين، أو بدونها اذا كان من المعتدين، ويجوز أن يراد بالشكل الوارد في معنى الشاكلة الصورة العلمية للمكلف الموجودة في علم الباري تعالى أزلا وأبدا المشابهة للصورة العينية الخارجية بلا فرق. أي أن كلا من المكلفين يعمل على طبق ما تعلق به العلم الأزلي المربوط بالصورة العلمية، فإن الله يعلم أن المكلف الذي سيخلقه ويخرجه من العلم الى العين ماذا يعلم وكيف يصرف إرادته واختياره وماذا يكتسب والعمل بهذا الوجه يحقق الكسب والإختيار، فإن

العلم الأزلي حاك عن المعلوم الخارجي وتابع له، فصح أن كلا يعمل على شاكلته.

ومنهم من فسر الشاكلة بجوهر روحه وأحواله التابعة لمزاج بدنه، أي فمن كان جوهر روحه منورا مشرقا ظهرت منه الاعمال الحسنة، ومن كان جوهر روحه مظلما صدرت منه الاعمال السيئة، ولكن هذا التفسير ليس بمرضي لأنه على ذلك تكون الأعمال تابعة لذلك الجوهر المخلوق كذلك فلا يبقى مجالٌ لتصرف صاحب الروح على خلاف مقتضاه، فإن الماهيات الانسانية متحدة أو مختلفة اذا كانت مطبوعة ومجبولة على الإشراق، أو على خلاف ذلك تكون الآثار الصادرة من لوازم الماهية كالزوجية للاربعة، والفردية للثلاثة، ولازم الذات لا يزول، فالحق في التفسير غير هذا الأخير والله الهادي إلى سواء السبيل ﴿فَرَبُّكُمْ﴾ أي الذي برأكُمْ ﴿أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ أي أحسنُ طريقة وأسلم منهاجا.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ((كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في خرب المدينة وهو متكئ على عسيب، فمر بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه. فسألوه فقالوا: يا محمد ما الروح؟ فمازال متوكئا على العسيب، فظننت أنه يوحى إليه فلما نزل الوحي قال ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الآية...)) وفي السير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قريشاً بعثت النضر بن الحرث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، وقالوا لهم: سلوهم محمداً، فإنهم أهل كتاب عندهم من العلم ما ليس عندنا فخرجا، حتى قدما المدينة فسألوهم. فقالوا: سلوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح. فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبي وإن

أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي فجاؤا وسألوه فبين لهم صلى الله عليه وسلم القضيتين وأَبْهَمَ أمر الروحِ وهو مبهم في التوراة، والآية على هذا مكية، وعلى السابق مدنية. والمقصود بالسؤال الروح الإنساني المتصف بالكمالات العلمية والعملية والقُوَى النفسية على اختلافها وكثير من العلماء قالوا: إنها مباينة للروح الحيواني الذي يوجب الحس والحركة الإرادية، وقالوا: انه جوهر مجرد عن المادة متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف، واستدلوا على ذلك بوجوه:

منها أنها بتعقلها وادراكها للاشياء تكون محلا لما ليس بمادي كالمجردات وللاشياء التي لا تختص بوضع ومقدار كالكليات، ولما لا يقبل الانقسام كالوجود والوحدة والنقطة وسائر البسائط التي إليها تنتهي المركبات، وما كان كذلك لا يكون جسما ولا جسمانيا بل يكون مجردا عن المادة.

ومنها: أنها تدرك ذاتها وآلاتها وإدراكاتها، ولا يلحقها ضعف وكلال بضعف الاعضاء والآلات بل تزداد قوة وكمالا ولا شيء من القوى الجسمانية كذلك.

ومنها أن القوة العاقلة لو كانت في جسم فإما أن يكفي في تعقله له حضوره عنده فلزم أن لا ينقطع تعقلها عنه، وان لم يكف حضوره بل كان الإدراك بحصول الصورة لزم أن لا يحصل لها إدراك له لامتناع تعدد الصور لشيء واحد، فلابد أن تكون جوهرا مجردا عن المادة.

ثم إن من العلماء الذين قالوا بتجردها من قال إن النفوس الانسانية متحدة بالنوع والاختلاف بين أفرادها بالأوصاف والعوارض ولا ينافي ذلك قوله صلى الله عليه وسلم ((الناس معادن كمعادن الذهب والفضة)) لأن اختلاف الأفراد في الأوصاف وصل الى حد كاد أن يلتحق باختلاف في الذات والماهية. ومنهم من يقول إنها ماهية جنسية تحتها أنواع مختلفة تحت كل نوع أفراد

متحدة الماهية متناسبة الاحوال وهذا هو الموافق للحديث الشريف المذكور آنفا، فإن الذهب والفضة نوعان مختلفان من جنس المعدن. وذكر الإمام أن السؤال عن الروح يقع على وجوه كثيرة، وليس في قوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ ما يدل على وجه منها، إلا أن الجواب المذكور في الآية لا يليق إلا بوجهين: الأول أن السؤال عن حقيقتها، والجواب أنها جوهر بسيط مجرد محدثٌ بأمر الله تعالى وتكوينه وتأثيره إفادة الحياة للجسد. والثاني السؤال عن قدمها وحدوثها، والجواب أنها من أمر الله وفعله فهي حادثة. ولا يلزم من عدم العلم بحقيقته المخصوصة عدمه فإن أكثر حقائق الأشياء ماهياتها مجهولة، ولا يلزم من كونها مجهولةٍ نفيُها. ويشير اليه قوله تعالى ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ومبنى هذا أيضا الفرق بين عالم الأمر وعالم الخلق وحاصل الجواب على الثاني أنه حادث حصل بفعل الله تعالى وتكوينه وإيجاده، وجعل قوله تعالى ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إحتجاجا على الحدوث بمعنى أن الأرواح في مبدأ الفطرة تكون خالية عن العلوم والمعارف ثم يحصل فيها ذاك، فلا تزال في تغير من حال الى حال وهو من أمارات الحدوث هذا.

ثم حاصل المعنى: أن الناس يسألونك عن الروح الذي يحيا به بدن الإنسان ويدبره، قل: الروح من الإبداعيات الكائنة بأمر ربي بكلمة كن من غير مادة وتركيب منها، ووجد وحدث بإحداثه وتكوينه، وماهيتها غير معلومة ولا يلزم من عدم العلم به عدم وجوده ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ولو لزم من عدم العلم عدم الوجود لزم أن لا يكون كثيرٌ من الاشياء المحققة موجودة لعدم علمنا بها.

وهنا بحثان: الأول في حقيقة الإنسان، والثاني في حدوث الروح مع البدن أو قبله.

أما البحث الأول ففيه عند المحققين قولان: الأول أن الانسان عبارة عن جسم نوراني حي علوي متحرك مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس سارٍ فيه سَرَيانَ الماءِ في الورد، والدهن في الزيتون، والنار في الفحم لا يقبل التحلل والتبدل، والتفرق مفيد للجسم المحسوس الحياة وتوابعها مادام صالحا لقبول الفيض لعدم حدوث ما يمنع من السريان كالأخلاط الغليظة، ومتى حدث ذلك حصل الموت لانقطاع السريان. والروح عبارة عن ذلك الجسم واستحسن هذا القول الإمام، فقال: هو مذهب قوي شريف يجب التأمل فيه فإنه شديد المطابقة لما ورد في الكتب الإلهية من أحوال الحياة والموت. وقال ابن القيم في كتابه الروح: إنه الصواب ولا يصح غيره. وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة.

الثاني إنه ليس بجسم ولا جسماني وهو الروح، وليس بداخل العالم ولا خارجه لا متصل به ولا منفصل عنه، ولكنه متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف، وهو قول أكثر الالهيين من الفلاسفة. وذهب اليه جماعة عظيمة من المسلمين منهم الشيخ أبو القاسم الراغب الأصفهاني وحجة الاسلام أبو حامد الغزالي وأكثر أهل المكاشفة والرياضة وجمع كثيرون من غيرهم.

واما البحث الثاني أي حدوث الروح مع البدن أو تقدمها عليه: فذهبت طائفة الى حدوثها قبل حدوث البدن منهم محمد بن نصر المروزي وابن حزم الظاهري، واستدل لذلك بما في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم قال: ((الأرواح جنودٌ مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر إختلف)) قال ابن الجوزي في تبصرته: قال أبو سليمان الخطابي: معنى هذا الحديث الإخبارُ عن كون الأرواح مخلوقة قبل الأجساد. وزعم ابن حزم أنها في برزخ وهو منقطع العناصر فماذا استعد

جسدٌ لشيء منها هبط إليه وأنها تعود الى ذلك البرزخ بعد الوفاة. وبعضهم استدل على ذلك بخبر خلق الله تعالى الأرواح قبل الأجساد بألفي عامٍ. وتعقبه ابن القيم بأنه لا يصح إسناده وذهب آخرون منهم الإمام حجة الإسلام الغزالي الى الحدوث بعده. ومن أدلة ذلك كما قال ابن القيم الحديث الصحيح: ((إن خلق ابن آدم يجمع في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح)) ووجه الإستدلال: أن الروح لو كان مخلوقا قبل لقيل ثم يُرْسَل إليه الملك بالروح فيدخلهُ فيه. واختار الجمهور هذا القولَ. وبابُ التأويل والاستدلال مفتوح للفريقين. ولكن الذي يطمئن إليه القلب على ما يستفاد من ظواهر الأخبار، وظاهر قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ القول الأول، وأن الأرواح خلقت قبل الأجساد بمدة يعلمها الله تعالى وحديث خلق ابن آدم يظهر تأويله على أن الله أمر الملك المخصوص الموكل به بأخذ الروح المختص به وربطه بذلك الجسد على وجه يعلمه الله سبحانه وتعالى، ولا نكرةَ في ذلك قطعا. ثم التحقيق أن الروح والنفس الإنسانية شيء واحد وتعدد الأسامي للنفس بحسب استعدادها واتصافها بالقوة الخيرة والشريرة، كما ذكرناه سابقا هذا.

وأما مستقر الارواح بعد مفارقة الابدان، فالذي دلت عليه الأخبار أن مستقر الأرواح بعد المفارقة مختلف؛ فمستقر أرواح الأنبياء عليهم السلام في أعلى عليين. وصح أن آخر كلمة تكلم بها صلى الله عليه وسلم: ((اللهم الرفيق الأعلى)) وهو يؤيد ما ذكر. ومستقر أرواح الشهداء في الجنة، تردُ من أنهارها، وتأكل من ثمارها، وتأوي الى قناديل معلقة بالعرش. وروي في أرواح أطفال المؤمنين ما هو قريب من ذلك. وروى ابن المبارك عن كعب قال: جنة المأوى جنة فيها طير خضر، ترعى فيها أرواح

الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا. ولعل هذا في عوام الشهداء، وما تقدم في خواصهم، أو لعل هذا في شهداء الآخرة كالغريق والمبطون الى غير ذلك.

وأما مستقر أرواح سائر المؤمنين، فقيل في الجنة أيضا. وهو نص الإمام الشافعي، وقد أخرج الإمام مالك عن كعب بن مانك مرفوعا « إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله تعالى في جسده حين يبعثه » ورواه الإمام أحمد في مسنده، وخرجه النسائي عن طريق مالك، وخرجه ابن ماجه، ورواه خلق كثير. وروى ابن منده من حديث أم بشر مرفوعا ما هو نص في أن مستقر أرواح المؤمنين هو مستقر أرواح الشهداء. وقيل: مستقر أرواح الموتى أفنيةُ قبورهم، وحكى هذا ابن حزم عن عامة أهل الحديث. واستدل له بعضهم بحديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ((إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وان كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى)) وبأنه صلى الله عليه وسلم حين زار الموتى قال: ((السلام عليكم دار قوم مؤمنين)) هذا.

ولكن الحق كما أفاده بعض المحققين الأصفياء أن لا تتقيد أرواح الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام بمستقر واحد، لأنهم طُلَقاءُ في الكون تستقر في العرش وفي الجنة وفي أي مكان شاؤا، وأن أرواحهم اينما استقرت فلهم علاقة برقية حضورية بمقابرهم ومشاهدهم، فيخلق الله تعالى فيهم إدراك زوارهم، وأن من سلم عليهم يعلمون بسلامه بإعلام من الله تعالى. ومستوى أرواحهم فوق مستويات الشهداء والصديقين والصالحين، وأن أرواح غيرهم أيضا من السعداء أينما استقرت فلهم علاقة حضورية بمقابرهم، وهذه العلاقة علاقة إستيعابية عامة تشمل كل من زارهم

وأهدى لهم التلاوة، وثوابَ الأعمال على ما قرره المحققون من أنه يصل مثل ثواب ما قرأ لهم من آيات القرآن، وثواب الصدقات التي يتصدق بها لهم بإذن الله تعالى، ويفرحون بتلك الهدايا كما يفرح الأحياءُ من الأحياء بالهدايا والكلمات الترحيبية وما شاكل ذلك. ولا تكن في ضيق صدرٍ مما تلونا عليك فإن رحمة الله وسعت كل شيء وهي مكتوبة للمتقين. وإن شئت أن تحقق ما قلنا فارجع الى محله من كتب المسانيد لاسيما مسند الإمام أحمد رضي الله عنه وكتب الفقه المدونة المعتمدة من المذاهب الأربعة، وخلاصتها الصافية من الأكدار والاضطرابات وعلى ذلك عقيدة الأكثرية الساحقة من أئمة المسلمين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يعني أن هذا القرآن الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين أنزلناه اليك رحمة بك وبأمتك تفضلا واحسانا لا وجوبا وتحتما، ولئن شئنا والله لنذهبن بالقرآن الذي أوحيناه إليك أي لنمحينه من صدور من هو في صدورهم وسطور من هو في سطورهم، ونمنع الملك الجليل جبريل من التنزيل، إذ لا يتنزل الا بأمرنا ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ﴾ أي لهذا القرآن وتنزيله وابقائه عندكم ﴿وَكِيلًا﴾ أي متعهدا وملتزما باسترداده بعد الذهاب بأي وجه من وجوه الاسترداد ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ من ربك تعاونك وتردُّ عليك ما ذهب منك، فإنها تكون وكيلا إعتباريا لك بذلك الأمر الخطير لفضله الشامل وكرمه الكامل، لاسيما بالنسبة اليك ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ﴾ ولم يزل ولن يزال ﴿عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ من كل وجه من وجوه الإصطفاء والتفضيل والتخصيص بالرسالة العامة الخاتمة للنبوة والتنزيل: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ﴾ المنعوت بما سبق له من التوصيف في البيان ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ أو ما يقارب المثل ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ ومُعيناً بكل جهةٍ من جهات المعونة

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ كررنا وغيرنا أسلوب التعبير للناس أهل مكة ومن بلغ ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ المعجز بالبيان والمعاني وبدائع الاستحسان ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي من كل موضوع مهم مرفوع ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ وهم الناسون لحق الله تعالى عليهم ورعاية الحق المطابق للواقع ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ وجحودا بأنعم الله تعالى المتوالية عليه من كل جانب.

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (93) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (94) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (95) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (96)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ تفجر من الباب الأول، والينبوع مصوغ من نبع الماء كيعبُوبٍ من عب الماءُ اذا زَخَرَ وكثُر مَوْجُه، فالباء زائدة فيهما للمبالغة، والمراد بالينبوع عين لا ينضب ماؤها. وعن السدي أن الينبوع هو النهر الذي يجري من العين ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ بستان كثير الأشجار ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ خصوهما بالذكر لإفادتهما القوت والقوة، أو لغلبتهما في بعض أنحاء

الجزيرة ﴿فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ﴾ من باب التفعيل ﴿خِلَالَهَا﴾ أي وسط تلك الجنة فنصبه على الظرفية ﴿تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ﴾ وما يرى فيها من المواد ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ عند التهديد والوعيد ﴿عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ جمع كسفة كقطعة لفظا ومعنى ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ أي مقابلا لنا نرى كلا منهما. وعن ابن عباس رضي الله عنهما تفسير القبيل بالكفيل، أي كفيلا بما تَدَّعيهِ يريدون شاهدا لك بصحة ما تدعي ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ﴾ أي ذهب، أو من مواد ذوات زينة عجيبة ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾ أي تصعد في معارجها ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي لن نستسلم لها ولا نعترف بها ﴿حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ بلغتنا وفيه تصديقك ﴿قُلْ﴾ لهم ردا عليهم وتعجبا من جهلهم بطاقات الرسل: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ عن أن يظهر شيء في ملكه بدون أمره وإرادته ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ كسائر الرسل ليس لهم وظيفة إلّا تبليغ ما نزل عليهم، ولا قدرة لهم على الإتيان بشيء من تلك المقترحات وأمثالها ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ الذين اقترحوا ما اقترحوا ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ إستثناء من أعم الفواعل أي ما منعهم من الإيمان شيء إلا قولهم الفاسد في مقام الإستنكار: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ مستنكرين بعثَ الرسل من البشر الى البشر.

﴿قُلْ﴾ في مقام تحقيق الحق وإزهاق الباطل وأن إرسال الرسل الى بني نوعهم مملوء من الرحمة والحكمة والنعمة: ﴿لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ﴾ بدل البشر ﴿مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ مشيهم ولا يصعدون إلى السماء ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ مقيمين فيها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ من السماء ﴿مَلَكًا رَسُولًا﴾ إليهم من نوعهم يُعلمهم ما لا يصِلُ إليه علمهم وإدراكهم. يعني إن تأييد العقل المادي بالعقل الروحي، وإعانة أهل الشهادة بعلوم الغيب وترقية قلوب الضعفاء القلوب بالمعلومات المهمة من سنة الله تعالى في الكون ولا تجدون لسنته تبديلا. ﴿قُلْ﴾ لهم

بعدما ألزمتهم الحجة وبينت لهم ما يوافق الحق والحكمة ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ بيني وبينكم في تبليغ ما أرسلت به والنصح في أدائه والمداراة معكم بما يمكن مني، فليس على الرسول عتب بعد النصب ﴿إِنَّهُ كَانَ﴾ ولم يزل ولن يزال بعباده ﴿خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ محيطا بظواهر الأعمال وبواطن الحال، وإليه المرجع والمآل.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (98) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (99) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (100)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي أنصارا ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي من دون الله عز وجل ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ عند قيامهم عن قبورهم ﴿عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ أي كائنين عليها إما مشيا بأن يزحفوا منكبين عليها، واما سحبا بأن تجرهم الملائكة منكبين عليها كقوله تعالى ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أي سكن لهيبها ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97) ذَلِكَ﴾ العذاب الشديد المنتقل إلى الأشد عذابهم المقرر لهم على هذا المنهج الذي لا يتبدل ولا يتخفف ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾

البينات النازلة في كلام العليم الخلاق والواضحة بالنظر في أنفسهم أو في الآفاق ﴿وَقَالُوا﴾ في بيان كفرهم: ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ أي عظاما بالياتٍ متفرقات ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ مستأنفا لعالم ثان من الزمان.

ثم يقول الباري جل شأنه مستنكراً إستفهامهم الإنكاري ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي أولئك الكفار المنكرون للبعث والخلق الجديد ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ من الانس والجن حتى يحشرهم ويحاسبهم فيثيبهم أو يعاقبهم. ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾ أي وجعل لإعادتهم بخلق جديد وقتا معينا محدودا ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ولا شبهة في تحققه ووجوده ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ وإنكاراً لتلك الإعادة.

ثم ظاهر الآية الكريمة أن الكفار أنكروا إعادتهم يوم القيامة على معنى جمع أجزائهم المتفرقة وإفاضة الحياة عليها كما كانت في الدنيا فرد عليهم بطريق برهاني هو أن الله قادر على خلق السماوات والأرض، وكل قادر على ذلك قادر على إعادة الأجزاء المتفرقة فيما عدا من أخبرَ الصادقُ بعدم تفرق الأجزاء له بعد الموت كالأنبياء والرسل الكرام، ومن لم يعمل خطيئة قط والمؤذنين احتسابا والشهداء في القتال لإعلاء كلمة الله ونحوهم ممن حُرِمَت أجسادهم على الأرض، وتلك الأجزاء هي الأجزاء الاصلية الحاصلة في أول الفطرة حال نفخ الروح، وهي عندهم محفوظة من أن تصير أجزاءً لبدنٍ آخرَ فضلا عن أن تصير أجزاءً أصليةً له، وذكر المثل إما جارٍ على طريقة (مثلك لا يبخل) أي أنت لا تبخل. أو المراد به المماثلة في التركيب والشكل. وذهب بعض إلى أن الباقي في من عدا من لا يبلى هو عُجبُ الذنب الذي في آخر سلسلة الفقرة الظهرية، ويعاد عليه أمثالُ ما كان موجوداً في أعدل أوقاته في الحياة، والمماثلة ظاهرة بين المخلوق الجديد والمخلوق الفاني، وحقيقة الإنسان هي كما كانت بلا تبدل. ولو نظرنا

الى الأدلة الكثيرة الواردة في أن نشوء أهل السعادة على وجه أحسن وأملح مما كان بحيث يتعجب من حسنه، وأن نشوء أهل الشقاوة على وجه يكون أفظع وبعيدا عن الحسن والملاحة، لقلنا أن الله سبحانه يعيد الإنسان على ما كان يريد أن يعيده بجمع أجزائه الأصلية كلها أو بعضها، وخلق صورة أخرى مثل ما كانت في الدنيا تركيبا، وإن كانت أحسن نضارة ونظارة وجمالا وملاحة، أو كانت أبعد صورة من الجمال والحسن والنضارة بحيث تناسب حال الشقاوة، وذلك يكون موافقا لتلك الأدلة الواردة في الموضوع.

﴿قُلْ﴾ يا أيها المنكرون للرسالة ونزول القرآن على بشر مثلكم يهدي المكلفين إلى الحق والحاسدون على أولئك الناس الموهوبين الذين أنزل الله عليهم رحمته إنما أنتم تقيسون أحوال الغيب على الشهادة، وتنظرون إلى ألطاف الباري على عباده نظركم الى بخلكم بالخير والإحسان والإفاضة، وذلك قياس سقيم عقيم ﴿لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ أي خشية الفقر ونفاد الخزائن، وأما الباري سبحانه وتعالى لو أعطى كل مكلف في الدنيا مقدار ما لا يدخل في العد والإحصاء فهو قادر على ذلك ولا يخشى إقلالا ونفادا، ولذلك خص الأنبياء والمرسلين بهبات كثيرة وعطايا وفيرة، وخص عبده المختار محمداً صلى الله عليه وسلم ببعثه رحمة للعالمين، وإنزال القرآن عليه وإبقاء دينه إلى يوم الدين. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ أي ممسكا بخيلا، وأما الباري سبحانه وتعالى فلم يزل ولا يزال ولن يزال كريماً جليلاً.

﴿وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آَيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (101) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (102) فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (103) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآَخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (104) وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (105)﴾

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آَيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي تسع أدلة واضحات الدلالة على نبوة موسى عليه السلام وصحة ما جاء به من عند الله تعالى. وفي تعيين هذه الآيات التسع أقوال: فمن المفسرين من قال: هي العصا، ثم الضفادع، ثم القمل، ثم موت البهائم، ثم بردٌ كنار أنزل مع نارٍ مضطرمة أهْلكت ما مرت به من نبات وحيوان، ثم جراد، ثم ظلمةٌ، ثم موتٌ عم كبار الآدميين وجميع الحيوانات. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها العصا، واليد، والطوفان، والجراد والقمل والضفادع، والدم والتنين، ونقص من الثمرات. وروي غير ذلك. ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ فقلنا له سلهم عن فرعون ليرسلهم معك، أو سلهم عن حال دينهم ويؤيده قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسال على صيغة الماضي بغير همز وهو لغة قريش. أو فاسأل يا محمد بني إسرائيل عما جرى بين موسى وفرعون إذ جاءهم. ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ أي سُحِرْتَ فتخبط عقلك. ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ردا لقول فرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فرعون ﴿مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ﴾ الآيات التسع أو جنسها ولو في البعض وهذا أظهر، اذ لم تنزل الآيات كلها إذ ذاك ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقهما القادر على

ما أراد حالكونها ﴿بَصَائِرَ﴾ تبصرك صدقي ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أي مصروفا عن الخير.

﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون ﴿أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي يخرج موسى ومن معه من قومه من أرض مصر التي هم فيها ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ أي فعكسنا عليه مكره؛ فإنه أراد إهلاك موسى وقومه وبقاء نفسه وأتباعه من الأقباط فأهلكنا فرعون وقومه ونجينا الآخرين على لسان موسى عليه السلام ﴿وَقُلْنَا﴾ ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد فرعون ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ التي أراد فرعون أن يستفزكم منها وهي أرض مصر، وهذا إن ثبت أنهم دخلوا أرض مصر بعد ذلك أو المراد بالأرض الأرض المقدسة وهي أرض الشام ومعناه حينئذ التمكين من الاستيلاء على الأرض المقدسة والبقاء فيها كما تحققت في زمان يوشع عليه السلام ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآَخِرَةِ﴾ أي وعد الحياة الآخرة أي قيام الساعة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي مختلطين مع من قابلكم وعاداكم حتى تعلموا ماذا نعمل بهم يوم الحساب والميزان والعذاب ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ عاد إلى بيان حال القرآن الكريم بعد بيان أحوال الناس على اختلافها، فقال وبالحق أنزلناه أي أنزلنا القرآن إنزالاً متلبساً بالحكمة والصيانة حتى لا يشوبه مما يخالفه، وبالحق نزل كذلك ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمطيع بالثواب ﴿وَنَذِيرًا﴾ للعاصي بالعقاب.

﴿وَقُرْآَنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (106) قُلْ آَمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (109) قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (110) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (111)﴾

قوله تعالى ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ... ﴾ منصوب على قاعدة الإشتغال، أي وفرقنا قرآنا فرقنا آياته بين أمر ونهي، وحِكمٍ، وأحكام، ومواعظ، وأمثال، وقصصٍ، وأخبار مغيبات أتت... ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ أي على تدريج ومهلة، فإنه أيْسر لفهم المعنى وحفظ المبنى، والإحتواء على أسراره المكنونة، وأحكامه المقصودة ﴿وَنَزَّلْنَاهُ﴾ في مرات كثيرة ﴿تَنْزِيلًا﴾ على حسب الحاجة للجواب عن السؤال، ولبيان أحكام الحرام والحلال والوعد والوعيد في الامتثال والإحتيال ﴿قُلْ﴾ للذين كفروا: ﴿آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ سواء عندنا ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي العلماء الذين قرأوا الكتب السابقة في النزول، وعرفوا حقيقة الوحي وعلموا بنبوتك صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن عليك ﴿إِذَا يُتْلَى﴾ القرآن ﴿عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ يسقطون عليها بسرعة حالكونهم ﴿سُجَّدًا﴾ أي ساجدين لله تعظيما له تعالى، أو شكرا للوفاء بوعده تعالى بإنزاله عليك.

وفسر الخرور للأذقان بالسقوط على الوجوه، والسجود، وإن كان على الجبهة والأنف، لكنه ذكر الأذقان لإفادة المبالغة في سجودهم وتحاملهم على الوجه والأنف أي أنهم يتحاملون على الجبهة والانف بحيث يلتحق بهما الأذقان وتكون مساوية لهما في وقوع الاعتماد عليها. والآية نزلت في عبدالله بن سلام وأتباعه الذين دخلوا في الاسلام بإخلاص تام. ﴿وَيَقُولُونَ﴾

في سجودهم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ أي إنه كان وعده ببعث محمد صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن عليه محققا ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ فرحة بإنجاز الوعد السعيد المفيد لكل مسعود الموصل إلى أهم مقصود ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ بكاؤهم ﴿خُشُوعًا﴾ فإن البكاء إذا كان عن حرارة القلب يجر إلى مزيد من الخشوع، أو يزيدهم القرآن الكريم بسماحهم له خشوعاً لله تعالى.

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا﴾ أيْ أيَّ واحدٍ من الاسمين تدعو ذاته به ﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ روي أنه صلى الرسول صلى الله عليه وسلم ذات يوم فدعا الله تعالى فقال في دعائه: يا الله يا رحمن، فقال المشركون: انظروا إلى هذا الصابئ ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو إلهين، فنزلت. وعن الضحاك أنه قال: قال أهل الكتاب للرسول صلى الله عليه وسلم ذات يوم فدعا الله تعالى فقال في دعائه: يا ألله هذا الاسم فنزلت. والمراد على الأول التسوية بين اللفظين، فإنهما يطلقان على ذات واحدة، وإن اختلف الإعتبار والتوحيد إنما هو للذات الذي هو المعبود المطلق. وعلى الثاني أنهما متساويان في حسن الإطلاق والإيصال الى المقصود. والدعاء في الآية بمعنى التسمية، وهو يتعدى الى مفعولين، حذف أولهما استغناء عنه، و﴿أَوِ﴾ للتخيير، وأيا اسم شرط وتنوينه عوض عن المضاف إليه، و﴿مَا﴾ صلة لتأكيد ما في أي من الإبهام والضمير في قوله ﴿فَلَهُ﴾ راجع إلى المسمى المستفاد من المقام، لأن التسمية له لا للاسم، وكان أصل الكلام: أياما تدعو فهو حَسَن لأن له الأسماء الحسنى أي وكل منها تعبير عن ذات الواحد الواجب الوجود والمغايرة في اعتبار الأوصاف المفهومة منها، أو أياما تدعو فهو حسن لعدم الفرق بالحقيقة بين اسم الله واسم الرحمن، فاستعمال كل منهما حسن تساويا في الإستعمال أو تخالفا

فيه بأن تكثر الأول وتقل الثاني، أي ومادام له الأسماء الحسنى فقل: يا الله أو يا رحمن، أو يا رحيم، أو يا ملك، أو يا قدوس... وهكذا الى آخرها. وهي تسعة وتسعون كما قال صلى الله عليه وسلم: ((إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة)) أي من ضبطها وتلفظ بها وذكر الله تعالى بها مؤمنا بمعناها وثبوتها للذات الجليلة دخل الجنة.

واعلم أن تلك الأسماء، وان كان كلها دالة على ذات الباري تعالى ومتساوية في ذلك، لكن فيها الاسم الأعظم، وفي تعيينه أقوال: روي أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يدعو وهو يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. فقال عليه الصلاة والسلام: ((والذي نفسي بيده لقد سأل الله تعالى باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى)) وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال: ((اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم. وفاتحة آل عمران: الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم)) ونص حجة الإسلام الغزالى في كتابه المقصد الأسني على أن لفظ (الله) أعظم الأسماء التسعة، لأنه دال على الذات الجامعة لصفات الألوهية كلها وسائر الأسماء لا يدل آحادها إلا على آحاد المعاني من علم أو قدرة أو فعل أو غيره، ولأنه أخص الأسماء إذ لا يطلقه أحد على غيره تعالى لا حقيقة ولا مجازا، وسائر الأسماء قد يسمى به غيره عز وجل، كالقادر والعليم والرحيم وغيرها. واسمه تعالى الرحمن لا يطلق على غيره تعالى، وهو من هذا الوجه قريب من اسم الله سبحانه، وإن كان مشتقا من الرحمة قطعا، ولذا جمع عز وجل بينهما في قوله سبحانه ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ إنتهي.

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن حبان وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت ورسول الله مختف بمكة، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع ذلك المشركون سَبُّوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به. فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تُسْمِعُهُمُ القرآنَ حتى يأخذوه عنك ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أي وسطا بين الجهر والمخافتة، وظاهره أن المراد بالصلاة القراءة التي هي أحد أجزائها مجازا. ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما زعمت اليهود والنصارى وبنو مليح، حيث قالوا: عزير ابن الله، والملائكة بنات الله، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا!

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ وهذا رد على الثنوية وهم المشركون في الربوبية. ويجوز أن يكون كناية عن نفي الشركة في الألوهية فيكون ردا على الوثنية. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾ أي ناصر ومانع له عن الذل لاعتزازه بنفسه، أو لم يتخذ وليا يواليه لكونه ذليلا يعتز بمناصرتهم، حيث يستحيل أن يعتريه الذل وهو ذو الجلال والإكرام ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ والتكبير أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال. روى غير واحد أنه صلى الله عليه وسلم كان يعلم الغلام من بني عبد المطلب اذا افصح الحمد لله إلى آخر الآية سبع مرات، وسماها صلى الله عليه وسلم آية العز كما أخرج أحمد والطبراني عن معاذ رضي الله عنهم، وأخرج أبو ليلى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرجت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم ويدي في يده فأتي عَلى رجلٍ رَثّ الهيئة فقال: ((أي فلان ما بلغ بك ما أرى؟)) قال: السقَم والضرّ. قال صلى الله عليه وسلم: ((ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضرّ؟ توكلت على الحي الذي لا يموت، الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً)) الآية فأتى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حسنت حالته فقال: ((مهيم؟)) فقال لم أزل أقول الكلمات التي علمتني.

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الفَرج، والبيهقي في الأسماء والصفات عن إسماعيل ابن أبي فديك، قال قال رسول الله: ((ما كربني أمر إلا مثل لي جبريل عليه السلام فقال: يا محمد قل: توكلت على الحي الذي لا يموت، والحمد لله الذي لم يتخذ ولدا، ولم يكن له شريكٌ في الملك، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا)). وأخرج ابن السني والديلمي عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها: ((إذا أخذتِ مضجعك فقولي: الحمد لله الكافي، سبحان الله الأعلى، حسبي الله وكفى، ما شاء الله قضى، سمع الله لمن دعا، ليس من الله ملجأ ولا وراء الله ملتجا، توكلت على ربي لم يتخذ ولدا، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، وكبره تكبيرا)). ثم قال صلى الله عليه وسلم ((ما من مؤمن يقرأها عند منامه ثم ينام وسط الشياطين والهوام فتضره)). وهذه من المأثورات، ومن قرأها إنتفع بها بإذن الله رب العالمين.

سورة الكهف، مكية، وهي مائة وعشر آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (3) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (4) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (5) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (8)﴾

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ أي كل فرد من أفراد الحمد والثناء الوارد من كل فرد من أفراد الحامدين، أو جنس الحمد وماهيته، أو الحمد المعين المعهود الذي حمد الله تعالى به ذاته

﴿لِلَّهِ الَّذِي﴾ أنعم على أفراد المكلفين وغيرهم بأن ﴿أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ المعين المخصوص المضاف إلى ربه إضافة معنوية ﴿الْكِتَابَ﴾ الكامل الذي امتاز بأن ينزل لاستيعاب أحكام الدين الإعتقادية والعملية الأصلية والفرعية ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ﴾ أي لذلك الكتاب ﴿عِوَجًا﴾ أي شيئا من العوج والاختلال لفظا بمخالفته لأصول الفصاحة ومعنى بمخالفته لاصول البلاغة وتناقض المعنى أو عدم تناسبه مع واقع حاجة المكلفين المنصفين المتصفين بالإعتدال في القوى الثلاث: الشجاعة، والعفة، والحكمة ﴿قَيِّمًا﴾ على سائر الكتب السماوية شاهدا بصحتها، أو قيما على مصالح العباد باحتواء حاجات المعاش والمعاد، وقد أنزله الله تعالى ﴿لِيُنْذِرَ﴾ العباد ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾ صادرا ﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾ على من خالفه بأن كفر به، أو آمن ولكنه خالف أحكامه ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي ويبشر من جمع بين الإيمان به وإطاعة أحكامه ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو نعيم الجنة الخالدة حالكونهم ﴿مَاكِثِينَ﴾ مقيمين ﴿فِيهِ﴾ أي في ذلك الأجر ﴿أَبَدًا﴾ من دون الإنقطاع والإنتهاء ﴿وَيُنْذِرَ﴾ بالأخص الكافرين ﴿الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ كبني حريث المعتقدين بكون الملائكة بنات الله واليهود القائلين بأن عزيرا ابن الله والنصارى المدعين أن المسيح ابن الله تعالى عن ذلك علوا كبيراً.

﴿مَا لَهُمْ بِهِ﴾ أي باتخاذ الولد ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ حتى يكون اعتقادهم ناشئا عن معرفة ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ المؤسسين لهذه الإعتقادات الفاسدة حتى يكون تقليدهم لهم في ذلك تقليدا سديدا رشيدا، وإنما اعتقادهم بذلك سفه على سفه وظلمات بعضها فوق بعض ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي عظمت مقالتهم تلك في الكفر والضلال إذ فيها نسبة غير معقولة وغير مقبولة، حيث لا مناسبة بين واجب الوجود الموصوف بالكمال والممكن المعروف بالنقص والاختلال، حتى يزعم زاعم أن الواجب محتاج إلى هذا الممكن، وأن

التناسل والحاجة إليه موقوف على قبول المحتاج للفناء واحتياجه الى ما يبقى به نوعه، والواجب تعالى حي قيوم لم يزل ولا يزال ولن يزال. وصيغة كبر بضم العين، وكل ما كان على منوالها كظرف، أو محولاً من وزن فعل بفتح العين أو كسرها تفيد المبالغة وتلحق بباب التعجب. ففاعل ﴿كَبُرَتْ﴾ هنا ضمير راجع إلى المقالة السابقة و﴿كَلِمَةً﴾ منصوب على التميز وما بعدها صفتها، أي كبرت تلك المقالة كلمةً تخرج من أفواههم، والعبارة في قوة ما أكبرها كلمةً خارجة من أفواههم، وذلك قول المبرد والأخفش. وأمّا أكثرُ النحاة فعلى إلحاقها بباب نعم وبئس، وأثبت لها جميع أحكامها.

فكبرت هنا بمعنى بئس، وفاعلها راجع إلى التميز بعده، وتخرج صفته على جواز الصفة للتميز أو صفة للمخصوص بالذم المحذوف. وقوله تعالى ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي ما يقولون في ذلك الموضوع إلا قولا كذبا، تصريح بأن الجملة السابقة لإنشاء الذم ولا شيء أحق بالذم من الإفتراء على الله رب العالمين.

وقوله تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ بيان لواقع حال الرسول صلى الله عليه وسلم من تأسفه وتأثره على إصرار المشركين واستمرارهم في الكفر وإنكار ذلك الهادي إلى الصواب وتسليته بما بعدها من بيان فناء الدنيا ورجوع الناس إليه تعالى ويقول له بحسن الخطاب: ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يا أيها الرسول الرؤوف الرحيم ﴿بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ ومهلكها ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾ أي من بعدهم على إصرارهم على الكفر وتوليهم عن الإيمان ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ أي بهذا الكتاب المنزل عليك ﴿أَسَفًا﴾ منصوب على كونه مفعولا له لقوله ﴿بَاخِعٌ﴾ ويقول له ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ﴾ من كل ما يبصر بالعين ويدرك بالعلم ويستخرج ويستفاد منه ﴿زِينَةً لَهَا﴾ تتزين به وتمتاز به من سائر الأشياء يتنعم بها الإنسان ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ ونختبرهم بها

﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا﴾ من تلك الزينة ﴿صَعِيدًا﴾ أي ترابا ﴿جُرُزًا﴾ لا نبات فيه، فمآلها إلى الفناء وبعد فناء هذه الزينة ومن تنعم بها يرجع الكل الى اللقاء والحساب وينال كل ما يستحقه وما أشقى من تعس بالشقاء، وما اَسْعَدَ من سعِد بحسن المواجهة واللقاء.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْـفِ وَالـرَّقِيمِ كَـانُوا مِنْ آيَاتِنَـا عَجَبًا (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَـةُ إِلَى الْكَهْـفِ فَقَـالُوا رَبَّنَـا آتِنَـا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَـدًا (10) فَضَـرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11) ثُمَّ بَعَثْنَـاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (12)﴾

قوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى أنه أنزل القرآن الكريم للإنذار والتبشير وجمع المكلفين على الإيمان بالله وحده، وأن الدنيا وزينتها آيلتان إلى الفناء، وأن الباقي هو الباقيات الصالحات.. أتى بذكر أصحاب الكهف الذين آمنوا بربّهم وتركوا الدار والديار لعبادة الواحد القهار، فعاملهم الله تعالى بالكرامة وذكر آثارهم في العصور مرّ الليل والنهار، وبذكر أصحاب الرقيم الذين ابتلاهم الله تعالى في الغار فنجاهم ببركة أعمالهم الصالحة، وقال ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ والخطاب لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والمقصود جميع المكلفين الفاهمين للآيات. وأم منقطعة مقدرة ببل التي هي للانتقال هنا من غرض لا للإبطال. أي بل أحسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا في بقائهم ونجاتهم وثمرات إخلاصهم عجبا ذات عجب، لا بل كل آية من آياتنا الكونية في أسرارها واتقانها وحكمتها مما يتعجب منه لكن الناس لا يتعجبون إلا مما يخالف العادة المستمرة وإلا فجميعها آيات من مهمات الآيات ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

ثم إن من المفسرين من قال: إن أصحاب الكهف والرقيم عبارة عن طائفة واحدة بدليل أنه بعد أن ذكر الله تعالى أصحاب الكهف لم يذكر عن أصحاب الرقيم شيئا، والمحققون منهم على أن أصحاب الكهف قوم وأصحاب الرقيم جمع آخرون. وقصتهم مروية في الصحيحين وغيرهما فقد أخرج البخاري ومسلم والنسائي وابن المنذر عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر، فَأَوَوا إلى غار، فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدقُ، فليدعُ كلُّ رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه، فقال واحدٌ منهم: اللهم إن كنتَ تعلمُ أنه كان لي أجير عمل على فرق من أرز فذهب وتركه، وإني عمدتُ إلى ذلك الفرق فزرعته، فصار من أمره أني اشتريت منه بقراً، وأنه أتاني يطلب أجره، فقلت: إعمد إلى تلك البقر فَسقْها. فقال لي: إنما لي عندك فرق من أرُزّ، فقلت: إعَمدْ إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفَرَقِ، فساقها! فإن كنتَ تعلم أني فَعلتُ ذلك من خشيتك ففرّج عنا! فانساخت عنهم الصخرة.

فقال الآخر: أللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران، فكنت آتيهما كلَّ ليلة بلبن غنمٍ لي، فَأَبطأتُ عليهما ليلة، فجئت وقد رقدا وأهلي وعيالي يتضاعون من الجوع، فكنت لا أسقيهم حتى يشربَ أبواي فكرهت أن أوقظهما، وكرهت أن اَدَعهما فيستكينا لشربتهما، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا! فانساخت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء.

فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إليّ وإني راودتها عن نفسها فأبَتْ، إلّا أن آتيها بمائة دينار، فَطَلَبتُها حتى قَدرْتُ فَأتَيتُها بها، فَدفَعتُها إليها فأمكنتني من نفسها، فلما قعدت

بين رجليها، قالت اتق الله تعالى ولا تَفُضّ الخاتم إلا بحقه!
فقمت وتركت المائة دينار، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من
خشيتك فَفرج عنا! ففرج الله تعالى عنهم فخرجوا)). وروي
نحو ذلك عن ابن عباس وانس والنعمان بن بشير، كلّ يرفعه
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والرقيم على هذا بمعنى محل في الجبل. وقيل: بمعنى
الصخرة. وقيل بمعنى الجبل. ويكون ذكر ذلك تلميحا الى
قصتهم وإشارة الى أنه تعالى لا يضيع عمل أحدٍ خيراً أو شرا.
ذلك أصحاب الرقيم كما في الصحاح.

وأما أصحاب الكهف فهم كما في الآية الكريمة فتيةٌ شبابٌ،
وكانُوا من أشراف الروم أرادهم (دقيانوس) على الشرك فأبوا
وهربوا خوفاً منه الى الكهف كما قال سبحانه وتعالى ﴿إِذْ أَوَى
الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ واتخذوه مأوى وملجأ لهم. والفِتية جمع قلةٍ
لفتىً ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آَتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي رحمة عظيمة
بالستر والصيانة عن الملك وأتباعه في الدنيا وبالعفو والمغفرة
والدرجة في الآخرة ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ الذي نحن عليه من
مهاجرة الملك وأعوانه الكافرين ﴿رَشَدًا﴾ أي إصابة ووصولا
الى الطريق الموصل الى المطلوب ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آَذَانِهِمْ فِي
الْكَهْفِ﴾ أي فجعلنا على آذانهم سترة وحجابا مانعا من استماع
الأصوات وانَمناهُم براحة وهدوءٍ ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ أي سنوات
متعددة أي ذوات عدد كما يأتي في الآية.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ملكا من الملوك يقال
له (دقيانوس) ظهر على مدينة من مدائن الروم يقال لها
(أفسوس) وقيل: هي (طرسوس) وكان بعد زمن عيسى عليه
السلام. فأمر بعبادة الأصنام، فدعا أهلها إلى عبادتها، وكان بها
سبعة أحداث يعبدون الله تعالى سرا، فرفع خبرهم الى الملك
وخافوه فَهَربوا ليلاً، ومروا براع مَعَه كلب

فتبعهم، فَأَوَوا الى الكهف، فتبعهم الملك إلى فم الغار فوجدَ أثرَ دخولهم ولم يجد أثرَ خروجهم، فدَخَلوا فأعمى الله أبصارهم فلم يرَوا شيئا هذا.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي أيقظناهم من منامهم ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ أي منهم وهم القائلون لَبثنا يوماً أو بَعْضَ يومٍ، والقائلون ربكم أعْلَم بما لبثتم ﴿أَحْصَى﴾ فعل ماض أي ضبطاً، وفاعله ضمير راجع الى أي، وما في قوله تعالى ﴿لِمَا لَبِثُوا﴾ مصدرية والجار والمجرور حال مقدم عن قوله تعالى ﴿أَمَدًا﴾ وهو مفعول أحصى ماضي افعال. والأمد الزمان المحدود. وقيل: أحصى اسم تفضيل من الإحصاء بحذف الزوائد بناء على ما اختاره سيبويه من جواز بناء أفعل التفضيل والتعجب من المزيد بحذف الزوائد، أي أكثر جمعاً وضبطاً له. وأمَداً نصب بفعل دل عليه أحصى لا به لأنه لا ينصب المفعول به إلا على قول ضعيف، ويجوز أن يكون نصبه على كونه تميزا.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آَمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (14) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (15) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا (16) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آَيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (17) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (18)﴾

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي نحكي لك خبرهم وما كان منهم بالوجه المطابق للواقع: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ جمع فتِىٍّ كصبي وصبية ﴿آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ بالتثبيت ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قوينا قلوبهم حين قاموا بين يدي الملك وعارضوه وقالوا ربنا رب السماوات والأرض وحده لا شريك له ﴿لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ لا بالإستقلال، ولا مع الخالق المعبود الموصوف بالكمال ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ أي والله إذا دَعونا من دونه إلها قد قلنا قولاً ذا شطط وبعد عن الحق مفرطٍ في التجاوز على حق الربوبية ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ على وجه السفه ومخالفة الحق بدون أي دليل ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ﴾ أي على عبادتهم ﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ بدليل واضح يفيد مدعاهم الفاضح، فإن الإعتقاد بدون دليل يهدي للرشاد فساد ما وراءه فساد ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك أو الشركاء إليه.

ولما قاموا وقالوا ذلك أمْهلهم الملك مدةً وجيزة لإعادة النظر في أحوالهم ولما خرجوا من عنده تشاوروا فيما بينهم بأنهم إذا بقوا عند الملك والقوم المشركين صاروا من الهالكين وقالوا ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي وإذا اعتزلتموهم وعبادتهم الإشراكية الفاسدة ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ تختفوا عن أعينهم وان احتجتم الى الطعام والشراب أو الى مخرج

من الاعداء ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ من كل الجهات ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا﴾ ما ترتفقون وتنتفعون به بحيث لا تقعون في عسر لا يطاق، فإن الله وعدَ من هاجر اليه بالسعة في المعيشة، والبسط في الحال، والسعادة في المآل.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ﴾ أي تعدل وتتجاوز عنهم. والفجوة: المتسع والمحل الواسع. وبيان الآية الكريمة: أن الكهف كان بحيث قابل بابه بناتِ النعش الصغرى التي فيهن كوكب القطب المسمى بالجدي، وأقرب المشارق الى محاذاته مشرق رأس السرطان ومغربه. والشمس اذا كان مدارها مداره طلعت مائلة عنه مقابلة لجانبه الأيمن، وهو الذي يلي المغرب وغربت محاذية لجانبه الايسر، وهو الذي يلي المشرق فيقع شعاعها على جنبه وتحلل عفونته وتعدل هواءه، ولا تقع عليهم فتؤذي أجسادهم، وتبلي ثيابهم، ولعل ميل الباب الى جانب المغرب كأن اكثر، ولذلك وقع التزاور على كهفهم، والقرض على أنفسهم. وقال الزجاج: ليس ذلك لما ذكر بل لمحض صرف الله تعالى الشمس بقدرته عن أن تصيبهم على منهاج خرق العادة كرامة لهم واحتج عليه بقوله ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي ذلك الوضع الثابت للشمس بالنسبة اليهم من آيات قدرة الله تعالى ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ أي إلى الإيمان بها ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ﴾ ولم يؤمن بها ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ يهديه الى الحق ويخلصه من الضلال.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾ أي أصحاب الكهف ﴿أَيْقَاظًا﴾ أي غير نائمين لانفتاح عيونهم على هيئة الناظر ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ أي والحال أنهم رقود أي نائمون حقيقة ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي ونقلبهم في حال رقدتهم إلى جهة أيمانهم ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ الكلب هو الحيوان المعروف.

والذراع من المرفق الى رأس الاصبع الوسط. ﴿ذِرَاعَيْهِ﴾
منصوب على أنه مفعول به وعمل فيه ﴿بَاسِطٌ﴾ مع أنه اسم
فاعل بمعنى الماضي لأن المراد هنا حكاية الحال الماضية
فكأنه يراد به الحال و﴿الْوَصِيدِ﴾ موضع الباب ومحل العبور من
الكهف. وقوله ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي لو عاينتهم وشاهدتهم،
وأصل الإطلاع الوقوف على الشيء بالمعاينة والمشاهدة.
وقوله ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ أي لأعرضت بوجهك عنهم فارّاً
﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أي لملئت منهم خوفا يملا الصدر. ونصب
رعبا على أنه مفعول به ثان، والمفعول الأول صار نائبا
للمفاعل بعد تحويل الفعل الى المجهول. وحاصل المعنى أنهم
كانوا في الكهف نائمين على شكل خاص، وكلبهم في معبر
الكهف موجود متيقظ للحراسة. وهيئتهم من كثرة الشعور
والمنام على وجه قرب بعضهم من بعض في ذلك المحل كانت
مخوفة مدهشة، فكنت لو شاهدتهم فيه أيها المشاهد لأعرضت
عنهم دهشة وقلقا، ولملئت منهم رعبا وخوفا، وكنت تلوذ
بالفرار من المحل.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا
لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ
بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ
بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (19) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا
عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (
20)﴾

قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ أي وكما أنمناهم
في الكهف بعثناهم فيه من المنام والغاية المترتبة على البعث
أشياء، منها: أنه

يسأل بعضهم بعضا عن مدة منامهم ولبثهم في الكهف، ليترتب عليه ما فصل من الحكم البالغة ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ هنا والسائل كبيرهم مكسلينا.

﴿قَالُوا﴾: أي قال بعض منهم في الجواب ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ والمراد أنه لم يتحقق لنا مقدار لبثنا، أي لا ندري أن مدة ذلكَ هل هي مقدار مدة يوم أو مقدار مدة بعض يوم منه.
والظاهر أن هذا القول المردد فيه كان في أول انتباههم قبل أن تزول عنهم غفلة النوم حتى ينظروا الى الأمارات الدالة على الوقت المحدد ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أي وقال بعض آخر منهم بعد النظر إلى الامارات الدالة على طول مدته من طول الاشعار وتغير وضع المحل القول المذكور، أي انتم لا تعلمون مدة لبثكم والعلم عند الله تعالى.

وبعد أن ظهر لهم أن المدة غير معلومة وكانوا في حال المنتبه المتأثر بطول الزمان من الجوع ورخاوة الجسد والحاجة الى المعونة ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ المعهودة لنا التي خرجوا منها. ويقال أنها كانت مدينة طرسوس في محافظة الاسكندرونة القريبة من (سورية). والورق الفضة مضروبة أو غير مضروبة ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ أي أنظف على أصول الدين، وأطيب من حيث الطراوة ﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ أي من نوع ذلك الطعام الأزكى ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي وليبالغ في لطف الكلام ولين الجانب وإعطاء البدل ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أي لا يفعلنَّ ما يُؤدى الى شعور الناس بكم وبأنكم من أهل المدينة ومن المختفين عن الملك ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي يطلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم وأنتم أولئك الناس المخالفون لقوانين ذلك الوقت ﴿يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أي جعلوا شأنكم دائراً بين أحد أمرين لا ثالث لهما وهو: إما الرجم بالحجارة حتى تموتوا، او الإعادة وإرجاعكم الى ملتهم التي هي عبادة الأصنام ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ أي إن عدتم الى ملتهم بعد أن خلصتم منها لن تفوزوا

بفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة ولأنكم، وإن عدتم اليها بالإكراه، لكنه بعد ذلك تستحسنون ما هُم عليه، واستحسان الكفر كفرٌ بواحٌ مانع عن الفلاح، أما في الدنيا فلذهاب أعماركم في الكهف وورود الخزي عليكم خزياً تأريخيا يوجب ذكركم بالسوء مادامت الدنيا باقية. وأما في الآخرة فلموتكم على الكفر وابتلائكم بالنار فلا مآل لكم إلا العارُ والنارُ.

﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (21) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (22) وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (24) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (25) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (26)﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي وكما نجيناهم من الملك القاهر وآويناهم الى الكهف، وحفظناهم فيه من المؤذيات، وأنمناهم المدَّة الطويلة وبعثناهم لتزداد بصيرتهم وقوة إيمانهم بربهم ﴿أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ الناس وأطلعناهم

عليهم ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ أي ليعلم أهل المدينة الذين اطلعوا عليهم ﴿أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث بعد الموت حق ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ لأن استنكار البعث انما هو استنكار لأمرٍ بعيد حسب العادة. وتلك الأحوالُ الواردة على أولئك الأصحاب الفارين بدينهم من قدرتهم على معارضة الملك، وخلاصهم منه، وفرارهم الى الكهف، وصيانتهم من اتباع الملك وسترهم عنهم، وصيانتهم في ذلك الكهف، وإنامتهم تلك المدة الطويلة بلا عروض فساد في أجسادهم، ولا غلبة السباع والحشرات عليهم... كل ذلك أمر بعيد في مجاري العادة ومستنكر الوقوع، لاسيما إنا متهم تلك المدة وصيانتهم من العوارض. وقوله تعالى ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ﴾ ظرف لقوله ﴿أَعْثَرْنَا﴾ أي أعثرنا الناس وأطلعناهم عليهم وكشفنا لهم بعض أحوالهم حين يتنازعون ﴿بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أي أمر دينهم ومآل حالهم عند البعث والنشور. فمنهم من يقول المعاد روحاني فقط ولا تعاد الأجساد معها، فيكون عالم الآخرة كعالم الرؤيا في النوم فبعض الناس في راحة وبعضهمٍ في عذاب وبعضهم يقول: المعاد روحاني وجسماني معاً.

ولما علموا بأحوال أصحاب الكهف وأنهم انتبهوا بعد النوم في المدة الطويلة بلا خلل وملل علموا أن البعث في الآخرة يكون بالأرواح والأجساد، وأن عالمها عالمٌ جسماني وروحاني عينيّ خارجيّ أو يتنازعون بينهم أمر أولئك الفتية الفارين بدينهم الى الجبال والكهوف فهل سترهم الله وحفظهم من ذلك الملك الظالم وماذا جرى عليهم في الكهف هل ماتوا هناك وتفتتوا وتمزقت أجسادهم أو حفظهم الله تعالى بوجه من الوجوه التي أراد أن يلطف معهم بها؟ فلما أعثرناهم على أحوالهم علموا أن تلك الواقعة كانت واقعية، وأنهم دخلوا الكهف وكفاهم ربهم بكفايته ووقاهم بوقايته وحفظ أجسادهم في منامهم الطويل، ثم بعثهم على الصحة الإعتيادية حتى يتبينوا أن وعد

الله بالبعث والنشور والساعة حق لا ريب فيه، وأن الله على كل شيء قدير أو يتنازعون فيهم بعد الإطلاع على أحوالهم وموتهم ثانية فقالت طائفة نبني عليهم بنيانا يسكنه الناس فيصير المحل قرية عامرة على تلك الذكريات الحسنة. وقال آخرون لا بل نتخذ عليهم مسجدا ليسكن فيه من أرادَ السكون فيه ويعبد ربه كما قال تعالى ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا﴾ وقوله ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ جملة معترضة وهي إما قول الله تعالى ردا على الخائضين في أمرهم من أولئك المتنازعين، أو من المتنازعين فيهم في زمانهم أو من المتنازعين فيهم على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم.

حكي أن المبعوث لما دخل السوق وأخرج الدراهم وكان عليها اسم (دقيانوس) اتهموه بأنه وجد كنزاً فذهبوا به إلى الملك، وكان نصرانيا موحداً، فقص عليه القصص. فقال بعضهم: إن آباءنا أخبرونا أن فتية فروا بدينهم من دقيانوس فلعلهم هؤلاء، فانطلق الملك وأهل المدينة من مؤمن وكافر وأبصروهم وكلموهم. ثم قالت الفتية للملك: نستودعك الله ونعيذك من شر الجن والإنس، ثم رجعوا الى مضاجعهم، فماتوا فدفنهم الملك في الكهف وبنى عليهم مسجدا. وقيل: لما انتهوا إلى الكهف قال لهم الفتى مكانكم: حتى أدخل أولا لئلا يفزعوا، فدخل فعمى عليهم المدخل، فبنوا ثم مسجدا على حسب غلبتهم على أمرهم وتنفيذ ما أرادوه من بناء المسجد، لأن معنى غلبتهم على أمرهم أنهم إذا أرادوا أمرا لم يتعسر عليهم ولم يحل بينهم وبينه أحدٌ. كما يقال في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ﴾ مصدراً بسين الاستقبال دليل على أنه قول الخائضين في قصتهم في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى ومن له شأن في ذلك الموضوع ﴿ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي

هم كانوا ثلاثة رجال ويربعهم كلبهم بانضمامه إليهم، والقائل بهذا من اليهود. وقيل: هو قول رئيس من نصارى نجران وكان يعقوبيا.

﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ والقائل بهذا من النصارى أو قول العاقب منهم وكان نسطوريا ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ منصوب على المصدرية، أي ويرمون بالخبر رميا بالغيب وهذه الجملة استعارة للتكلم بكلام لم يطلع عليه المتكلم لخفائه وعدم كشفه للحقيقة فيه، وأصله هو الرمي بالحجارة التي لا تنفذ ولا تصيب غرضا ومرمى لعدم معرفة راميها بالهدف، أو بكيفية الرمي المصيب وحاصله أن القائلين لم يكن لهم مستندٌ في قولهم وتعقيب القولين بذلك يدل على أنه لا أصل لهما ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وهذا قول المسلمين على استناد إخبار الرسول صلى الله عليه وسلم لهم من جبريل عليه السلام، فيكون هو القول الحق ويزيده قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ بإسناد العلم الى القيل بعد رفض قول الفرقتين السابقتين بقوله ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ والله أعلم بحقيقة الحال ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أي ولا تجادل في شأن الفتية وعددهم أولئك الناس الجاهلين بالحقيقة المتكلمين رجما بالغيب إلا جدالا بسيطا بدون اهتمام به، فإنهم مصرون على مزاعمهم وظنونهم، والظن لا يعني من الحق شيئا ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ ولا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤال مسترشد، فإن فيما علمت من أحوالهم لكفاية.

وقوله ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ نهي تأديب من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم عن ترك الاستثناء في ما يقول أنه يفعله في المستقبل. أي لا تقل ذلك الكلام الا مقيدا بقولك ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ مثلا لأن تركه كان السبب في تأخر الوحي عنك عندما سألتك قريش بإيعاز اليهود عن الروح، وأصحاب الكهف وذي القرنين، فقلت ائتوني

غدا فأخبركم وما استثنيتَ، ولو قلت إن شاء الله لأتاك الوحي مستعجلا. فقوله تعالى ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إستثناء من النهي أي انت منهي عن ذلك القول كل وقت الا وقت تقييده بقولك إن شاء الله.

وأما إذا كان استثناء من قوله ﴿فَاعِلٌ﴾ باعتبار ظرفه أي ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فإن أردت مقارنة المشيئة لفعله أي إني فاعل ذلك غدا إلا إذا قارنت مشيئة الله لذلك الفعل فيكون المعنى باطلا، إذ كيف لا يفعله إذا اقترنت به مشيئة. وإن أردت معارضة المشيئة له ومنعها عنه، أي إني فاعل ذلك غدا إلا أن عارضت ومنعت مشيئته تعالى ذلك فالمعنى صحيح لكنه لا مجال للنهي عن التكلم بكلام كذلك.

وقوله تعالى ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي واذكر مشيئة ربك ﴿وَقُلْ﴾ إن شاء الله بعد صدور ذلك الكلام عنك إذا نسيت التقييد به معه، ولو بعد زمان وذلك لرعاية الأدب وملاحظة أن حدوث الحوادث موقوف على مشيئة الله تعالى وإرادته لها. وأما بالنسبة إلى كونها قيدا معتبرا في العقود والحلول والأقارير والاحلاف فالجمهور على أنه يشترط فيه شيئان: الأول نيته قبل انتهاء الكلام. والثاني اتصاله به عرفا. وما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما من جواز تأخيره عنه، ولو زمانا طويلا، فالجمهور على خلافه، إذ لو جاء ذلك لم يتقرر شيء مما مر الى أن يموت أصحابها لجواز إتيانهم به بعده إلى الممات. وقل ﴿عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ أمر الله سبحانه وتعالى حبيبه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يتكلم بكلام فيه رجاء لإعلاء شأنه أكثر ولزيادة علمه أوفر بأن يقول صلى الله عليه وسلم عسى أن يهدين ربي ويوفقني لشيئ يكون أقرب وأظهر فائدة للأمة المحمدية من نبأ أصحاب الكهف، فإنه لا يزيد على بيان إخلاص فتيةٍ في دينهم وتوحيد الله سبحانه وفرارهم بدينهم إلى الكهف. والله

سبحانه وتعالى يوحي إليك الشرائع والأحكام والإستعداد للجهاد في نشر الإسلام، ويزودك بالإطلاع على حوادث كانت أو ستكون في مستقبل الأيام، فليس مستوى رسالتك العامة الخالدة الوقوف مع الجواب عن عدة أسئلة لا قيمة لها بالنسبة إلى ما أنت عليه من المهام.

ثم استأنف الباري لبيان مدة لبثهم أحياء نائمين في الكهف لأنها هي النقطة الوحيدة الخارقة للعادة في القصة فقال ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ وهذه الآية جملة مستأنفة مبينة للإجمال في قوله تعالى ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ يعني إن مدة الضرب على آذانهم هذه. قالوا ووجه العدول عن العبارة المعتادة وهي ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة وتسع سنين مع أنه أخصر وأظهر.. الإشارة إلى أن المدة بحساب السنة الشمسية ثلاثمائة سنة وباعتبار السنة القمرية ثلاثمائة وتسع.

والإعتراض على ذلك بأن السنة الشمسية ثلاثمائة وخمس وستون يوما وخمس ساعات وتسع وأربعون دقيقة على مقتضى الرصد الإيلخاني، والسنة القمرية ثلاثمائة واربعة وخمسون يوما وثمان ساعات وثمان واربعون دقيقة، فيكون التفاوت بينهما عشرة أيام وإحدى وعشرين ساعة ودقيقة واحدة. وإذا كان هذا تفاوت سنة كان تفاوت مائة سنةٍ ألف يومٍ وسبعة وثمانين يوما وثلاث عشرة ساعة وأربع دقائق، وهي ثلاث سنين وأربعة وعشرون يوما واحدى عشرة ساعة وست عشرة دقيقة. فيكون تفاوت ثلاثمائة سنة تسع سنين وثلاثة وسبعين يوما وتسع ساعات وثمانياً وأربعين دقيقة. أي واذا أعتبر هذا سنين شمسية كان تسع سنين إلا أربعة وعشرين يوما وإحدى عشرة ساعة واحدى وعشرين دقيقة.. مدفوع بأن: الخلل في حساب الرصد لا في حساب الصمد. أو أن الكلام مبني على المسامحة بتلك الدقائق والساعات والأيام، ومثل ذلك جار متعارف بين الأنام. وقال

بعض: بأن التفاوت نشأ من اختلاف قول المتنازعين في أمرهم، فمنهم من قال: مدة لبثهم في الكهف ثلاثمائة سنة، ومنهم من قال ثلاثمائة وتسع سنين أي ازدادوا تسعا على قول الأولين.

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ ولذلك أخبر عنهم بقوله ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾ الآية ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي له العلم بما غاب فيها وخفي من الأعيان والأعراض وحدوثها وبقائها فلا تخفى عليه خافية ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ صيغة من صيغتي التعجب، أي ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله لا يقدرُ أحدٌ أن يحيط بإحاطة سمعه تعالى بالمسموعات واستيعاب بصره للمبصرات، صورتها الأمر ومعناها الخبر، والضمير المجرور عائد إلى الله تعالى، ومحله الرفع على الفاعلية، والباء مزيدة، وأصلها أبصر وأسمع من باب الإفعال، أي كان ذا بصر وسمع، ثم تحول إلى صورة الأمر بمعنى الإنشاء فأبرز الضمير المستتر لعدم قابلية الصيغة له ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ أي ليس لأهل السماوات والأرض من دون الله تعالى ولي يتولى أمورهم ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ﴾ أي في تنفيذ قضائه أحدا فهو المشرع وهو المنفذ في الكائنات.

ثم لما كان الوافي بجواب سؤال السائلين هو القرآن الكريم الذي أظهر ما في الغيب من القصص وجاء عليه بنص، وتبين عظمته وأخباره بالمغيبات بحيث اندهشت منه عقول العقلاء.. رغب الله تعالى حبيبه في تلاوته وملازمته والاعتماد على ما فيه بصفة أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقال مخاطبا حبيبه الكريم:

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (27) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28) وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (29) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (30) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (31)﴾

قوله ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ أي اعتمد على مولاك الذي اصطفاك وأنزل عليك كتابه ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ واحفظه واعمل به وبلغه المكلفين من عباده، فإن تلاوته عبادة، والعمل به سعادة، وتبليغه الى عباده أجر ومثوبة وزيادة ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ لا أحد يقدر على تبديلها غيره ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي من دون الله ﴿مُلْتَحَدًا﴾ أي ملتجأ تلتجئ اليه للصيانة عن شره، كما لا مترجى غيره لنيل خيره ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي واحبس نفسك وثبتها وقررها في المساجد والمعابد وفي السفر والحضر مع المسلمين الذين يدعون ربهم لطلب خيره والهرب عن شره، ولا يدعون غيره.

أو يعبدون ربهم بالغداة والعشي كناية عن استيعاب الأوقات، أو عبارة عن طرفي النهار، ويشمل الدعاء والعبادة فيهما الصلوات المفروضة، فإنّ صلاة الصبح غدائية والصلوات الاخرى عشائية. ويريدون وجهه حال عن فاعل الجمع المذكور المشكور، أي حالكونهم يريدون بطاعتهم رضاء ذاته واستجلابَ هِباته والاستنارة بتجلياته ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ نهي العين عن التجاوز إلى الغين، والمراد نهي عينِ الأعيان أعني الرسول صلى الله عليه وسلم أي لا تتجاوز يا حبيبي عنهم إلى النظر إلى من لا يهمهم إلّا شهوات بُطونهم وفروجهم حالكونك ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ وأمِنَ مكرنا ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ وتركَ طريقَ هُداه ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ مصدر سماعي لفرطٍ وهو تجاوز الحد أي وكان أمره تجاوزاً عن أمر الله وإسرافاً في المال والحال وضياعا للحال والمآل.

والآية نزلت في عُيينة بن حصن الفزاري وأتباعه، أتى النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يُسلم وعنده جماعة من الفقراء، منهم سلمان، وعليه شملة صوف قد عرق فيها، وبيده خوص يشقه وينسجه. فقال عُيينة للنبي صلى الله عليه وسلم أما يؤذيك ريح هؤلاء؟ ونحن سادات مُضرَ وأشرافها إن أسْلمنا تسلم الناس وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاءِ، فَنحهم عنك حتى نتبعك أو اجعل لنا مجلسا ولهم مجلسا. وقد أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وكان في حُنين من المؤلفة قلوبهم فأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم منها مائة بعير، وكذا أعطى الأقرع بن حابس وأعطى العباس ابن مرداس أربعين بعيرا. وقيل: نزلت في أصحاب الصُّفَّة وكانوا سبعمائة رجل فقراء في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخرجون إلى تجارة ولا زرع ولا ضرع يصلون صلاة وينتظرون أخرى،

فلما نزلت قال النبي صلى الله عليه وسلم: الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرت أن اصبر نفسي معهم.

﴿وَقُلِ﴾ له ولمن معه ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي من القرآن الحق نازل من ربكم، أو الأمر الحق ما يكون من جهة الله لا ما يأتي من الهوى واتباع الشهوات النفسية، ولا تطرد أحداً من عباد الله المسلمين لا فقيراً ولا أميراً لا صغيراً ولا كبيراً ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ﴾ فإن ايمانه ينفع نفسه ﴿وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ فإن كفره يضر نفسه ولا تبال بأحد الجانبين إلا بقدر ما يخصك في الدين، إلا أنه قرر الله سبحانه وتعالى جزاء وفاقا للفريقين كما قال ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أي هيأنا لهم ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي دخانها ولهيبها الشبيه للفسطاط أي الخيمة يعني أنهم يعذبون في نار أحاط بها اللهيب والدخان كالخيمة المحيطة بمن فيها ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ من العطش بالزبانية ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ أي دردي الزيت وخلطه ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ من فرط حرارته عند أخذه لشربه وقربه منها ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ المهلُ ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي شيئا يرتفق به ويستراح به هذا جزاء الفريق الثاني.

وأما جزاء الفريق الأول فهو ما أفاده بقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ خبر إن، والموصول لعمومه قائم مقام العائد، أي أجرهم وأجرهم هو المبين بقوله تعالى ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ أي يتحلون فيها ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ هي ﴿مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ لأن الخُضرة تزيل الحزن كالماءِ والوجه الحسن وعندهم الأنهار الجارية والحورُ العينُ التي تجري فيها الصفاء كاللآلئ العارية، وتلك الثياب الخضر ﴿مِنْ سُنْدُسٍ﴾ الرقيق من الديباج ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ الغليظ منها في النساج حالكونهم

مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ جمع أريكة بمعني السرير حتى يسروا بنظرهم إلى حورهم متقابلين نِعْمَ الثَّوَابُ ثوابهم وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا مرتفقاتهم.

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (32) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (33) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (34) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (38)

قوله تعالى: وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أي واذكر للمؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي حتى يتأكدوا على مثوبتهم الحسنى، أو للكافرين الذين لا يؤمنون بالله لعلهم يتذكرون ويتعظون فيتوجهون إلى الله ويتوبون اليه، فاذكر لهم للغرض المذكور مثلا وأبدل عن المثل رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ أي جعلنا النخل محيطة بهما مطبقة بجانبيهما وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا أي وجعلنا وسطهما زرعاً لإضافة الأقوات إلى الفواكه كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا ولما كانت كلتا مفردا لفظا ومثنى معنى جاز الإخبار عنه بالمفرد كما هنا. وإرجاع ضمير المثنى اليه فيما بعد. أي

أعطت ثمارها وبلغت مبلغ الإستفادة منها ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي ولم تنقص من الثمر شيئا من النقص ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ أي وفجرنا فيما بين كلتي الجنتين نهراً ليدوم شربهما، وتزيد نضارتهما، وتحلو ثمارهما ﴿وَكَانَ لَهُ﴾ أي لذلك الأحد ﴿ثَمَرٌ﴾ من أنواع المال والخيرات ﴿فَقَالَ﴾ هذا ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ ورجالاً.
﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ في هذه الحالة من البطر والإستغناء ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بنسبة ماله إلى نفسه وإهماله لجانب قدسه ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ﴾ أي تفنى ﴿هَذِهِ﴾ الجنة والثروة ﴿أَبَدًا﴾ طول حياتي وأعيش عليها متنعما الى أن أموت فأنمحى مثل معز يرعى في المرعى فيموت بلا عود حياة ولا سؤال وجواب ولا حساب وكتاب ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ﴾ المشهورة وهي عالم المعاد وحساب العباد ﴿قَائِمَةً﴾ ثابتة ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى﴾ لقاء ﴿رَبِّي﴾ فرضاً جدليا ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا﴾ أي من هذه الجنة ﴿مُنْقَلَبًا﴾ أنقلب وأتحول إليه كما أن لي في هذه الدنيا ما تراه من الجنان الخارجة عن الحسبان.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أيضا: عجبا منك وحسرةً وأسفاً عليك ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ في ضمن خلق ابيك الأعلى آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ مخلوقة في الأصلاب والأرحام ثم أخرجك من بطن أمك حيا حياة مستقرة سليما ﴿ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ لا امرأة أر رجلا من الرجال البارزين المعتدلين المتمولين وكان الواجب عليك أن تشكره.

﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ أصله لكن أنا، وقرأ به أبي بن كعب. فنقلت حركة همزة أنا إلى ما قبلها وحذفت الهمزةُ ثم الحركة، ثم أدغمت النون في النون، وأنا مبتدأ أول وهو ضمير الشأن ومبتدأ ثان، والله مبتدأ ثالث، وربي خبره، والجملة خبر ضمير الشأن، وهي غنية عن الرابط لان الجملة

بعدها تفسيرها والجملة بكمالها خبر أنا، والرابط للكل ضمير المتكلم المضاف إليه. ويقرأ لكن بفتح النون بلا ألف، والمعنى ولكنني بريء عن اعتقادك الفاسد، واعتبر الشأن والواقع أن الله تعالى هو ربي لا غيره ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (39) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (41) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (42) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (43) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (44)﴾

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ حَضٌّ للتنديم على ما فرط منه أي لماذا تركت أن تقول ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي الأمر ما شاءه الله، أو ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ﴿لَا قُوَّةَ﴾ على تحصيل أي خير أو تذليل أي شر ﴿إِلَّا﴾ بسبب تأثير ﴿اللَّهِ﴾ ثم استأنف لمعارضته في بطره ودعوى كبريائه عليه وقال ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (39) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي على جنتك ﴿حُسْبَانًا﴾ مصدر بمعنى المحسوب المقدر من العذاب النازل ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ كحي محرق أو بردٍ ممزق ﴿فَتُصْبِحَ﴾ جنتك ﴿صَعِيدًا﴾

أي أرضا ﴿زَلَقًا﴾ لا نبات فيها ولا تثبت بها قدم ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ أي غائِراً في أعماق الأرض ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ أي فلن تستطيع الوصول اليه حتى تطلبه. وقوله تعالى ﴿إِنْ تَرَنِ﴾ شرط وقوله ﴿فَعَسَى رَبِّي﴾ الى آخره جوابه، أي ان ترني أفقر منك وأقل مالا وولدا وتطغى عليّ فأنا اتوقعُ من الله على سنته الثابتة لدفع الطُّغاة البغاة أن يبدل ما عندي وما عندك فيرزقني لإيماني بهِ جنةً خيراً من جنتك ويسلبك لكفرك به نعمته بالنقمة والعذاب. وترى إما من أفعال البصر وفاعله مستتر والياءُ مفعوله وأنا تأكيد له، وأقل حال منه، أو من أفعال اليقين فأقل مفعول ثان ومالاً وولداً تمييز على الوجهين. وقوله تعالى ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ أي وبعد أن جرى ما جرى بينهما من الحوار وافترقا على ما بينهما من الشجار أحيطَ بثمر الرجل الطاغي المتكبر الكافر وأهلك أمواله المعهودة من الجنتين وما فيهما. وهو مأخوذ من إحاطة العدو بعدوه أي إستدارته من جميع جوانبه كيلا يفر ويُبادَ ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ أي صار يقلبهما أو مضت عليه ليلة ونزلت على الجنتين ما نزل من البلية فأصبح الرجل يقلبهما. ومعنى تقليبها أن يبدي بطن كل منهما ثم يحول يديه حتى يظهر ظهرهما أي فأصبح متندما على ما أنفق فيها أي أنفقه في عرصة جنتيه حتى ظهرت عليها جنتان، ولذلك أفرد الضمير ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ أي ساقطة ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ المصنوعة لجمع الثمار، أو على العروش المصنوعة لبسط أغصان الكروم. أو المراد بالعروش العروق فإن العرش جاء بمعنى قوام الأمر كما في القاموس لأنها أعمدة الأشجار وأغصانها. ويقول متحسراً ومتندماً من حيث لا ينفعه الندم: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ قال بعض المفسرين كأنه تذكر موعظة صاحبه المؤمن وعلم أنه أتى به من قبل شركه فتمنى لو لم يكن مشركا فلم يهلك اللهُ بستانه.

واستشكلت الآية بأن ظاهر قول الرجل أنه كان كافرا ملحدا لأنه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة.
وأجيب عنه بجوابين:

الأول أنه كان مشركا، ولما كان المشرك ضعيف العقل ونحيف العقيدة فكلما اضطرب حاله اضطرب مقاله، وربما ينفي وجود الله، والعياذ بالله، فضلا عن الاعتراف بشريكه المزعوم، وفي نتيجة دمار بستانه رجع الى عقله ووجدانه، وآمن بربه ورفض الإشراك ولكنه لم يُقبل منه، لأنه لم يكن عن صفاء ضميره بل من أثر هلاك ملكه وتدميره.

والجواب الثاني: أنه يتبين من الآية الثانية أنه كان له اعتراف بالله ولكنه لما طغى وبغى وتكبر على صاحبه واعتمد على نفسه فكأنه جعل نفسه مؤثرا وخالقا لأعماله، ولذلك قال ولئن رددت إلى ربي لأجدَن خيراً منه منقلبا، فاعتبر لهذا مشركا.

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي ولم تكن جماعة من الأعوان تقدر على نصره إما بدفع الهلاك قبل وقوعه، أو برد المهلك بعينه او باقامة جنتيه وإعادتهما كما كانتا، ﴿وَمَا كَانَ﴾ في نفسه ﴿مُنْتَصِرًا﴾ أي ممتنعا عن حدوث ما حدث وطرأ عليه. ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ أي هنالك علم وتبين له أن النصرة لله الحق وحده لا يتولاها أحد غيره ﴿هُوَ﴾ أي الباري تعالى ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي خير من كل ما يتصور أنه مثيب نافع ثوابا وعاقبةً لأحبائه. والعقب بضم الاول وسكون الثاني العاقبة.

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (45) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (46) وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47) وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (48) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (49)﴾

قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ المثل إما بمعنى الشبيه أو الصفة العجيبة التي هي في الغرابة كالمثل، أي واذكر لهم ما يشبهها في الزهرة والنضارة وسرعة الزوال. أو أذكر لهم صفتها العجيبة الغريبة. وقوله ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي هي كماء أنزلناه من السماء ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أي فنبت به نبات الأرض فاشتبك وخالط بعضه بعضا ﴿فَأَصْبَحَ﴾ أي فصار ذلك النبات الملتف بعد بهجته ونضارته ﴿هَشِيمًا﴾ أي يابسا متفتتا ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ وتفرقه تجيئ به وتذهب به حيث شاءت. وظاهر الآية الشريفة أن المشبه هو شبيه الحياة الدنيا، والمشبه به الماء نفسه، وليس كذلك بل المشبه والمشبه به كلاهما هيئة منتزعة، الأولى من نمو الإنسان وتصاعده وتطوره من الصِبا إلى المراهقة فالبلوغ فالرجولة المعتمدة مع الترقي من الجهل الى العلم على اختلاف مراتبه، ومن شخصيته الواحدة الى النمو من الزواج وحصول النسل والجاه والمال والحال ثم الوقوف فالذبول فالبؤس. والإفتقار والضعف الى المرض فالموت. والثانية من نبت النبات فازدياده في الأقطار والإكثار من الفروع الى حال التكامل، فإخراج الأوراد أو الثمار ثم

الوقوف عن النمو، ثم طرو الضعف واليبس والإنكسار الى الانقلاع والتطير بالرياح ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ وتأثيره في الإبداء والإفناء والإعادة على حد سواء.

ثم استأنف لبيان شأن منشأ افتخار الناس من محسنات الحياة فقال: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وعلى المال تبنى أسباب الجاه والرفعة والمنعة والشأن عند الناس والزواج الموجب للتناسل والبنين والبنات. ولكن الزينة النافعة هي التي توجب سعادة الإنسان سعادة خالدة وهي الحاصلة من الإيمان والأعمال السليمة، وهي التي تبقى ثمارها ونتائجها لأصحابها كما قال تعالى ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي في الآخرة ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ حيث ينال بها صاحبها كلَّ خير ينتظره ويؤمله ويبقى له ذلك الخيرُ إلى الأبد.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ أي اذكر حال الناس يوم نسير الجبال، أو أن الباقيات الصالحات خير عند ربك يوم نسير الجبال، أي يوم نقلع الجبال من قواعدها في الأرض ونسيرها في الجو ثم نسقطها فتصير كثيباً مهيلا. وظرفيته باعتبار امتداد ما يأتي بعده من أيام الجزاء اللا متناهية من الجنة ونعيمها ولقاء الباري تعالى ورحمته ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ بعد قلع الجبال مستوية ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ أي الناس الموجودين فوقها المتنعمين بأنواع خيراتها المستعجلة الفانية، أي جمعناهم في صعيد واحد للحساب ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي لم نترك منهم أحدا ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ أي مُصطفين. روي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إن الله تعالى ينادي يوم القيامة: يا عبادي أنا الله لا إله إلا أنا، أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين. أحضِروا حجتكم ويسروا جواباً فإنكم مسئولون مُحاسبون. يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب)).

وفي الحديث: ((يجمع الله تعالى الأولين والآخرين في صعيد واحد صفوفا يسمعهم الداعي وينفذهم البصر)). وقيل: تقام كل أمة وزمرة صفا ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي ونقول للكافرين المنكرين للبعث منهم: لقد جئتمونا مجردين عن كل ناصر ينصركم وحجة تحتجون بها، وملجأ تلتجئون إليه، كما خلقناكم أول مرة ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ وهذا إضراب وانتقال من كلام الى كلامٍ أي بل زعمتم أن لا عود ولا حساب ولا كتاب ولا ثوابٌ ولا عقاب وهذا أوان إدراك ما كنتم تنكرونه.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ كلهم ﴿مُشْفِقِينَ﴾ أي خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ﴾ عند اطلاعهم على ما فيه من العقائد الفاسدة والأعمال السيئة: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ وضبطها بدون إفراط وتفريط فيه ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا﴾ أي ما اكتسبوه في الدنيا من العقائد والاعمال ﴿حَاضِرًا﴾ مسطورا في الكتاب مفصلا مشروحا زمانه ومكانه وكميته وكيفيته وكل ما اكتنف به من الأدلة والشواهد ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ بكتابة ما لم يكتسبه أو بكتم ما اكتسبه، واعتبار الظلم مع أن الله سبحانه وتعالى هو السيد المطلق المتصرف المالك لكل شيء ولا ينسب اليه الظلم أبدا، أنه لو فرضنا أنه محاسب لعباده محاسبة اعتيادية من حاكم لغيره لم نجد في كتاب أهل الحساب شيئا غير مكسوب ولا مطلوباً غير مكتوب حتى يقال إنه ظلم فلانا بالزيادة على ما عمل أو إهمال ما فعل، وكيف لا وهُو أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين؟

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (50) مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (51) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (52) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (53) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآَنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (54)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ أي واذكر زمان قولنا للملائكة ﴿اسْجُدُوا لِآَدَمَ﴾ سجود تحية وإكرام ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ لم يسجد لأنه ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ هذه الجملة نص على أنه كان من الجن وأن سبب فسقه وخروجه عن أمر ربه كونه من الجن وعنصره ساعده في معصية ربه لأن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وقد تقرر في الأصول في مسلك النص وفي مسلك الإيماء والتنبيه أن الفاء من الحروف الدالة على التعليل كقولهم سرق فقطعت يده أي لأجل سرقته وكقولهم سَها فسجد أي لأجل سهوه. وأما وجه دخوله في الملائكة فقد قالوا: إن الله أمر الملائكة بقتال الجن فقاتلوهم ووقع في الأسر وبقي فيهم وصار من المتعبدين لكنه بقي فيه بذر الشقاق إلى أن أظهره في ذلك الوقت. وقيل: إنه كان جنيا مجتهدا في العبادة غاية الإجتهاد، وبسبب دوام طاعته أمره الله أن يدخل في صفوف الملائكة فدخل وصار مقدمهم ومعلمهم وأشدهم اعتصاما بالطاعة، وكان يعتقد أنه ليس في الأرض والسماء من هو أخلص منه في العبادة، وبقي على هذه الكبرياء إلى أن جرى عليه ما جرى والعلم عند الله. وما أمرنا بالكشف عن حقيقته

لكن المنصوص أنه كان من الجن ففسق عن أمر ربه، وهذا دليل واضح على أنه لم يكن من عنصر الملائكة ويدل على ذلك أيضا أن له ذرية، ومعلوم أن الملائكة لا ذرية لهم ولا يحصلون من جهة التناسل بل من جهة الأمر الإبداعي۔

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ والهمزة للإنكار والتعجيب لأن من خرج عن أمر ربه بعيد عن أن يكرم ويطاع في أوامره لاسيما فيما يكون سببا للابتعاد عن طاعة الله تعالى، والحال ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ أي والحال أنهم لكم عدو فيجتمع فيه وفي ذريته مانعان عن اتخاذهم أولياء.

الأول خروجهم عن أمر ربه والثاني عداوتهم لأولاد آدم من جهة أن سبب طرده عن رحمته تعالى امتناعه عن السجود له ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ أي بئس الشيطان من حيث كونه بدلا عن الله عندهم في الولاية والعبادة. ثم بين دناءَة رتبتهم وقلة قيمتهم فقال تعالى ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ﴾ أي إبليس وذريته ﴿خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كناس محترمين وكجمع مكرمين مدعوين للنظر في آثار إدارة ملك وملاحظة معداته المناسبة لسلطنته ﴿وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي وما أشهدت بعضا منهم عند خلق بعض منهم على وجه الإعتزاز والإعتبار ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ وهذه الفقرة تشم منها رائحة التعليل للجملتين السابقتين يعني أنهم ذواتٌ شأنهم الإضلال والإخلال والإفساد، وما كنت متخذا لأمثال أولئك الفاسدين عضداً وعوناً في الخلق. وهذا الكلام إرخاء للعنان ومماشاة مع أهل الكفر والعصيان، وإلا فأولئك الجمع أي إبليس وذريته أحقر موجود في عالم الوجود، فكيف يهتم بهم الخالق الواجب الوجود؟ ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي واذكر حال الكفار المشركين يوم يقول الله تعالى لهم نادوا شركائي الذين زعمتموهم شركاء لي وشفعاء لكم يوم القيامة ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ لإغاثتهم والشفاعة

لهم عن الدخول في النار ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ فلم يغيثوهم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي بين الفريقين من المشركين والشركاء المزعومين ﴿مَوْبِقًا﴾ أي مهلكا يشتركون فيه وهو عذاب جهنم. وهذا إذا كان الشركاء عبارة عن إبليس وذريته الذين اتخذهم الكفار أولياء من دون الله. وأما إذا كانوا من أهل الخير والطاعة كعزير وعيسى بن مريم المتخذين آلهة وشركاء لله والعياذ بالله فالموبق هو العداوة، ومعنى الآية الكريمة: وجعلنا بين الفريقين عداوة يعادي بعضهم بعضا.

﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ والرؤية بصرية ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ أي وعلموا أنهم مخالطوها وداخلوها ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي مكانا ينصرفون إليه.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ﴾ أي لإرشادهم ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي كل مثل وأمر مهم يستفيد منه المسترشد، ومن زائدة فهو كما يقال سيف خطيب يأخذه ولا يستعمله. أو من كل مثل على أن يكون للتبعيض أي ذكرنا لهم في هذا القرآن شيئا من كل باب ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أي وكان بحسب جبلته أكثر الحيوانات جدلا ونزاعا، فذكرت لهم ما يقطع جدال بعض ويقل جدال بعض ولا ينفع بعضا أي بعض ولكننا نذكر ما أردنا أن نذكره إلزاما للحجة عليه.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (55) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (56) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (57) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (58) وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (59)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ استئناف لتوبيخ أولئك المشركين الذين مرت أباطيلهم. فيقول سبحانه وتعالى وما الذي منع أولئك الناس ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ بربهم الواحد الأحد ورسوله المبعوث رحمة للعالمين وبالكتاب المنزل عليه لبيان الشرائع والأحكام ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ من ربهم أي دليل الهداية ووسيلة الوصول إلى أولى المنافع وأجل المكارم وهو القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ بالتوبة عما حدث منهم من العقائد الفاسدة والأعمال الكاسدة ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ استثناء من أعم الموانع أي ما منعهم شيء إلا أن تأتيهم سنة الله تعالى في الأولين بالإهلاك والإبادة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ بضمتين. أي أنواعا وقرئ بكسر ففتح أي عيانا ومقابلة كما جاءهم يوم بدر ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ أي وما نرسلهم مخولين بقلب السماوات والأرض والإتيان بالمقترحات ذات الطول والعرض، وليست وظيفتهم إلا التبليغ والتبشير والإنذار لأهل الإعتبار وكان حق الناس أن لا ينسوا هذه النعمة العظيمة ويشكروها بالقبول مع أنه يمارس الناس غير الحق ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ أي بالشيء الباطل الذي لا حق لهم فيه وذلك لا لغرض سليم بل ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ ويزيلوه به ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي﴾ المبشرات والمنذرات ﴿وَمَا أُنْذِرُوا﴾

به من العقاب والعذاب ﴿هُزُوًا﴾ أي سخرية واستهزاء. فقد تبين أنهم هم الظالمون وكل ما يأتي عليهم فهو جزاء لظلمهم على أنفسهم بل هم أظلم الناس.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآَيَاتِ رَبِّهِ﴾ المنزلة مع جبريل الأمين ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ فلم يتدبرها ليفهم مغزاها وأنكرها وكفر بها ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي نفسه من الكفر والمعاصي. ثم استأنف لبيان سبب ذلك وقال ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ جمع كنان بمعنى الغطاء أي جعلنا على قلوبهم أغطية تحجبهم عن وصول نفحات الحق إليها مانعةٍ لهم مِنْ ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آَذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي وجعلنا في آذانهم ثقلا مانعا عن استماعه ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى﴾ بعد ذلك ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا﴾ جزاء وجواب ﴿أَبَدًا﴾ أي ما داموا في الدنيا مكلفين والسر في ذلك السبب أنهم أبوا وأنكروا وعاندوا وكفروا واستمروا على ذلك وأصروا ومن سنة الله تعالى أن يجزي المتمردين بإبعادهم عن الرحمة أبد الآبدين ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ﴾ للناس المذنبين بالذنوب الموجبة للعذاب العاجل بالعفو تارة وبتأجيل العذاب أخرى ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ على عباده بحكم لا يعلمها إلا هو ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ لاقتضاء أعمالهم لذلك ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ مقرر هو يوم بدر أو يوم آخر ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ أي منجىً منه وليس ذلك سنتنا اليوم بل هي سنتنا الثابتة مر الأعصار والأزمان ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى﴾ بلاد عاد وثمود وقوم لوط وبلاد مَنْ قبلهم ومن بعدهم ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أي أهلكنا العباد وَاَبَدْنَا بلادهم ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أنفسهم قبل كل أحد بالكفر والامتناع عن استماع الحق، ثم ظلموا الناس بسفك الدماء، وهتك الأعراض، ونهب الأموال، وسلب الجاه والحال، وما عذبناهم في تلك الأيام بادئ بدْءٍ، بل أنذرناهم وأخبرناهم ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ ثم بَعدَ مجيء الموعد المؤخر المقرر أتاهم العذابُ المدبر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (62) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (64) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ هو ابن عمران نبي بني إسرائيل عليه السلام على الصحيح. فقد أخرج الشيخان والترمذي والنسائي وجماعة من طريق سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إن (نُوفا البكّاليَّ) يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بني إسرائيل. فقال: كذب عدو الله. ثم ذكر حديثا طويلا فيه الإخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما هو نصٌّ في أنه موسى بني إسرائيل. وزعم أهل الكتاب ومن تبعهم أنه ليس موسى المشهور وإنما هو موسى بن مَيشا ابنُ يوسف ابن يعقوب عليهم السلام، وقيل موسى ابن افرائيم ابن يوسف. ومنشأ إنكارهم شيئان: الأول إنكار أن يتعلم نبيهم ورسولهم وهو من أولي العزم من غيره. والثاني أن موسى بعد خروجه من مصر دخل هو وقومه في التيه وتوفي فيه ولم يخرج قومه منه إلا بعد وفاته. والقصة تقتضي خروجه من التيه لأنها لم تكن عندما كان في مصر. وتقتضي القصة غيبته عن قومه أياما ولو وقعت لعلمها كثير من بني إسرائيل الذين

كانوا معه، ولو علمت لنقلت لتضمنها أمراً غريباً تتوفر الدواعي على نقله، فحيث لم يكن لم تكن. هو الجواب أن أخذ الفاضلِ من المفضول والأعلم من العالمِ كان ولا يزال يكون وليس بشيء عجيب، ولاسيما أن ما اختص بمعرفته الخضر ليس على أصول الشريعة الظاهرة، وإنما هو شيء مما خصه الله تعالى به لحكمته، وإن كان موسى أفضل منه رتبة وأعلم منه من جهات أخرى. وأن القصة يجوز أنها كانت في مصر بعد إهلاك فرعون وأتباعه الأقباط. وعلى تقدير وقوعها بعد الخروج من مصر يجوز أنها كانت في أيام التيه وكانت له غيبة أياما على وجه خفي على بني إسرائيل أو على وجه كان خارقا للعادة، أو أنه غاب عنهم وظنوا أنه ذهب الى الميقات لمناجاة ربه على عادته المقدرة المعلومة بينهم. وعلى كل حال فإنكارهم لشيء وقع بنص ظاهرٍ من الكتاب ليس في محله ولا قيمة له فإنهم ينكرون دين الإسلام من أساسه وينكرون كثيرا من الوقائع المقررة في دين الإسلام فلتكن هذه القصة منها.

وقوله ﴿لِفَتَاهُ﴾ صلة القول التبليغي، وفتاه يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف عليه السلام، وكان ابن أخت موسى وكان يلازمه ويخدمه ويتعلم منه ولذا أضيف إليه. والعرب كانت تقول للخادم (فتى) لأن الخدمة غالبا في زمان الفتوة. وعليه يقول صلى الله عليه وسلم ((ليقل أحدكم فتاي وفتاتي ولا يقل عبدي وأمتي)) وقوله ﴿لَا أَبْرَحُ﴾ مقول القول أي لا أزال أسير ﴿حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي بحر فارس والروم، وهو محل قناة السويس اليوم وملتقى البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أي أسير زماناً طويلاً. والحقب بلغة قريش ثمانون سنة، وقيل سنة واحدة، ويجمع على أحقاب كعنق وأعناق. روي أن موسى عليه السلام سأل ربه أي عبادك أحب إليك؟ قال الذي يذكرني

ولا ينساني قال: فأي عبادك أقضى؟ قال الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى.

قال فأي عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس الى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترد عن ردى. فقال: إن كان في عبادك أعلم مني فأدللني عليه. قال: أعلمُ منك الخضر. قال: أين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة. قال: كيف لي به؟ قال: تأخذ حوتا في مكتل فحيث فقدته فهو هناك. فقال لفتاه إذا فقدت الحوت فاخبرني. فذهبا يمشيان.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي مجمع البحرين ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أي نسي موسى عليه السلام أن يطلبه ويعرف حاله ونسي يوشع أن يذكر له ما رأى من حياته ووقوعه في البحر. وهذا قولٌ بأن يوشع شاهد حياته. وفيه خبر صحيح ففي حديث رواه الشيخان وغيرهما ((أن الله تعالى قال لموسى: خذ نونا ميتا فهو حيث ينفخ فيه الروح. فأخذ ذلك فجعله في مكتل. فقال لفتاه: لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوتُ قال: ما كَلفتَ كثيراً. فبينما هما في ظل صخرة إذ إضطرب الحوتُ حتى دخل البحر وموسى نائم، فقال فتاه: لا أوقظُه حتى إذا استْيقظ نَسي أن يخبره)). وفي حديث رواه مسلم وغيره ((أن الله تعالى قال له آية ذلك أن تزود حوتاً مالحاً فهو حيث تفقده. ففعل حتى إذا انتهيا إلى الصخرة انطلق موسى يطلب ووضع فتاه الحوتَ على الصخرة فاضطرب ودخل البحر. فقال فتاه: اذا جاء نبي الله تعالى حدثته فأنساه الشيطان)) وقوله ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي مسلكا كالسرب وهو النفق. فقد صح من حديث الشيخين والترمذي والنسائي وغيرهم ((أن الله تعالى أمسك عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق)) والمراد به البناء المقوس كالقنطرة.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أي جاوزا المكان الذي فيه المقصد من مجمع البحرين ﴿قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ أي آتنا الطعام الذي يؤكل

أول النهار، والمراد به الحوت على ما ينبئ عنه ظاهر الجواب. لقد لقينا من سفرنا هذا تعباً واعياءً وافرا. ﴿قَالَ﴾ أي فتاه في جواب موسى عليه السلام ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ كلام فيه تهويل وتعجيب ومعناه: سبحان اللَه الذي يُنسي الإنسانَ نفسه ويُعميه عما يشاهده فأخبرني ماذا طرأ عليَّ اذْ وَصلنا الي الصخرة واسترحنا ورأيت بعيني ما رأيته من دخوله البحر مع أني نسيتُ أن أذكر قصته لك مع تأكيدك علي ﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ﴾ بضم الهاء على خلاف العادة لأن ذلك النسيان أيضا كان على خلافها أي وما أغفلني عن بيان حاله ﴿إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ فانه أشغلني وملأ قلبي ببعض أمور تافهةٍ فتركت بيانه لذلك. وقوله ﴿أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ بدل اشتمال عن الهاء. أي ما أنساني ذكره لك إلا الشيطان ﴿وَ﴾ حاله أنه ﴿اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ مفعول ثان لقوله اتخذ أي جعل سبيل دخوله وسيره في البحر أمراً متعجبا منه. ويجوز أن يكون حالا أو منصوبا بفعل مضمر أي وأعجب عجبا فيكون الإتخاذ على غير معنى التصيير.

فلما قال له فتاه ما قال جوابا له ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكرت لي من أمر الحوت ﴿مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ هو الأمر المقصود الذي كنا نطلبه من حيث أن الله جعله علامة على لقاء المطلوب ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آَثَارِهِمَا﴾ أي فرجعا على طريقهما الذي جاءا منه ﴿قَصَصًا﴾ أي حالكونهما يقصانه قصصا، أي يتبعانه اتباعا ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ قال في أضواء البيان: هذا العبد المذكور في هذه الآية هو الخضر عليه السلام بإجماع العلماء ودلالة النصوص الصحيحة على ذلك والخضر لقبه، ولقب به كما أخرج البخاري وغيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه جلس على فروة[2] بيضاء فإذا هي تهتز من

---

(2) هي قطعة من الأرض.

خلفه خضرا فذلك من كلام النبي صلى الله عليه وسلم. وفي المراد بالرحمة في الآية أقوال وفي روح المعاني: والجمهور على أنها الوحي والنبوة وقد اطلقت الرحمة على ذلك في مواضع من القرآن. وهذا قول من يقول بنبوته عليه السلام وفيه أقوال ثلاثة: فالجمهور على أنه عليه السلام نبي وليس برسول، وقيل هو رسول، وقيل هو ولي، وعليه القشيري وجماعة. والمنصور ما عليه الجمهور وشواهده من الآيات والأخبار كثيرة وبمجموعها يكاد يحصل اليقين. قلت: ومن الشواهد المستفادة من الآيات الدالة على رتبته العليا من النبوة أو الرسالة لهجة كلامه في جواب سيدنا موسى عليهما السلام، فإن من أنصف ولم يأخذه العناد علم أن ذلك النوع من الكلام والإلقاء إلى شخص رسول من أولي العزم كموسى عليه السلام لا يخرج عادة إلا من شخص يعلو على مقابله أو يساويه. أنظر الى قوله تعالى حكاية عن العبد ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ والى قوله في جوابه: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾.

وأما طول حياته كما هو المشهور بين المسلمين فهو ايضا مجال أقوال ومحل جدال كثير، ففي تفسير روح المعاني: ذهب جمهور العلماء إلى أنه حي موجود بين أظهرنا، وذلك متفق عند الصوفية قدست أسرارهم قاله النووي، ونقل عن الثعلبي المفسر أن الخضر نبي معمر على جميع الأقوال محجوب عن أبصار أكثر الرجال. وقال ابن الصلاح: هو حي اليوم عند جماهير العلماء والعامة معهم في ذلك واستدلوا على حياته بأدلة:

منها ما أخرجه الخطيب وابن عساكر عن علي رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه قال: بينا أنا أطوف بالبيت اذا رجل معلق بأستار الكعبة يقول: يا من لا يشغله سمع عن سمع، ويا من لا تغلطه المسائل، ويا من لا يتبرم

بإلحاح الملحين أذقني برد عفوك وحلاوة رحمتك. قلت: يا عبدالله أعد الكلام. قال: أسمعته؟ قلت: نعم قال: والذي نفس الخضر بيده (وكان هو الخضر) لا يقولهن عبدٌ دبْرَ الصلاة المكتوبة إلا غفرت ذنوبه وإن كانت مثل رمل عالج وعدد المطر وورق الشجر.

ومنها ما نقله الثعلبي عن ابن عباس قال: قال علي كرم الله وجهه: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما توفي وأخذنا في جهازه خرج الناس وخلا الموضع، فلما وضعته على المغتسل إذا بهاتف يهتف من زاوية البيت بأعلى صوته لا تغسِلوا محمداً، فانه طاهر طهر فوقع في قلبي شيء من ذلك، وقلت: ويلك من أنت! فإن النبي صلى الله عليه وسلم بهذا أمرنا وهذه سنته؟ وإذا بهاتف آخر يهتف بي من زاوية البيت بأعلى صوته: اغسلوا محمدا فإن الهاتف الأول كان إبليس الملعون حَسَدَ محمداً أن يدخل قبره مغسولا. فقلت: جزاك الله خيرا قد أخبرتني بأن ذلك إبليس فمن أنت؟ قال: أنا الخضر حضرت جنازة محمد صلى الله عليه وسلم.

ومنها ما أخرجه الحاكم في المستدرك عن جابر قال: لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتمع الصحابة دخل رجل أشهب اللحية جسيم صبيح، فتخطى رقابهم فبكى، ثم التفت الى الصحابة فقال: إن في الله تعالى عزاء عن كل مصيبة وعوضا من كل فائت وخلفا من كل هالك فإلى الله تعالى فأنيبوا وإليه تعالى فارغبوا، ونظره سبحانه إليكم في البلاء فانظروا فإن المصاب من لم يجبر فقال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما: هذا الخضر عليه السلام.

ومنها ما أخرجه ابن عساكر أن إلياس والخضر يصومان شهر رمضان في بيت المقدس، ويحجان في كل سنة، ويشربان من زمزم شربة تكفيهما الى مثلها من قابل.

ومنها ما أخرجه ابن عساكر أيضا والعقيلي والدارقطني في الأفراد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((يلتقي الخضر والياس كل عام في موسم فيحلق كل واحد منهما رأس صاحبه ويتفرقان عن هذه الكلمات: بسم الله ما شاء الله لا يسوق الخير إلا الله، ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله)).

ومنها ما أخرجه ابن عساكر بسنده عن محمد بن المنكدر قال: بينما عمر بن الخطاب يصلي على جنازة إذا بهاتف يهتف من خلفه لا تسبقنا بالصلاة يرحمك الله تعالى فانتظره حتى لحق بالصف الأول فكبر عمر وكبر الناس معه، فقال الهاتف: إن تعذبه فكثيرا عصاك وإن تغفر له ففقير إلى رحمتك. فنظر عمر وأصحابه إلى الرجل فلما دفن الميت وسوى عليه التراب قال: طوبى لك يا صاحب القبر إن لم تكن عريفا أو جابيا أو خازنا أو كاتبا أو شرطيا. فقال عمر: هذا والله الذي حدثنا عنه النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الإستدلال مبني على أنه عني بالمحدث عنه الخضر عليه السلام الى غير ذلك.

وحكايات الصالحين من التابعين والصوفية في الاجتماع به والأخذ منه في سائر الأعصار أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر. نعم أجمع المحدثون القائلون بحياته عليه السلام على أنه ليس له رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم كما صرح به العراقي في تخريج أحاديث الإحياء، وهذا خلاف ما عند الصوفية فقد ادعى الشيخ علاء الدين استفادة الأحاديث النبوية عنه بلا واسطة. وذكر السهروردي في السر المكتوم أن الخضر عليه السلام حدثنا بثلاثمائة حديث سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم شفاها.

وفي روح المعاني: قال ابن قتيبة في المعارف أنه ابن ملكان بن فالغ بن عابد بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام. ولم يصح عندي شيء من هذه الأقوال، بيد أن صنيع النووي عليه الرحمة في شرح مسلم يشعر باختيار أنه بليا بن ملكا وهو الذي عليه الجمهور والله تعالى اعلم. والمعروف أن الخضر لقبه كما أخرج البخاري وغيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء.

وفي روح المعاني أيضا: وروى أيضا أنه لما سلم عليه (أي لما رجعا الى الصخرة وقد وجداه هناك) عرفه أنه موسى، فرفع رأسه فاستوى جالسا، وقال: وعليك السلام يا نبي بني إسرائيل؟ فقال موسى وما أدراك بي ومن أخبرك أني نبي بني إسرائيل؟ فقال: الذي أدراك بي ودلك عليّ. ثم قال: يا موسي اما يكفيك أن التوراة بيدك، وأن الوحي يأتيك؟ قال موسى: إن ربي أرسلني إليك لأتبعك وأتعلم من علمك.

وذهب جمع الى انه ليس بحي اليوم، ولهم أدلة استدلوا بها على مماته:

منها أنه قال النبي صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بقليل: ((ما من نفس منفوسة يأتي عليها مائة سنة وهي يومئذ حية)). وفي رواية: ((لا يبقى على رأس المائة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد)).

ومنها أنه لو كان حيا في زمان الرسول لزاره واتبعه وجاهد معه لأن الله أخذ الميثاق من النبيين على ذلك.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ فلو بقي حيا إلى آخر الزمان لكان له الخلود وهو باطل بظاهر الآية إلى غير ذلك من الأدلة وإن كان أقواها ما ذكرناه.

ويجاب عن الدليل الأول بأجوبة، منها:

أن تلك العبارة الشريفة كناية عن انقراض العصر وفناء جمهرة الناس الذين يعتمد عليهم في تسيير الأمور.

الثاني أنه وان جرى على ظاهره من عموم السلب لكنه ما من عام الا وقد خص منه بعض وذلك معلوم عند من تتبع الأدلة العامة، فليكن مخصوصا بغير الخضر وأمثاله من الشواذ الذين بقوا بعد مائة سنة من تأريخ قوله صلى الله عليه وسلم.

الثالث: أنه لو بقي على عمومه بلا تخصيص جاز أن يقال إن الخضر لم يدخل في مضمون الحديث الشريف لجواز كونه على البحر لا على ظهر الأرض إذ ذاك.

وعن الدليل الثاني بأن الملازمة الواقعة في دليله ممنوعة، كيف وسيد التابعين أو يس القرني رضي الله عنه كان موجودا في ذلك الوقت، ولم يزره الرسول، ولم يزره الى وفاته ثم إنه يجب تخصيص تلك الملازمة بمن لم يكن مشغولا بعمل آخر مشروع لجواز أن يكون الخضر مشغولا بتوفية واجبات مقررة عليه، واستمر في الوفاء بها فكيف تسعه الزيارة أو الجهاد معه صلى الله عليه وسلم؟ ولو سلمنا الملازمة فلم لا يقال: إنه زاره مرة أو مرارا ولم يعلم به الصحابة ولم يخبر الرسول عن زيارته لأنه لا يجب عليه صلى الله عليه وسلم أن يخبر الناس بكل ما جرى عنده وبكل من زاره؟ ألا ترون أنه صلى الله عليه وسلم أخبر حذيفة ابن اليمان بوقائع مهمة تقع في المستقبل ولم يخبر بها غيره ولم ينشرها حذيفة أيضا كمالا يخفى على من تتبع شروح البخاري الشريف في كتاب الفتن؟

وأما الجواب عن الدليل الثالث فهو أن تلك الآية الشريفة تدل على عدم الخلود لأحد ومن ادعى حياته لم يدع خلوده، وإنما غاية أمره أنه ادعى حياته وطول عمره مدة مديدة بعيدة عن العادة المستمرة. وبعد الشيء عن العادة لا يدل على استحالته، فإنا نعتقد أن سيدنا عيسى عليه السلام لم يقتل ولم يصلب بل رفعه الله الى السماء وأسكنه حيث شاء ويبقى الى وقت نزوله في آخر الزمان كما نطق به ما رواه مسلم في صحيحه: ((يوشك أن ينزل فيكم بن مريم...)) الحديث ولا حاجة إلى أن نستدل بطول عمر الجن أو أي شخص آخر مدة كثيرة وذلك معروف عند أهل العلم.

وأما الاستدلال على وفاة الخضر بقوله صلى الله عليه وسلم يوم بدر: ((اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض)) وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا معروفين بأسمائهم وأسماء آبائهم فأين كان الخضر؟ فاستدلال عليه مقال، لأن المراد لا تعبد بعد بقوم لهم ظهور في الأعيان، ونظام في الزمان، وشهرة بين بني الإنسان والا فقد كان على تقدير هلاك العصابة نساء كثيرات وشيوخ كثيرون وأناس مسلمون في غير تلك البقعة، فكيف يدل على انتفاء المسلم وأهل العبادة في العالم؟ والحق أنا إذا نظرنا إلى اتفاق الطرفين على وجود ذلك العبد وحياته في ذلك الوقت فليس هناك دليل قاطع على موته في وقت خاص إلا استمرار العادة على موت الناس في نحو مائة سنة أو أزيد، والعادة لا توجب القطع بموته، بل والاستصحاب دليل على حياته، ولا سيما الروايات الكثيرة التي تؤيد بعضها بعضا على أنه حي مرزوق موفق للوفاء بالواجبات التي ألقيت عليه، وأن اجتماع كثير من الصلحاء على أنه حي مما يغلب على الذهن حياته الى وقته المقرر المقدر، ولا تغتر بمن تأخذه العصبية الخالية عن كل إنصاف والداعية الى الحكم بموته مع أن أدلة الطرفين لا يوجب القطع في الموضوع، لا بالسلب ولا بالإيجاب، وليس

شيء منهما من الامور الاعتقادية المهمة المقصودة في الدين فإن كان ميتا فإلى رحمة الله، وإن كان حيا فهو في أداء ما في ذمته من أوامر الله. ومن آمن بأنه كان حيا ومأمورا بخرق سفينة المساكين العاملين في البحر لمصلحة ما، وبقتل الصبي المعصوم لحكمة في علم الله، وبإقامة جدار اليتيمين بلا أجرة ولا بدلٍ يصل إليه في وقت الحاجة الى لقمة طعام أو شربة ماء، وتيقن أن هذه الأمور تحققت في الواقع على رعاية أمر الله علم أن وجود رجلٍ بهذه الصفة من نوادر الزمان والأيام وأن بقاءه زماناً طويلاً ليس بأعجب من حدوث هذه الأمور في الأذهان والأفهام.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70)﴾

قوله تعالى ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى﴾ إستئناف لبيان ما جرى بينهما بعد الالتقاء.

فيقول قال موسى للخضر عليهما السلام بعد التفاهم والتعارف: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ أي هل تأذن وتجيز لي أن أتبعك وأصاحبك في السفر والحضر والمقام والمجلس وأعيش معك عيشة التلميذ مع الأستاذ المعلم له ﴿عَلَى﴾ شرط ﴿أَنْ تُعَلِّمَنِ﴾ وتبذل تعليمك إياي فيما يمكن ان اتعلمه ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ من العلوم اللدنية القابلة للتجاوز إلى الغير، وذلك لأجل رشدي وإصابتي لخير صالح لي في ديني ودنياي وفي معاشي ومعادي؟

فإن قيل كيف يتعلم موسى عليه السلام وهو صاحب التوراة ومن أولي العزم ومن الرسل البارزين على صفحات الايام من رجل غاية أمره أنه نبي لم يرسل أو رسول لم تتبين رسالته ومقامه وأنه أعلم من موسى؟ قلنا: يختص برحمته من يشاء وفوق كل ذي علم عليم، وعلوم الله متوفرة لا تحصيها ضابطة، وما أوتينا من العلم إلا قليلا. ويجوز أن يختص الخضر بعلوم لدنية ممتازة عما أوتي الخضر. وهذا الفارق تجده كثيرا بين المعاصرين من علماء الزمان، فكم من عالم متفرد بعلم أو علوم ليس منها عند غيره كثيره ولا قليله؟

﴿قَالَ﴾ الخضر في جوابه ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أتى بحرف التأكيد ولن النافية البليغة ونفي الإستطاعة لأن الصبر على المشاق ومعرفة أسرار ما يختلج في قلب الطالب موقوف على طاقة قوية واستطاعة مهمة فإذا انتفت الطاقة انتفى ما يبنى عليها من الصبر، فنفي الصبر كنفي رفع المتاع من صاحب يد ضعيفة، ونفي إستطاعته كنفيه ممن لا يد له، وسر ذلك أن أعمال الخضر كانت مخالفة ومباينة للشريعة السماوية الإعتيادية الجارية بين الأنام وموسى أرسل بتلك الشريعة، فاستطاعة صبر موسى عليها كاستطاعة من لا يد له على حمل المتاع حيث لا علم له بمبادئ هذه الأعمال وأسرارها، ولذلك عقبه بقوله ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ إيذانا بأنه يتولى أمورا خارجة عن نظام شريعة موسى، وصاحبها لا يتمالك الصبر على ما يخالفها.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ على ما أراه معك بلا اعتراض ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ أي شيئا مما تأمرني بعمله. أو إطاعة أمر يصدر منك عليّ في أي شيء أردته. وذكر المشيئة إن كان للتبرك فبها ونعمت، وإن كان للتعليق فهو من غاية التوفيق حيث يسد باب الكذبـ

عليه في وعده بإطاعته له.

﴿قَالَ﴾ الخضر عليه السلام: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي﴾ يا موسى ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ أي مما تشاهده من أعمالي فضلا عن المناقشة معي ﴿حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي حتى أبدي لك بيانا على ما تعلق به العيان.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (73) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (74)﴾

قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا﴾ أي الركنان في الموضوع. وهما المعلم والمتعلم ولم يضم إليهما يوشع لأنه بعد لم يرقَّع. أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما انهما انطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهما سفينة، فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نول أي أجرة ﴿حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ أي ركبا في السفينة المعهودة بين الناس في الإناقة وحسن الصنعة لم يمر في ذلك الوقت سفينة أحسن منها. ويروى أنها كانت ذاهبة إلى (ايلةَ) فلما دخلاها لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواحها بالقدوم، فـ ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ أي لغرض أن تغرقهم ولا يصلح ذلك لك حيث إنك من أهل التقوى، أو حتى يغرق أهلها ولو لم ترد ذلك فإنه أيضا مصيبة تحدث هناك وعلى كلتا الحالتين ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أي داهيا منكرا ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ وهو تذكير لما

ألقاه إليه أول الأمر ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ إعتذار بنسيان الوصية أي لا تؤاخذني بنسياني للوصية التي وصيتها بي فإن أول الناس أول ناسٍ. أو لا تؤاخذني بفعل اعتراض نسيت الوعد بتركه ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي﴾ أي ولا تحملني ﴿مِنْ أَمْرِي﴾ وهو اتباعك مع السمت والسكوت ﴿عُسْرًا﴾ أي صعوبة وهو انجاز الفراق بما لا يطاق ﴿فَانْطَلَقَا﴾ الفاء فصيحة أي فقبل عذره فخرجا من السفينة وانطلقا وهما يمشيان على الساحل، كما في الصحيح، وفي رواية مرا بقرية ﴿حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا﴾ يلعب مع الغلمان واسمه كما روي جيسور وكان أحسنهم ﴿فَقَتَلَهُ﴾ وفي طريق القتل روايات أقربها أنه أخذه وضرب رأسه بالجدار فمات.

﴿قَالَ﴾ موسى لما رأى ما رأى منه مستنكرا لعمله: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ أي طاهرة من الذنوب لم يبلغ زمان الكلفة وقوله ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي بغير قصاص نفس عليها وكان القصاص على الصغار في تلك الشريعة، وقد نقل البيهقي في كتاب المعرفة: أنه كان في شرعنا أيضا قبل الهجرة، ثم نسخ. ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ أي جدًّ منكر.

الجزء السادس عشر

<281>

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (75) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (76) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (78)﴾

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ وزيادة لك في هذه المرة لزيادة المكافحة والمصارحة له بالعجز عن صحبته.

﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ أي بلغت الى الغاية القصوى في الأسباب التي تعذر بسببها في مفارقتي حيث خالفتك مرارا ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ الجمهور على أنها بلدة أنطاكية ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ وكانوا لئاماً ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ غاية في اللؤم ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ أي يسقط من قدمه واختلال بنائه. والإرادة مجاز مرسل عن القرب منه ﴿فَأَقَامَهُ﴾ الخضر بيده ﴿قَالَ﴾

موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ تتقوى به على المعاش لاسيما في هذه البلدة البعيدة عن الكرامة والانتعاش ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ من تلك الأعمال الصادرة مني الموافقة لدستورنا والمخالفة لما أنت عليه من الشريعة السماوية.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (82)﴾

قوله ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ شروع في بيان تأويل الأعمال التي باشرها وتسببت في استنكار موسى عليه السلام لها فقال ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ أي التي خرقتها ﴿فَكَانَتْ﴾ ملكا ﴿لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ ويتعيشون بما يحصل من أجرة حمل الركاب وأمتعتهم في الذهاب والإياب ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي أجعلها ذات عيب بالخرق، ولم أرد إغراق أهلها كما زعمت لأني كنتُ عالما بأن الملك الظالم يمر عليها قريبا ويتركها لوجود العيب فيها ويصلحها أصحابها قبل دخولها في الأمواج والأماكن التي يحصل منها خطر دخول الماء فيها وغرقها ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ أي كل سفينة

حسنة غير معيبة وبرؤية العيب فيها خَلَصَت مِن الغَصْب. ولما كان العيب من الأمور الغير المحمودة نسب إرادته الى نفسهِ لصيانة جانب قدسه، وإن كان العيب والكمال كلاهما كمالاً بالنسبة الى انه آثار شخصه، ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ وهذا العمل وإن كان بظاهر الحال مقبوحا فهو بالنسبة إلى المآل ممدوح لأن من اغتصّ بالتمر وكان مضطرا في كشف الأمر استسهله بشربة من الخمر، فالفاسد صالح للخلاص مِن الأفسد، وهذا عينُ الحق والرشد، ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾ الذي قتلته ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ﴾ أي أبوه وأمه على سبيل التعليب كالقمرين والعُمرين ﴿مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي فخفنا خوفا شديدا أن يحمل هذا الولد السيئ الأخلاق في كبره أبويه اللذين يُسخران لأمره طغياناً عن الحدود، ومجاوزة عن شريعة المَعبود، وكفراً بالله الواجب الوجود.

ونسبة الخوف إليه تعالى لمجاورة أهل العرف إذ لا خوف يجري على من هو مُسلّط على كل أمر، أو معنى الخشية العلم أي فعلمنا أنه على تقدير بقائه في بغيه وارتقائه أن يغشيهما ما ذكرناه، وخلقه مع علمه بحاله من أسرار القدر وإلا فيردُ مثل ذلك على خلق الكفار من الجن والبشر ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ أي ذينك الأبوين ﴿خَيْرًا مِنْهُ﴾ أي من ذلك الولد الطاغي المنفور عنه ﴿زَكَاةً﴾ أي طهارةً في القلب ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي رحمة وشفقة للأبوين. والتفضيل عائد إلى اعتبار أصل الرحمة ووجودها غريزة في كل ولد. ونسبةُ الإرادة الى نفسه مع جانب قدسه لأن المأمور المختص يعتبر نفسه من عداد الآمر، ولما كان المتعلق من المحسنات علقها بها وأسندها إلى فاعلها ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ﴾ الـمُشْرِف على السقوط الذي اقمته ﴿فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ﴾ مات أبوهما وهما دون البلوغ ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾

التي أبت من عزِّ التضييف ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ أي مال مدفون من ذهب أو فضة، كما أخرجه البخاري في تأريخه. والكنز مصدر بمعنى المكنوز. ولو سقطَ الجِدارُ على قاعدته لظهر ذلك الكنز واستولى عليه غيرهما ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ مستحقا لأن يتولاه ربُّه ويحفظ ما يرتبط به من أموره وضياعه وظاهر الآية هو الأب الذي ولدهما. وروي أنه كان الاب السابع والله واسع الرحمة ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ الذي رباك على نظارة أعدى أعْدائك حيث أراد بك النمو والارتقاء على مدارج الإصطفاء ﴿أَنْ يَبْلُغَا﴾ أي اليتيمان ﴿أَشُدَّهُمَا﴾ أي سن الرشد والقوة في العقل ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ بأيديهما مع الصيانة بعد ملاحظة الأوراق الموجودة في صندوق الوالد الصالح ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ مفعول له لقوله أراد ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أي عن رأيي واجتهادي ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكرته لك ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي لم تستطع وهو من باب الإستفعال مضارع استطاع بهمزة الوصل، وأصله استطاع، وقد تحذف التاء تخفيفا، وحذفها هنا إشارة إلى أن وقت صحبتنا ضيق يناسب الحذف والإختصار.

فإن قلت: هب أن سيدنا موسى عليه السلام قبل ذلك التأويلَ من صاحبه الخضر لأن الله سبحانه وتعالى ذكر له أنه عبد من عباده وآتاه رحمة من عنده وعلمه من لدنه علماً، ولكن كيف يمكن لنا أن نقبل الأعمال المخالفة لظاهر الشريعة، مع أن الشرائع كلها اتفقت على وجوب صيانة الدين والنفس والعرض والعقل والمال؟ وأنا اذا قبلنا فتح مثل ذلك الباب على الناس لم يبق احترام للدين وأصوله. وقد صرح القطب الرباني الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس سره بأن جميع الأولياء لا يستمدون إلا من كلام الله ورسوله ولا يعملون إلا بظاهرهما. وقال سيد الطائفة الجنيد نور الله روحه: الطرق كلها مسدودة إلا على من اقتفى أثره الرسول عليه

الصلاة والسلام. وقال أيضا: من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا العلم لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة. وقد صرح الإمام الرباني مجدد الألف الثاني قدس سره في المكتوبات في مواضع عديدة بأن الإلهام لا يحل حراما ولا يحرم حلالاً، ويعلم من ذلك أنه لا مخالفة بين الشريعة والحقيقة والظاهر والباطن. وقال أيضا في المكتوب السادس والثلاثين من المجلّد الأول أيضا: للشريعة ثلاثة أجزاء: علمٌ، وعملٌ وإخلاص. فما لم تتحقق هذه الأجزاء لم تتحقق الشريعة، وإذا تحققت الشريعة حصل رضا الحق سبحانه وتعالى وهو فوقَ جميع السعادات الدنيوية والأخروية ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فالشريعة متكفلة بجميع السعادات ولم يبق مطلبٌ وراء الشريعة، فالطريقة والحقيقة اللتان امتاز بهما الصوفية كلتاهما خادمتان للشريعة في تكميل الجزء الثالث الذي هو الإخلاص، فالمقصود منهما تكميل الشريعة لا أمر آخر وراء ذلك.

وقال رحمه الله في المكتوب التاسع والعشرين من المجلد المذكور بعد تحقيق كثير: فتقرر أن طريق الوصول الى درجات القرب الإلهي جل شأنه سواء كان قرب النبوة أو قرب الولاية منحصرٌ في طريق الشريعة التي دعا إليها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وصارت مأمورا بها في آية ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ وآية ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ تدل على ذلك أيضا، وكل طريقٍ سوى هذا الطريق ضلالٌ، وكل طريقة ردتها الشريعة فهي زندقة. إنتهى كلامه.

والذي ينبغي أن يعلم أن كلام العارفين المحققين وان دل على أنه لا مخالفة بين الشريعة والطريقة والحقيقة لكنه يدل أيضا على أن في الحقيقة كشوفا وعلوما غيبية ولذا تراهم يقولون: علم الحقيقة هو العلم اللدنيّ وعلم المكاشفة وعلم الموهبة وعلم الاسرار والعلم المكنون وعلم الوراثة إلا

أن هذا لا يدل على المخالفة فإن الكشوف والعلوم الغيبية ثمرة الإخلاص الذي هو الجزء الثالث من أجزاء الشريعة فهي بالحقيقة مترتبة على الشريعة ونتيجة لها. ومع هذا لا تغير تلك الكشوف والعلوم الغيبية حكما شرعيا ولا تقيد مطلقا، ولا تطلق مقيدا فاحفظ هذا فالحفظ مبارك وحبذا.

قلت في الجواب: إن ما قلتم هو الحق والصواب ولا يفتح لأي إنسان ذلك الباب وكلما وجدنا شيئا مخالفا للكتاب والسنة وإجماع الأمة ولم تشمله أصول الأقيسة الجلية والاستدلال أنكرناه ورددناه على صاحبه ألا ترى أن سيدنا موسى عليه السلام لما رأى ما فعله الخضر عليه السلام مخالفا للشريعة التي نزلت عليه أنكره ورده عليه مع أنه كان من المناسب أن يصبر عليه ويسكت لأن الله هو الذي دله عليه وأرشده إليه ولكنه مع ذلك لما غلبته حرارة الشريعة والغيرة على الدين ما صبر بل رد وانكر نعم بعدَ أن بين له الخضر عليه السلام أسباب أعماله وأنه ما فعله عن أمره بل كان بأمر وارد من الله الواحد سكت عليه وفارقه، فظهر أن لله تعالى سنتين: سنة شرعية، وسنة عرشية. أما السنة الشرعية فهي في شريعته المنزلة على رسله الكرام من آدم إلى الخاتم صلى الله عليه وسلم وكلما رأى صاحب الشرع ما خالفه أنكره وحوله الى دار القضاء ليطبق عليه الحكم فالجزاء. وأما السنة العرشية فهي تنفيذ ما أراده بقدرته وله مأمورون على تطبيقها من الملائكة والجن والسباع والحشرات والرياح والسيول والزلازل والطوفان والأمراض والآفات... وما يعلم جنود ربك إلا هو. فكما أنه لا مجال لإنكار ما يحكم به في الأرض والسماوات من الكسوف والخسوف وتدمير البلاد بالبركان والزلازل، وإهلاك العباد بالطوفان والسيول والأمراض الفتاكة والحروب المدمرة وقتل النساء والأطفال والرجال والغلاء والقحط وسائر البلايا الخارجة من الأرض أو

النازلة من السماء، ولا ينكر عليه إرسال الملائكة بالويل على قوم وارسال عزرائيل لقبض أرواح آباء وأمهات وترك الأطفال في ويلات، كذلك لا ينكر عليه في إرسال عبد من عباده اخذ بتعليمه وإرشاده لخرق سفينة أو إهلاك واحد من الصغار، أو إقامة جدار للدار، مع أن اقامة الجدار إحسان لا ينكر وخرق السفينة من دفع الأفسد بالفاسد وهو الأصل المعتبر غير أن قتل الصغير فيه تعجيب لاهل التفكير. وعلى كل فنحن نؤمن بأن الخضر عليه السلام كان وليا مطيعا لربه في تنفيذ الأحكام أو رسولا برسالة خاصة كما للملائكة ونفذ ما أمر به الملك العلام والشرع أنكر عليه كما جرى لموسى عليه السلام وينكر على غيره ما يخالف ظاهر الإسلام. والله هو الهادي إلى سواء السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (86) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (87) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (88)﴾

قوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ كان السؤال على وجه الإمتحان والسائلون في المشهور قريش بتلقين اليهود. وقيل: اليهود

أنفسهم.

واختلف في شخص ذي القرنين على أقوال أشهرها وأقربها أنه: اسكندر ابن فيليبيس بن مهريم بن هرمس اليوناني. وكان سرير ملكه مقدونيا، وهي اليوم مقاطعة في اليونان. وهو الذي غلب على (دارا) مَلِكِ الفرس وتزوج ابنته، وقتل الرجل الفارسي الذي قتل دارا وجاء ليأخذ الجائزة منه وأظهر كرما وشجاعة وقد كان هذا الملك قبل الميلاد بنحو ثلاثمائة وثلاثين سنة، وقد تولى الملك بعد أبيه، وقد كان تلميذا لأرسطو، والناس اليوم يدرسون رسائل بينه وبين أستاذه في السياسة ذلك أنه لما دخل بلاد فارس رأى هناك رجالا ذوي شجاعة ووجاهة وأبهة وجمال من أبناء الملوك والأمراء فأراد قتلهم فاستشار أستاذه فأرسل إليه أن لا فضل في قتلهم وأن قتل الرؤساء تؤجج النار في قلوب الأمة ولا تخمد، وأمره أن ينعم عليهم ويعطي كلا منهم ملك أبيه، ويوقد بينهم العداوة والبغضاء دائما ويكون هو الحكم بينهم فيكون محبوبا فمشي على تلك السياسة. وبنى الأسكندرية بمصر وعاش ثلاثا وثلاثين سنة، واستولى على الغرب والشرق، ومات عند رجوعه من الهند قبل أن يصل إلى بلاده والمشهور أنه مات في العراق، قيل في قلعة مركز ناحية كولعنبر (خورمال)، وقيل: في قصبة الاسكندرية غربي بغداد الآن. ولما مات قامت بعده ملوك الطوائف التي أسسها. هذا رأي.

وهناك رأي آخر قاله أبو الريحان البيروني المنجم في كتابه المسمى بـ (الآثار الباقية من القرون الخالية) أنه من حميرَ واسمه أبو كرب ابن أفريقش، وأفريقش هذا قد رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض فمنها إلى تونس وغيرها، فسميت القارة كلها باسم (أفريقيا) هذا ملخص ما قاله العلماء.

وانما سمى ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس، أو لأنه كان على رأسه من شعره ضفيرتان، أو لأنه كان على تاج رأسه مادتان عاليتان من الجواهر تشبهان القرنين.

﴿قُلْ﴾ في جواب السائلين عن ذي القرنين ﴿سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي قرآنا نازلا من الله سبحانه وتعالى. ثم شرع في تلاوة الذكر فقال: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي جعلنا له قدرة وقوة من حيث: التدبير والرأي، وكثرة الجنود والآلات الحربية، وتنظيم الجيش، وتوفير المعيشة، وتقوية المعنويات، والتدريج في الحركات... ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ علما وعملا وصنعة ومالا ومعدات وأفرادا وآراء ﴿سَبَبًا﴾ أي طريقا يوصله إليه ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ يوصله إلى مقصوده، ولم يهمل ما آتيناه من جيشه وجنوده وغير ذلك، فتحرك نحو اليمين واستولى على البلاد والعباد ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ أي منتهى الأرض من جهة المغرب بحيث لا يقدر أحد على مجاوزته لكونه بحرا محيطا مائجا ليس فيه المعمورة الأرضية القريبة حتى يصل إليها الجيش بسهولة ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي ظن أن الشمس تغرب في مادة ذات حمأة وهي الطين الأسود وذلك لأن البحر كان واسعا لا يرى منتهاه والشمس عند غروبها فيه يتكدر محل غروبها كأنه ماء أسود، أو لأن قرص الشمس منعت عن رؤية ما تغرب فيه فيرى أسود مظلما ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا﴾ أي عند تلك العين أي المادة المائية على الساحل ﴿قَوْمًا﴾ ألبستهم من جلود السباع وأطعمتهم ما يلفظه البحر من الأسماك ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ والقول مفسر بالإلقاء في القلب بالتفكير السليم أو بالإلهام إن كان صالحا عابدا لله، أي فهمناه أن القوم قوم فاسدون، وقد باشروا أمورا يستحقون عليها العذاب لمخالفتهم لما ألقى إليهم من النصائح المشروعة، فأمرك الأن أحد شيئين: إما أن تعذبهم بلا

مهلة لاستحقاقهم السابق الثابت، وإما أن تتخذ فيهم حسنا أي وجها ذا حسن، وهو دعوتهم إلى التوبة عن الإفساد والرجوع إلى الحق والرشاد ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين بَعْدَ أن أفهم ذلك لأولئك القوم ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ نفسه ولم يقبل دعوتي ولم يتوجه الى الحق ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ بالقتل ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ أي منكرا فظيعا لائقا بالكافرين ﴿وَأَمَّا مَنْ آَمَنَ﴾ بالله ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ على موجب دعوتي ﴿فَلَهُ﴾ في الدارين ﴿جَزَاءً الْحُسْنَى﴾ أي فله المثوبة الحسنى جزاءً له ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ﴾ ما دام حيا ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي مما نأمر به ﴿يُسْرًا﴾ أي سهلا مُيَسَّراً غير شاق عليه. فمن عصى وخالفه قال العقاب أو فرَّ من ذلك المكان ومن أطاعه فاز بالخيرات.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (89) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (90) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (91) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (95) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (96) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (97) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (99) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (100) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (101)﴾

قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي طريقا راجعا من مغرب الشمس موصلا إلى مشرقها ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ يعني الموضع الذي تطلع منه الشمس أولاً من معمورة الأرض بالنسبةِ إلى أهل المغرب ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي لباسا. يعني أنهم كانوا بعيدين عن التمدن، وعمل النسيج والحياكة فألبستهم إما من جلود السباع وكانت قليلة نادرة، أو كانت حرارة من الشمس تأتيهم كالفقراء في أوقات البرد يتدفأون بها من البرودة، ومعلوم أن ذلك كان في وقت الحاجة الى اللباس من وقت الخريف والشتاء، أو لم تكن لهم أبنية يسكنون فيها كما قيل وهو في غاية البعد، لأن تلك البلاد كانت قابلة لحفر السراديب ورفع الأبنية بها إلا أهل الجزر البحرية فإنهم ما كانوا يبنون بها لكثرة الأمواج والجزر والمدّ الذي تتسبب في هدم الأبنية. وجعل العبارة كناية عن فقر حالهم وقلة أموالهم أولى وأنسب لأن نظير العبارة دائر في زماننا أيضا بالنسبة الى بعض الناس، فيقال: فراشهم الأرض ولحافهم السماء.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي أمر ذي القرنين في بلوغه أقطار الأرض ذلك ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من الجنود والمعدات والأرزاق ﴿خُبْرًا﴾ أي علما ولا يعلم به غيرنا لكثرته وخروجه عن الإحصاء المعتاد لغالب العباد.

<293>

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي سلك طريقا ثالثا متوجها نحو الشمال ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ أي بين الجبلين الآتي أحدهما من جهة الشرق والآخر من جهة الغرب المتقاربين وبينهما فتحة يعبر منها العابرون من الجنوب الى الشمال وبالعكس.

وكان وراءهما من الناحية الشمالية الباردة جدا قوم متوحشون كما قال تعالى ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أي وجد ذو القرنين بوسيلة الإستعلامات العسكرية وراء السدين قوما في غاية الوحشية والغباوة لا يكادون يفقهون قولا يقال لهم لأجل التفاهم، أو لبعدهم من الناس الآخرين وعدم احتكاكهم بهم، أو لشرارة طبعهم فإنهم كانوا بحيث يتحاشى الناس عن الوصول إليهم للخوف من صولتهم وقساوتهم وهجماتهم.

﴿قَالُوا﴾ أي قال الذين من دونهم، أي القوم الذين تقرب بلادهم من بلادهم وهم الصينيون الساكنون في القرب من فتحة الجبلين الذين كانوا يتأذون من صولاتهم من وراء الجبلين عليهم: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ أي إن القوم الذين اشتهروا باسم يأجوج إذا عُرِبَ عنوانهم، وهم قبيلتان من أولاد يافث ابن نوح عليه السلام، ويعرفون بالمغول في تعداد أسماء الأمم في الأرض ويسكنون في الشمال الشرقي من قارة آسيا ﴿مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي في أرضنا بالقتل وأخذ الأموال والأرزاق والتعرض للأعراض. قيل: انهم كانوا يخرجون عندما انكشفت الثلوج والحواجز أمامهم إلى البلاد المجاورة الجنوبية فيغيرون عليهم ويقتلونهم ويأخذون ما لديهم كالوحوش الضارية الواصلة الى المواشي الضعيفة ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أي خراجا وجُعْلاً من أموالنا ﴿عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾.

﴿قَالَ﴾ ذو القرنين في جوابهم: ﴿مَا مَكَّنِّي﴾ بتشديد الكاف وادغام نون اللام في نون الوقاية من باب التفعيل، وقرئ مكنَّنَي بالفك ﴿فِيهِ رَبِّي﴾ أي جعلني مكينا قادرا عليه ﴿خَيْرٌ﴾ أي مما تريدون أن تبذلوه لي من الخراج، فإن صاحب شرف التاج يضع عن الأمة الخراج ولا يجعل عليهم ما يوجب الإحراج ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ وعمل يدوي نتقوى به على المقصود ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أي حاجزا حصينا وحجابا منيعا يسد عنهم طريق الوصول إليكم بسهولة، فإني آمر الصُّناع يُذيبونَ الحديد ويصبونه في القالب كاللبنات وأبني به السدَّ فـ ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ أي قِطَعِ الحديد المصبوبة فَأتوه بِهِ بَعد الصنع ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى﴾ أي عُمالهُ البناؤن ﴿بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي جعلوا ما بين الجبلين مملوء من المواد الحديدية بحيث ساوى السد الجبلين يمنة ويسرة في العلو، وبعد إكمال هذه العملية وضع المنافخ على المواد الحديدية بالطرق العلمية ﴿قَالَ﴾ للعمال: ﴿انْفُخُوا﴾ بالمنافخ في زبر الحديد الموضوعة بين الجبلين ﴿حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ قال ﴿آتُونِي﴾ أيها المتولون أمر النحاس قطرا أي نحاسا مذابا ﴿أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي نحاسا مذابا فصار السد جبلا حديديا نافذا في جانبي الجبلين مساويا لهما في الإرتفاع غالبا عليهما في الملاسة والإمتناع من تنفيذ وسائل الصعود والإرتفاع ﴿فَمَا اسْطَاعُوا﴾ أي فما استطاع يأجوج ومأجوج ﴿أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ أي يعلوا عليه ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ أي فتح منافذ فيه للصعود عليه أو للخروج منه كالباب الى الناحية الجنوبية مما يلي الصين. فخلصوا من إفسادهم بتوفيق الله ذا القرنين على صنعِ السد في البين.

﴿قَالَ﴾ ذو القرنين بعد ذلك: ﴿هَذَا﴾ انسد وبناؤه ﴿رَحْمَةٌ﴾ عظيمة ﴿مِنْ رَبِّي﴾ أفاضها عليّ لنيل لسانِ الصدق في الآخرين والمثوبة الحسنى يوم الدين، وعلى الصينيين الساكنين في تلك الأصقاع لحفظهم من شر

المفسدين ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي وقت وعده بعبور المفسدين من ذلك الطريق ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أي أرضا مستوية ﴿وَكَانَ﴾ ولم يزل ﴿وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ ثابتا واقعا لا محالة.

﴿وَتَرَكْنَا﴾ أي صيرنا ﴿بَعْضَهُمْ﴾ أي بعضا من قوم يأجوج ومأجوج يومئذ ﴿يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي يدخل في بعض وراء السد في بلادهم لسدّ طريق الخروج عليهم ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ أي وسيأتي ويقرب وقت النفخ في الصور لخراب العالم ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ أي فنجمعهم عند ذلك جمعا للحساب على ما فعلوا بالأمم المجاورة وعلى ما ارتكبوا من فظائع الأعمال من القتال والهتك والدمار في البلاد والعباد ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ أي وأظهرناها لهم بلا خفاء واشتباه ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ أي في حجاب ساتر عن رؤية آياتي التي ينظر إليها فيسترشد بها ويؤخذ بها طريق الايمان والاعمال الصالحة والإخلاص ﴿وَكَانُوا﴾ مع وجود الغطاء على عيونهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي ليس عندهم استطاعة استماع لآياتي البينات.

وإذا ذكرنا الآية التي فيها بحث يأجوج ومأجوج فلا بأس أن ننقل لكم عبارة المفسر طنطاوي الجوهري للإطلاع على بعض المفاهيم. قال في هذا الموضوع: لقد كتب كاتب هندي حوالي سنة ألف وثمانمائة وتسع وتسعين 1899 ميلادية في مجلة (الهلال) يسأل علماء مصر والشام: أين يأجوج ومأجوج؟ وهل هم موجودون؟ وإذا كانوا موجودين فأين هم؟ والناس قد اطلعوا على أحوال أكثر الشعوب في الأرض وهل قول الله تعالى يتغير؟ واذا كان قول الله حقا وصدقا فأين هؤلاء؟ وقد كرر هذا الموضوع مجلة الهلال ثلاث مرات فلم يجب أحدٌ. وقد كنت إذ ذاك في أول خدمتي في المدارس المصرية بصفة مدرس، وكان لي إلمام بهذا الموضوع ولم أكن اطلعت على ما كتبته في اللطيفة الأولى كما ذكرته لك فكتبت ما يأتى

وأرسلته الى مجلة الهلال، وهذا اول موضوع كتبته ونشر في الجرائد فأحمد الله أنني وفقت أن أسير في تفسير القرآن اليوم سنة ألف وتسعمائة واربع وعشرين (1924) وإني أضم هذا الموضوع إليه بعد نشره في الجرائد بأمد طويل فهاكه:

فكتبت المقالة الثامنة التي كتبتها في كتابي نظام العالم والأمم: يأجوج ومأجوج أمتان ذكرتا في القرآن الشريف في سورة الكهف وسورة الأنبياء قال تعالى ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ.﴾ وقال في سورة الأنبياء قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ...﴾ الآية فلنجعل هاتين الآيتين موضوع بحثنا ضاربين صفحا عن وجوه التفسير التي ليس لها مساس به، ولنحصره في خمسة مباحث:
المبحث الأول في معنى لفظ يأجوج ومأجوج. المبحث الثاني في إفسادهم في الأرض، ويستلزم ذكر تأريخهم. المبحث الثالث في معنى فتحت يأجوج ومأجوج، وذكر خروجهم وتعيين زمنه وما يشهد له من الأحاديث وأقوال العلماء ومكاتبات الملوك. المبحث الرابع في ذكر معنى الحدب لغة ومقارنته بكلام المؤرخين. المبحث الخامس اقتراب الوعد الحق.

المبحث الأول:

أصل يأجوج ومأجوج من أولاد يافث بن نوح، مأخوذان من أجيج النار وهو ضوؤها وشررها تشيران لكثرتهم وشدتهم. وذكر بعض المدققين في البحث عن تأصيلهم أن أصل المغول والتتر من رجل واحد يقال له (تُرك) وهو نفس الذي سماه أبو الفداء باسم مأجوج فيظهر من هذا أن المغول والتتر هم المقصودون بيأجوج ومأجوج، وهم كانوا يشغلون

الجزء الشمالي من آسيا تمتد بلادهم من (التبت والصين) إلى المحيط المتجمد الشمالي وتنتهي غربا بما يلي بلاد التركستان كما في (فاكهة الخلفاء) وابن مسكويه في (تهذيب الاخلاق) وفي رسائل إخوان الصفا فقد ذكروا أن هؤلاء هم قوم يأجوج ومأجوج.

المبحث الثاني في الكلام على إفسادهم في الأرض:

وقد ذكر المؤرخون أن هذه الأمة كانت تغير قديماً في أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها فكم أفسدوا وقبلوا الأمم قلباً قبل زمن النبوة ودمروا العالم تدميرا؟ فهم مفسدون في الأرض بنص القرآن وشهادة التأريخ. فقد ذكروا أن منهم الأمم المتوحشة والسيول الجارفة التي انحدرت من الهضبات المرتفعة من آسيا الوسطى، وذهبت الى أوربا في قديم العهد فمنهم أمة (السيت) و(السمرياق) و(المسجيت) و(الهون). وكم أغاروا على بلاد الصين وعلى أمم آسيا الغربية التي كانت مقر الأنبياء؟ وكانوا يحذرون قومهم من هؤلاء الأمم قديماً قبل نزول القرآن كما تقدم في بعض الأحاديث أيضاً. ثم إنهم لم يزالوا في حدود بلادهم لا يتجاوزونها بعد زمن النبوة إلى أن ظهرت الداهية الدهياء والغارة الشعواء من تلك الأمم المتوحشة الرحالة، إذ ظهر منهم رجل يسمى (تموجين) لقب نفسه (جنكيز خان) وقال مؤرخو الأفرنج أن معناه بلغة المغول (مَلِكَ العالم)[3].

ولقد ملك من بعده مشارق الأرض ومغاربها إذا أعدَّ نفسه فاتحاً لكل العالم، وكان خروجه هو وقومه من الهضبات المرتفعة والجبال الشاهقة التي في آسيا الوسطى في أوائل القرن السابع من الهجرة، فإنه بَعْدَ أنْ جمعَ أمة التتار تحت حكمه أخضع الصينَ الشمالية أولا. ثم ذهب الى

---

[3] قلت: بل معناه مثير الحرب، لأن الكلمة مركبة من {جنگ} و{انگيز} والأولى بمعنى الحرب، والثانية المثير.

بلاد الإسلام فأخضع السلطان قطب الدين محمد بن تكش علاء الدين بن أرسلان بن محمد من الملوك السلجوقية ملك خوارزم لأسباب سنذكرها. وكان يمتد ملكه على بلاد التركستان والفرس وقد دافع ابنه جلال الدين مدافعة الأبطال لرد هجماتهم فلم يرد شيئا، وسقطت الدولة الخوارزمية بعد حرب دامت عشر سنين. وقد فعلوا بهذه الدولة من المنكرات والفظائع ما لم يسمع مثله في التاريخ. فلم يبقوا على رجل ولا امرأة ولا صبي ولا صبية فَقَتَلوا الرجال وسبوا النساء وارتكبوا الفواحش أنواعاً. ولقد حسبوا القتلى في مدينة خوارزم وحدها فلحق كل واحد من جموع (جنكيز خان) التي لا تحصى عدا أربعة وعشرون قتيلا، وأحرقوا المدينة، وهدموا أسوارها وأجروا بها الدماء أنهاراً فضلا عما فعلوه بسمرقند وبخارى وغيرهما، وفتكوا بأهل نيسابور وأفنوهم عن آخرهم حتى الأطفال والحيوانات والقطط والكلاب، وأحرقوا البلد وقد عدت القتلى في واقعة (مرو) فكانوا مليونا وثلاثمائة وثلاثين الفا! هذا ما أمكن ضبطه وهذه نبذة يسيرة بل قطرة من بحر فظائعهم. راجع دائرة المعارف، وابن خلدون، وفاكهة الخلفاء.

وقس على ما ذكرناه جميع البلاد التي سنذكرها فقد أخضعوا بلاد الهند ومات (جنكيز خان) بعد قفوله من غزوها. ولما ملك بعده ابنهُ (آقطاى) أغار ابن اخيه المدعو (باتو) على الروس سنة سبعمائة واثنتين وعشرين هجرية ودمروا (بولونيا) وبلاد المجر وأحرقوا وخربوا ومات (آقطاى) فقام مقامه (جالوك) فحارب ملك الروم وألجأه الى دفع الجزية ثم مات جالوك، وقام مقامه ابن أخيه (منجوا) فكلف أخويه (كيلاى) و(هولاكو) أن يستمروا في طريق الفتح فاتجه الأول إلى بلاد الصين وزحف هولاكو على الممالك الإسلامية ومقر الخلافة العباسية، وكان

الخليفة إذ ذاك (المستعصم بالله) فأراد أن يدخل إلى هؤلاء الباغين من طريق المداولات، وأخذت بغداد عنوة في أواسط القرن السابع من الهجرة، وأسلمت للسلب والنهب سبعة أيام سالت فيها الدماء أنهرا! وهو أمر معلوم مشهور، وطرحوا كتب العلم في دجلة فجعلوها جسرا يمرون عليه بخيولهم! وهذا الخليفة بعدما أحضر لتسليم ما لديه من الكنوز التي لا تحصى، وقد ورثها من أجداده ذبح وعلقت جثته في ذنب حصان، وساروا بها بين أسوار مدينة بغداد! وبه انتهت الخلافة العباسية ببغداد.

ولما استولت ذرية (جنكيزخان) على آسيا كلها وأوربا الشرقية اقتسموا بينهم الفتوحات وأنشأوا منها أربع ممالك منفصلة فاختصت أسرة (كيلاى) بالصين والمغول، وملك جافاتاى أخو (آقطاى) تركستان، وملكت ذرية (باطوخان) البلاد التي على شواطئ نهر (فلجاى) (أولكا) وصارت الروسيا تدفع الجزية إليها زمنا طويلا، وانضمت بلاد الفرس الى (هولاكو) الذي دمر بغداد وقد استمرت فتوحات المغول الى بلاد الشام.

المبحث الثالث قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾

أي فتحت جهتهم على أحد تفسيرين. ولقد فتحت تلك الجهة في أوائل القرن السابع من الهجرة كما ذكرنا في التأريخ.
وخرج جنكيز خان وجنوده وملكوا مشارق الأرض ومغاربها كما أوضحنا. وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشير إلى ذلك كقوله صلى الله عليه وسلم ((اتركوا الترك ماتركوكم، فإن أول من يَسلب أمتي ملكهم بنو قنطورا)) أي الترك، ومع ملاحظة ما ذكرناه في التاريخ لم يسلب الأمة الإسلامية ملكها إلا هؤلاء.
وقد ورد أيضا في حديث يأجوج ومأجوج أن مقدمتهم تكون في الشام وساقتهم بخراسان.

فهذه اشارة الى سيرهم واتجاههم وطريق منتهى ملكهم اذ لم يتجاوز الشام الى مصر ولا إلى أفريقيا. وقد ورد أيضا أن يأجوج ومأجوج لا يدخلون مكة ولا المدينة ولا البيت المقدس، ومن العجيب أن جنكيزخان وقومه وذريته طافوا الأرض شرقا وغربا، ولم نعثر فيما اطلعنا عليه أنهم دخلوا أحد الأماكن الثلاثة فما أجلها من معجزة ظاهرة.

ثم إن (جنكيزخان) هو المراد بحديث ((يخرج في آخر الزمان رجل يسمى أمير العصب، أصحابه محسورون محقرون مقصون عن أبواب السلطان، يأتونه من كل فج عميق كأنهم فزع الطريق، يورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها)) وقد حمله بعض العلماء قديما على جنكيز خان المذكور.

وسبب خروجه وحصده الأرواح أن سلطان خوارزم المتقدم ذكره في التأريخ قتل رسل (جنكيز خان) والتجار المرسلين من بلاده وسلب أموالهم، وأغار على أطراف بلاده. فاغتاظ جنكيز خان وكتب اليه كتابا يهول فيه ويشنع على السلطان قال فيه ما نصه: (كيف تجرأتم على أصحابي ورجالي وأخذتم تجارتي ومالي؟ وهل ورد في دينكم أو جاز في اعتقادكم ويقينكم أن تريقوا دم الأبرياء أو تستحلوا اموال الاتقياء او تعادوا من لا عاداكم وتكدروا صفو عيش من صادقكم وصافاكم؟ اتحركون الفتنة النائمة وتنبهون الشرور الكامنة؟ أو ما جاءكم عن نبيكم سريكم؟ وعليكم أن تمنعوا عن السفاهة غويكم وعن ظلم الضعيف قويكم... أو ما خبركم مخبروكم وبلغكم عنه مرشدوكم ونبأكم محدثوكم اتركوا الترك ما تركوكم؟ وكيف تؤذون الجار وتسيئون الجوار ونبيكم قد اوصى به مع أنكم ماذقتم طعم شهد أوصى به ولا بلوتم شدائد أوصافه وأوصابه؟ ألا إن الفتنة نائمة فلا توقظوها، وهذه وصايا إليكم فعوها واحفظوها، وتلافوا هذا التلف قبل أن ينهض داعي الانتقام، وتقوم سوق الفتن، ويظهر من الشر ما بطن

ويروج بحر البلاء ويموج، وينفتح عليكم سد يأجوج ومأجوج، وسينصر الله المظلوم، والانتقام من الظالم أمر معلوم، ولابد أن الخالق القديم والحاكم الحكيم يظهر سر ربوبيته، وآثار عدله في بريته، فإن به الحول والقوة، ومنه النصرة مرجوة، فلترون من جزاء أفعالكم العجب ولينسلن عليكم يأجوج ومأجوج من كل حدب...) انتهى المقصود من عبارات كتاب جنكيزخان.

وانظر كيف كان صريحا بجميع ما يراد من هذه المقالة بأوفى بيان، وهذا مصداق ما رواه البخاري بسنده عن أم حبيبة بنت أبي سفيان عن زينب ابنة جحش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوما فزعا يقول: ((لا إله الا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليومَ من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا))، وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها. قالت زينب ابنة جحش: فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ فقال: ((نعم إذا كثر الخبث)) ولقد اتسع ذلك الفتح من ذلك التأريخ في القرن السابع من الهجرة حتى فتح عن آخر وخرج هؤلاء القوم كما أوضحنا.

ولقد عثر على آثاره كما قدمنا ولا ريب أن هؤلاء الأقوام كانوا غوغاء ولا رؤساء لهم، ولما صار لهم زعيم خرجوا بعد فتح السد في المدة المذكورة المجهولة فيها البلاد التي لم تعلم إلا بافتتاح المسلمين ما جاورها من بلاد خوارزم. وهذه من أجل المعجزات!

ثم إنه كان بين مملكة خوارزم وبلاد جنكيز خان مملكة تسمى (أنذار) كأنها حد فاصل بين الدولتين أو سد بين الأمتين فغزاهم الملك السلجوقي واستعبد أجنادهم فارتفع الحاجز بين الأمتين فسرت السرائر وابتهجت القلوب بهذا الفتح. وكان إذ ذاك في (نيسابور) عالمان فاضلان فأقاما العزاء على الإسلام وبكيا حتى أرويا الأرض بدموعهما. فَسُئِلا عن موجب هذا

البكاء والناس فرحون بنصر الله! فقالا: (وأنتم تَعُدون هذا الثلم فتحاً؟ وتتصورون هذا الفساد صلحا؟ وإنما هو مبدأ الخروج وتسليط العلوج وفتح سد يأجوج ومأجوج! ونحن نقيم العزاء على الاسلام والمسلمين، وما يحدث من هذا الفتح من الحيف على قواعد الدين، ولتعلمن نبأهُ بعدَ حين) فهذا تصريح من هذين العالمين بما أردناه، ونص في فحواه، ولا ضرورة لخروج كلامهما عن ظاهره. وانظر كيف ظهر صدق كلامهما في حينه كما قدمناه، وظهر التتر وأفنوا المسلمين، وماج الناس بعضهم في بعض فلقد اضطرب أهل آسيا وأخذوا يرتحلون من منازلهم فرارا وكذلك أهل اوربا.

المبحث الرابع:

قال تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ الحدب ما ارتفع من الأرض، وينسلون أي يسرعون في النزول في الأكام والتلال المرتفعة، وهذه الحالة منطبقة تماما على قوم جنكيزخان المتقدمين، فإنهم بإجماع مؤرخي العرب والإفرنج كان خروجهم من هضبات آسيا الوسطى وجد بها كما ذكرنا.

المبحث الخامس:

قال تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ أي القيامة ويؤخذ منه ومن سورة الكهف قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ في مساق قصة يأجوج ومأجوج أن خروجهم قرب الساعة. ولكن هذا لا يدلنا على أنه لا فاصل بينه وبين الساعة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾؟ وقوله صلى الله عليه وسلم: ((بعثت أنا والساعة كهاتين)) وأشار بالسبابة والوسطى. ومع ذلك فقد مضى نيف

وثلاثمائة وألف سنة. فهكذا قال في آية يأجوج ومأجوج ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ فكلاهما إقتراب، ورب قائل يقول: أين الإقتراب في الموضوعين؟ قلنا: معلوم أن ما مضى من الزمان لا يتناوله الإحصاء وما بقي من عمر الأرض قدره يسير جدا بالنسبة لذلك، ونحن لقصر حياتنا نعد ذلك بُعدا ويعده الله الباقي الدائم قُرباً. قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (6) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (7)﴾ فآلاف السنين لا تنافي القرب مهما امتدت وطالت بالنسبة إلى الزمن كله، إذ من البديهي أن الآلاف لا تذكر في جانب الملايين. ولذلك ورد في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((ليحجنّ البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج)) وهذا دليل على أن الناس يستبدلون من بعد خوفهم أمنا ويعبدون الله عز وجل، وهذا ما عنّ لي، وهذا ما كنت أجبت به عن سؤال الأديب الهندي في حينه من أمد غير بعيد في مجلة الهلال في آخر القرن التاسع عشر. إنتهى.

ثم كتب بعد صحيفتين. ما نصه: فائدة ومن العجب أن الأخبار التي ترد الآن من الشرق الأقصى تبين أن بلاد الصين منقسمة قسمين: قسم الجنوب، وقسم الشمال، فقسم الجنوب اشتهروا بأنهم يحافظون على البلاد، وقسم الشمال متهمون في وطنيتهم وصدقها. وجاء في الأخبار الآن أن عسكر التتار يحاربون مع أحد الفريقين المتحاربين، وأن فرقة من فرق جيوشهم تسمى (الجنكيزخانية). فلما قرأت هذا الاسم في أخبار البرق العامة عجبت كل العجب، وأيقنت أن التتار الذين مزقوا العالم تمزيقا لا يزالون يحافظون على تأريخهم ومجدهم وذكر أسلافهم وعظمائهم بدليل أنهم سموا فرقة باسم (جنكيزخان). الذي شتت شمل المسلمين قديما وشمل أكثر الأمم هو وذريته. وقد جاء في الأخبار اليوم (أي 7 يونيه سنة 1928) أن الوطنيين في الصين دخلوا (بكين) العاصمة أفلا ترى أن العالم الذي

نعيش فيه سينقلب انقلابا تاما؟ الصين ثلث العالم وهي أمة واحدة وقد ارتقت. أفلا يقال أنهم يعيدون الكرة مرة أخرى ويحصل في الأرض اضطراب آخر وهلاك لا ندريه مصداقا للآية؟ أليس ذلك هو الذي أخبر به (غليوم) ملك الألمان سابقا إذ قال (ويل لأوروبا من الصين) وسماه (الخطر الأصفر) أفلا يكون مبدأ الخطر قد ابتدأ هذا اليوم إذ أصبحت الصين مملكة واحدة راقية؟ ألله أعلم بالمستقبل. فإذا صح هذا كان الخروج الأول خروجا جزئيا لتأديب المسلمين على كسلهم ونومهم العميق وجهلهم، لأن قطب الدين أرسلان كان يجهل هو والعلماء قوة القوم وعظمتهم، ولذلك قتل رسلهم التي أرسلوها، فلو كان يعلم قوتهم لأكرم رسلهم.

ويكون قوله صلى الله عليه وسلم ((ويل للعرب من شر قد اقترب)) الخ راجعا للخروج الأول. أما خروجهم الثاني فهو الذي يقلب الأرض قلبا كيف لا والحرب اليوم بالغازات الخانقة والمعمية والمهلكة، فإذا خرجوا أهلكوا الحرث والنسل كما خرجوا قديما قبل التأريخ، وكونوا أمما في أوربا ثم خرجوا ثانيا لإبادة ملك العرب، والآن يخرجون لقلب وجه الأرض ويكون قوله صلى الله عليه وسلم ((إن الناس يحجون ويعتمرون بعد خروجهم)) راجع للخروج السابق. أما الثاني فلا ندري ما الله فاعل بالناس والله يعلم وانتم لا تعلمون. فجدير بالأمم الإسلامية أن يفكروا في مستقبلهم فإنهم اليوم بين أوربا الظالمة والشرق الأقصى.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (102) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (106) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (107) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (108)﴾

قوله تعالى ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الإستفهام إنكاري، وحَسَّنَ موقعه وقوعه بعد بيان إحاطة علمه بما يسأل عنه ويجاب من الأمور الغيبية الماضية والإستقبالية. وشمول قدرته لكل ممكن من الممكنات التي تعلقت إرادته بوصول الناس اليها علما وعملا. أي أبعد ثبوت وجود واجب كذلك ظن ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل الكتاب والمشركين إصابتهم ونجاحهم في ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ من الملائكة والأنبياء وغيرهم ﴿مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ وأنصاراً لهم على مطالبهم السيئة ومآربهم الخبيثة ومع ذلك يتركون ولا يعاقَبون؟ ! كلا ثم كلا ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ وهيأنا ﴿جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ﴾ المعهودين وأمثالهم ﴿نُزُلًا﴾ كشيء يحضر ويعد لتمتع الواردين.

﴿قُلْ﴾ يا حبيبي: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ منصوب على التمييز، وجاء به جمعا مع أن الأصل في التمييز الإفراد للدلالة صراحةً على تنوع أعمالهم، أي ننبئكم بالذين هم أخسر الناس من حيث العمل وجزاؤه ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي ضاع سعيهم ولم ينتج لهم خيرا ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿هُمْ يَحْسَبُونَ﴾ أي يظنون ﴿أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي أنهم يعملون ما يعملون على الوجه اللائق الموافق لنيل السعادة الإنسانية ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي بالآيات البينات الدالة على وجوده ووحدته وسائر

صفاته ﴿وَلِقَائِهِ﴾ أي البعث والحشر والحساب والميزان، ونتيجة ذلك من الجزاء هناك ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ وسقطت عن درجة الإعتبار بالمعيار لكفرهم بالله الواحد القهار ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ أي فلا نهتم بهم ولا تعتبر لأعمالهم قيمة تنفعهم يومَ الحاجةِ إليها ﴿ذَلِكَ﴾ أي الأمر والشأن ذلك وهو خفي يفسره قوله ﴿جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آَيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ أي مَهزوءً بها.

ولما ذكر أحوال الكافرين وما لهم بين على عادته في كتابه أحوال المقابلين لهم وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾ أي الجنات المشتملة على البساتين نزلا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي مقدرين الخلود فيها ﴿لَا يَبْغُونَ﴾ أي لا يطلبون ﴿عَنْهَا حِوَلًا﴾ مصدر كالصغر والكبر أي لا يطلبون عنها تحولا إذ لا يتصورون أن يحصل لهم شيء أعز وألذ من ذلك فيطمئنون بها والحمد لله.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (109) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110)﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا﴾ أمرٌ ناشئ من فيضان تجليات علمهِ وتعلقات قدرته بالممكنات، يعني قل للناس يا حبيبي ﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ﴾ وجنس المياه السيالة ﴿مِدَادًا لِ﴾ تحرير كلمات ﴿رَبِّي﴾ أي كلماته الدالة على تعلقات علمه وإرادته وقدرته وتنفيذها لما يريده تعالى

﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ وانتهى ماؤه ويبس مع كثرته وفيضانه ووفرته ﴿قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ﴾ وتنتهي ﴿كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ﴾ أي بمثل ذلك البحر أو أضعافه ﴿مَدَدًا﴾ عونا وزيادة عليه، وذلك لأن البحر وأضعافه من الممكنات متناهية وكلماته تعالى الحاكية عما جرى ويجري اللازمة لذاته تعالى من الأزل إلى الأبد غير متناهية، فلا تتساوى كلماته وما خلقه من مقدوراته من البحر أو أضعافه، قال بعض العلماء على وجه اللطيفة: لا تكفى كل قطرة منه لتحرير ما جرى عليها من الأحوال فضلا عن تحرير غيرها.

﴿قُلْ﴾ يا رسولي بعد بيان شأن الكلمات: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ ولا أجمع بين البشرية والإحاطة بكلمات الله تعالى وبيان كل ما تسألونني عنه لولا أن يمن الله عليّ بالبيان، ولا يلزم من ذلك أن لا أكون رسولا فإنه خصني رحمة وفضلا بالوحي و﴿يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لا يتجاوزه إلى جواز الإشراك به تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ لقاء ممتازا بالعز والكرامة ورؤية وجهه الكريم يوم القيامة فليعمل عملا صالحا مناسبا للقائه حسب وعده ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ لا إشراكا جليا كعبادة الأصنام ولا خفيا كما يكون في عبادة اللئام رياءً وسمعة موجبة للآثام، فإنه تعالى لا يقبل إلا عبادة المخلصين جعلنا الله منهم برحمته إنه أرحم الراحمين.

ومما يجب أن يعلم أن التوحيد الخالص لله تعالى يتم بتوحيده في وجوب الوجود، أي أنه لا واجب سواه وغيره من الممكنات المستوى وجودها وعدمها، وفي الخالقية أي أنه لا خالق سواه، وفي المعبودية أي أنه لا معبود بحق سواه،

فمن آمن بوحدته تعالى فيها فهو الموحدُ، وليس من الإشراك له تعالى مباشرة الأسباب التي قررها الباري تعالى كالاستفادة من الأستاذ المفيد، والإستمداد من المرشد الرشيد، وطلب العون من الناس فيما يحتاج فيه إلى التعاون. وأما من جعل الرياء شركا خفيا فمراده إذا كان عمله لغير الله تعالى كأن يعملَ له ويطلب الثواب منه، وإلاٍ فالمجاهد الذي يعمل لإعلاء كلمة الله تعالى ونيل الغنيمة معاً فهو مؤمن موحد غير مشرك، ولكنه ينقص من أجره بقدر نية نيلها فقط فاغتنم ذلك فإنه الحق الحقيق بالقبول.

<309>

سورة مريم، مكية، وهي ثمان وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كهيعص (1) ذِكْـرُ رَحْمَـةِ رَبِّكَ عَبْـدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نَـادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَـيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِـدُعَائِكَ رَبِّ شَـقِيًّا (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَـوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَـانَتِ امْـرَأَتِي عَـاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَـرِثُنِي وَيَـرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُـوبَ وَاجْعَلْـهُ رَبِّ رَضِيًّا (6) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَـلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَـدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَـرِ عِتِيًّا (8) قَـالَ كَـذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَـيْئًا (9) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُـكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (10) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْـرَابِ فَـأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِـيًّا (11) يَـا يَحْيَى خُـذِ الْكِتَـابَ بِقُـوَّةٍ وَآتَيْنَـاهُ الْحُكْمَ صَـبِيًّا (12) وَحَنَانًـا مِنْ لَـدُنَّا وَزَكَـاةً وَكَانَ تَقِيًّا (13) وَبَـرًّا بِوَالِدَيْـهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِـيًّا (14) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (15)﴾

قوله تعالى ﴿كهيعص﴾ روي في معنى هذه العبارة أقوال منها أنها اسم لله تعالى، ومنها أنها اسم للقرآن، ومنها أنها اسم للسورة، ومنها أن تلك الأحرف للإشارة إلى معان متمايزة. وفوض بعضٌ علم حقيقة ذلك إلى حضرة علام الغيوب. وهذا القول هو الذي أعتقده، فإن القرآن الكريم بيان للناس، وليس كل كلام منه بيانا لكل إنسان. فالظاهر أن هذه الأحرف التي افتتحت بها السور العديدة رموز بين الله وبين رسوله صلى الله عليه وسلم، وكان المقصود منها معلوما عنده صلى الله عليه وسلم. وإعرابها مبني على المقصود منها فإذا كانت اسما للقرآن أو السورة جاز أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف أو مبتدأ وخبره قوله ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ أي هذا القرآن أو هذه السورة مشتملة على ذكر رحمة ربك عبده زكريا.

ويحتوى على بيان كرم الباري سبحانه وتعالى وإحسانه إلى عبده زكريا عليه السلام، ففي العبارة إضافات متتالية الاختصاصات متعالية، أي أن هذه السورة مشتملة على بيان الرحمة الواسعة الفائضة من الخالق العظيم الشأن الذي رباك ورقى بك مدارج العلو، وأوصلك مقام النبوة والرسالة العامة، وهو الرب الذي تعرفه بإفاضة هذه النعمة الجليلة عليك رحم الإنسان الذي اتصف برتبة عبوديته له وهو زكريا يليه السلام.

فقوله ﴿زَكَرِيَّا﴾ بدل أو عطف بيان للعبد وقوله ﴿إِذْ نَادَى﴾ ظرف لرحمة ربك، أي رحمه إذ ناداه بصفة أنه رباه وأنعم عليه بتربية جَميلة وتَعْليةٍ جَليلَةٍ، فأوصَلَه من العدم الى الوجود، ومن الضعف الى القوة والفتوة، ومن الجهل الى العلم المعتاد بالأمور العامة، ومنها الى العلم بأسرار الباري في خليقته، ومنها الى افاضة العلم بشريعته

بأن جَعَله رسولاً من رسل بني إسرائيل، وكان نداؤه له ﴿نِدَاءً خَفِيًّا﴾ مستورا من الناس ومن اسماعهم، أي أنه كان في معبده الخاص وعند اعتزاله عن الناس لعبادة ربّه، فناداه بوصف الربوبية و﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي ضعف العظم الذي هو عماد الجسد والهيكل الخاص ضعفا ينذر بالموت والفناء ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ تمييز من نسبة الإشتعال الى الرأس ومحول عن الفاعل أي اشتعل شيب الرأس، ومعناه أن شعر الرأس ابيض كلُّه وصفا البياض من الشيب، فصار كلمعةٍ ذات بريقٍ ولمعانٍ، وأنا إذ أناديك أناديك على رغبة في الإجابة وثقة بسعة رحمتك العامة للناس والخاصة بالنسبة إليّ إذ ﴿لَمْ أَكُنْ﴾ في سالف الزمان إلى الآن ﴿بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي لم أكن في دعائي إياك خائبا في وقتٍ من الأوقات سواء دعوتُك لدفع آفة من الآفات أو جلب كرم وهبة من الهبات، ﴿وَ﴾ دعائي هذا مقرون بخوف البلاء فـ ﴿إِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ أي الرؤساءَ ﴿مِنْ وَرَائِي﴾، والمراد بنو أعمامِي المتوجهين إلى الدنيا الذين لا يُراعون قواعد الشريعة فأخاف فوات تراث النبوة والرسالة فينا ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ أي لا تلد من حين شبابها الى شيبها.

﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ أي ولدا من صلبي ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ والجملة صفة لقوله وليا وآل الرجل خاصته الذين يؤول إليه أمرهم للقرابة أو الصحبة أو الموافقة في الدين ويعقوب هو ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

والمراد يرثني ويرث من آل يعقوب النبوة والرسالة والقيام بأمر الدين وتوجيه الأمة الى رب العالمين، على نهج قوله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا. وليس المراد إرث المال والملك لأن آل يعقوب من عهده إلى عهد زكريا عليه السلام ما كان يعلم عددهم وأحوالهم إلا الله فلا ينال أي واحد منهم من متملكات آل يعقوب إلا قرصة

وهي بالفرصة. فليس في الآية منافاة مع قوله صلى الله عليه وسلم ((نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة)) لأن الحديث الشريف في الملك والمال، ودعوة زكريا عليه السلام في النبوة والإجلال والدين، ولما كانت النبوة موهوبة والإرث كالموهوب لأنه ليس تملكا اختياريا ناسبه التعبير عن وصولها إلى النبي بالتوريث وقيل أراد بالأول النبوة وبالثاني الملك والرئاسة. ويؤيد ذلك ما روي أن بني ماثان كانوا رؤوس بني إسرائيل وملوكهم، وكان زكريا عليه السلام رئيس الأحبار يومئذ، فأراد أن يرث ولده الحبورة ويرث من بني ماثان ملكهم أيضا، فتكون الوراثة مختلفة في المتعاطفين. ويؤيد ذلك قوله ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي مرضيا عندك قولا وفعلا، فإن الملوك قلما يرضى عنهم، فأجابه ربه واستجاب نداء عبده ودعاءه وقال ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾ وكان القول بواسطة الملك جبريل عليه السلام، والغلام الولد الذكر، وفي تعيين اسمه عليه السلام تأكيد له وتشريف له عليه السلام من حيث أنه تعالى وضع له الاسم المشعر ببقائه وحياته حياة مباركة طيبة، ولذلك قال: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي شريكا وعديلا له في هذا الاسم، فلما علم باستجابة ربه له وعلم أن امرأته عجوز وهو كذلك استأنف و﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ عقيما ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ حال مؤكدة لاستبعاد حدوث الولد له. والعتي: مصدر بمعنى اليبس والقحول في المفاصل. وأصله عتوو كقعود قلبنا الواو المتطرفة المضموم ما قبلها ياء، فقلبنا الواو الواقعة قبلها ياء لقاعدة الاجتماع، وأدغمنا الياء في الياء، وكسرنا ما قبلها وما يليها للمناسبة واللين في اللسان فصار عِتِيا. أي قد بلغتُ انا من أجل كبر السن يبسا وقحولا، أو حالة لا سبيلَ إلى إصلاحها.

وإنما قال عليه السلام ذلك مع سبق دعائه وقوة يقينه بقدرة الله تعالى إستعظاما لا إستبعادا لأنه شهد وجود الولادة بدون السبب الاعتيادي وذلك مما لا بأس به ولو من الأنبياء والرسل عليهم السلام. وقد يقال: إنه سأل بذلك بعد تيقنه بحصول المقصود لإظهار قدرة واجب الوجود بين أهل الإيمان والجحود ليزداد الذين آمنوا إيمانا وليتنبه الجاحدون عسى أن يتوبوا إلى ربهم.

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ والمعنى قال الله تعالى كذلكَ قالَ ربكَ، وقال هو عليّ هين أي سهلٌ ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ أي وما كُنتَ مَوجوداً بل كنت معدوما. فالخلق وإن كان على سبيل تسلسل الأسباب الإعتيادية لكن خلق كل سبب منها كان مربوطا بإبداع وإيجاد آني، حتى لو فرضنا أنّ الأسباب اللاحقة مرتبة على وجود الأسباب السابقة التي هي من المعدات للواحق لكن السبب الأول ليس له سبب إلا تعلق إرادة الفاعل المختار والأمر إليه بالاعتبار. ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي علامة على علوق الولد، فإن البشارة كانت مطلقة ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي علامته حدوث حالة غير اعتيادية لك وهي عبارة عن عجزك عن التكلم والتعبير مدة ثلاث ليال متساوية، أو حالكونك سويا في الخلق سليما في البدن يعني أنك تقدر على التكلم مع نفسك. وقراءة أسفار التوراة (وليس فيك عجز عن مرض مع أن الله جعلك بحيث لا تقدر على التكلم مع الناس) وهذه خارقة للعادة ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي فلما فاجأه ما قدر له ربه من العلامة وعرض عليه تلك الحالة أشار الى قومه أن سبحوا ربكم وأتوا بواجبات عباداتكم بكرة وعشيا بدون انتظار حضوري معكم. والتسبيح جاء بمعنى التصلية أي صلوا صلاتكم

المشروعة في دينكم، أو المراد سبحوا الله واحمدوه واذكروه بكرة وعشيا. وانما ذكر التسبيح لمناسبة المقام فإنه مقام التعجب من قدرة الباري تعالى في خلق الولد من عجوزين عاجزين يابسين كما يتعجب من انعقاد الثمرات على أغصان شجرة يابسة.

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ وقلنا للولد لما ولد وتربى وبلغ مجال الفهم والتمييز: يا يحيى خذ الكتاب المستطاب المعهود بينكم وهو التوراة لقراءته وفهمه وحفظه ونشره وترويجه بين الناس بقوةٍ بدون ضعف وفتور، وبجد بدونِ توانٍ وكسل وقُصور ﴿وَآَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ﴾ أي العقل المستقيم أو الحكمة في الأمور كلها في ما يتداول بينهم، أي فهم الأحكام والقضاء بين الناس، أو الحكم الإلهي بإعطاء النبوة والرسالة على منهج الرسل السابقين من آبائه وأعمامه الكرام حالكونه ﴿صَبِيًّا﴾ قيل: إنه كان في السنة السابعة من عمره. ولم ينبأ نبي قبل الأربعين إلا يحيى وعيسى عليهما السلام ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا﴾ أي وآتيناه من لدنا عطفا ورحمة بالناس لاسيما الضعفاء بالجهل وقلة ذات اليد ﴿وَزَكَاةً﴾ أي طهارة في النفس فيكون كالعلة للوصف السابق، لأن الشفقة تنبت من القلب الطاهر، أو زكاة وصدقة منه للناس أي آثْريناه فأخذ يتصدق على المستحقين. أو برا وإحسانا لوالديه. والكل معروف من أهل المعروف ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ موصوفا بالتقوى بأركانها وهي التقوى عن الكفر والجحود، والتقوى عن المعاصي، والتقوى عن الإنهماك في الدنيا ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ مُحْسِناً إليهما بمعنى الكلمة ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا﴾ متعاليا على الناس ﴿عَصِيًّا﴾ أي مخالفاً أمر مولاه أو مستبدا برأيه عاصيا على الناس فيأخذ بآرائهم كلما ظهر له إصابتها. ﴿وَسَلَامٌ﴾ من الله نازل عليه ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ من مس الشيطان ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ من وحشة النفس من مفارقة

الخلان ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ قاصداً لقاء ربه المنان من العذاب وأهوال النيران، أو من النقصان في الحساب والميزان.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (21) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (23) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (25) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (26)﴾

قوله تعالى ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ كلام مستأنف خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم والمراد بالكتاب القرآن الكريم أو السورة المباركة، إذ هي التي صدرت بقصة زكريا عليه السلام المستتبعة لقصتها وقصص الأنبياء المذكورين فيها للمناسبة الملحوظة، أي واذكر للناس النبأ العظيم العجيب المتعلق بمريم رضي الله عنها من حيث ولادة سيدنا عيسى منها

بلا علاقة أبٍ وقوله ﴿إِذِ انْتَبَذَتْ﴾ ظرفٌ للنبأ المقدر المستفاد، أي واذكرْ نَبأَ مريم إذ انتبذت واعتزلت من أهلها مكاناً شرقياً من بيت المَقْدِسِ، او انتبذت من دارها مكانا شرقياً لتغتسل من الحيض محتجبةً بحائط أو الستر المقدر كما يفيده قوله تعالى ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي لأداء حاجتها في أدب واحتجاب ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ أي روحا من عندنا أي ملكا من عندنا تَحْيا بالوَحْيِ الذي معهُ قلوبُ العباد وهو جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ أي فتصورٍ لها ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ في الخلق كامل الأعضاءِ حَسَنا وجيهاً نبيهاً، ولما تمثل لها ورأته انزعجت و﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ﴾ حيث ظهرتَ في مظهر لا يناسبُ أهلَ العفة والإيمان فإني امرأة مُحتجبة ومعتزلة في محل مستور عن الأعين لقضاء واجبي بالأدب والكرامة ﴿إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ شرطٌ وجوابه مقدر يدل عليه ما تقدمه وهو فابتعد عنيّ. أي إن كنت من أهل التقوى والصيانة فاتركني واذهب من حيث جئتَ.

ولما علِم انزعاجها هدأها و﴿قَالَ﴾ لتطمينها: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ لا المعتدي على أدبك، وأُرسِلْتُ ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ أي لأكونَ سببا في اعطاء ولدٍ طاهر من الذنوب أصلا وفصلا. فلما سمعتْ كلامه ﴿قَالَتْ﴾ مستنكرة: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ بالوجه الحلال ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ زانية وما مَسَّني أحَدٌ بالوجه الحرام. قال جبريل عليه السلام ﴿كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي قال ربك قولاً مثل ذلك الذي قلتُ لك من إعطاء ولدٍ لك ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي وهو عليّ هينٌ سَهلٌ يسير وقوله ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ تعليل لحكم محذوف أي ونهب لك ذلك الغلامَ لنجعل ذلك الوَهْب آيةً وبرهانا للناس المُنْصفين على قدرتنا الباهرة، ليعتقدوا أنا كما قدرنا على خلق أبي البشر بلا أب ولا

أم نقدر على خلق إنسان من أعيان النوع بلا أب ﴿وَ﴾ لنجعله ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ أي وسيلة انتشار رحمة منا، وهي الاهتداء بهديه والاسترشاد بإرشاده، أو رحمة منا للعباد المبتلين بالأمراض والأعراض حيث تجلينا بقدرتنا عليه، فتبعث الحياة في أجساد مصورة بصورة الطيور بنفخ مبارك منه، وتحي الأمواتَ المدفونين في القبور بإيقاظ مِنه وتبرئ الأكمه والأبرص بمساسٍ من راحته ﴿وَكَانَ﴾ ذلك ﴿أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ لنا ازلاً.

وقوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ فيه إيجاز الحذف أي فَاطْمأنّت بكلامهِ، ونَفخ جبريل في جيبها فدخلت النفخة في جوفها فحملته أي الولدَ الموعودَ وَسِنها إذ ذاك خمس عشرة سنة في أرجح الأقوال، ومدةُ حملها به تسعة أشهر كما في سائر النساء، والفاء في قوله تعالى فانتبذت للإتصال العرفي المعتاد وقيل حملته في ساعة النفخ وصور فيها ووضعته في ساعة بعدها حين زالت الشمس من يومها ﴿فَانْتَبَذَتْ بِهِ﴾ أي فاعتزلت وهو في بطنها فالباء للملابسة والمصاحبة ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي مكانا بعيداً من أهلها استحياءً منها.

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أي ألجأها وجع البطن المعهود عند الولادة إلى جذع النخلة، وهي ما بين العرق ومتشعب الأغصان من الشجرة، وذلك لتسند اليها عند الولادة. والتعريف إما للجنس اي جذع أية نخلة للغاية المذكورة، أو نخلة معهودة هناك لكبرها وسترها لها وصلاحيتها للاستناد أيضا. ﴿قَالَتْ﴾ عند ذلك حياء وانفعالا نفسيا منها ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ الوقت العسير ﴿وَكُنْتُ نَسْيًا﴾ أي شيئا تافها ﴿مَنْسِيًّا﴾ لا يخطر ببال أحد فينسى من حقارته. ومِتّ بكسر الميم من مات يمات كخاف يخاف، أو مات يميت كجاء يجئ وقرئ بضمها من مات يموت كصان يصون. ونسيا بفتح النون وكسرها الشيء التافه الذي لا يعتد به، وشأنه أنه ينسى كخرقة الطمث، وهما لغتان سيان. وقال بعض:

الأفصح الفتح، وبعضٌ الكسرُ. وقال بعض اللغويين بكسر النون اسم لما ينسى وبفتحها مصدر نسي ينسي من الرابع: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي فولدَت الولدَ وهو عيسى عليه السلام لدلالة المخاض عليه وناداها من تحت ثيابها ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ أي أن لا تحزني، وكلمة أنْ مُفسرة للفعل، أي لا تحزني من هذا الحادث بل افرحي واشكري ربك على نعمة ولادة هذا المولود المسعود ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ أي ولدا رفيع الشأن عند الله وعند الناس، وكون المنادي عيسى عليه السلام معجزة تليق بمقام حزنها لتطمئن.

وروي أن المنادي جبريل ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي من جانب مكان أخفض من مكانها بعيدا منها (والسري) جدول الماء والكل محتمل. وأعتقد أن الأول أوْلى وزاد المُنادي في أسباب اطمئنانها وقال: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ أي هُزيها وحركيها إلى جانبك، فإذا هززتِ بها تساقِط عليك رُطبا أي تُسْقِط عليكِ رُطَبَا مَجْنيا بلا تكدر بغبار لأن فيها مَسكَةً وقواماً. وفي هذا الطلب إعجاز من جهات:

الأولى: أن الطلب من صبي لم يشرب اللبان بعد.

الثانية: أن النفساء المريضة النحيفة اللطيفة غير قادرة على هزّ العود الصلب لتهتز بحيث يسري اهتزازه إلى الأغصان.

الثالثة: أن الوقت لم يكن وقت الثمر كما روي عن بعض.

الرابعة: أنها أثمرت فوراً ووقع الرطب على الارض القريبة منها بدون تأثر بتراب الأرض. وكل ذلك حتى تطمئن نفسا بأنها متبركة قدسا.

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي﴾ أي كلي من الرطب الحار المعتدل المناسب للنفساء، واشربي من الماء الزلال ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي طيبي نفسا وارْفَضي عنها ما أحْزَنَها فكأنكِ بالوادي القُدسي لا في البيت المعتاد الشخصي. ومعنى الفعل أصْلاً وتبردي عيناً، فإن ماءَ القلب إذا فار فرَحاً يفور بارداً، وإذا شرد ووصل إلى العين بردها ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ وتكلم معك حول الموضوع ﴿فَقُولِي﴾ له بالإشارة ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ أي نذرت له صمتا وسكوتا. وإلا فالصوم حرام في وقت الحيض. ولا يقتضي السكوت أيضا حتى يفيدها، اللهم إلا أن يكون ذلك جائزا كذلك في تلك الشريعة. وإذا كان قولها ذلك بالكلام فالمعنى نذرت السكوت بعد هذا الكلام. وإنما أفادها ذلك حتى يكون الولد الرضيع هو الذي يتكلم ويدوي صوت المعجزة في كهوف الأدمغة الجوفاء، فيجفو من جفا ويصفو من صفا.

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36)﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ أي فلما اطمأنت نفسا بجانب قُدْسها وأن المولود من مواليد كُنْ فيكون، جَاءت قومها حاملةً له بعزة نفس وقوّة أنْسٍ، راجيةً من ربها العزيز القدير أجراً غير ممنون. فلما رأوها وفي حضنها ولدٌ بدون سابِقة زواجٍ وأفراحٍ وابتهاجٍ ظنوا بها مِن سوء المزاج و﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أي فعلتِ شيئا فريا أو جئت بشيء فريّ. وفريا معناه عظيماً أو عجيباً، وأصله من فري الجلد قطعه على وجه الإصلاح أو الإفساد، ونصبه على أنه مفعول به. وقيل: مفعول مطلق، أي جئت مجيئا عجيباً. وعبر عنه بالشيء تحقيقا للإستغراب كأن ذلك الشيء مجهول غير معتاد.

﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ هذا النداء مستأنفٌ لتأكيد التوبيخ. والمراد بهارون أخ لها من أبيها، وكان صالحاً. وقيل: رجُلٌ صالح مشهور في بني إسرائيل. وقيل: المراد هارون أخو موسى عليه السلام، والمراد بالأخت المشابه والمماثل في التقوى، أي يا أخت الأخ الصالح أو شبيهة الرجل الصالح المشهور، أو هارون أخو موسى، ما كان أبوك امرأً صاحبَ سوء في الأعمال والأخلاق، وما كانتِ أمك بغيا أي زانية. والأصلُ إذا كانَ زكيا فالغالبُ أن الفرع يكون كذلك، فمِنْ أين لكِ هذا الولدُ؟

﴿فَأَشَارَتْ﴾ مريم ﴿إِلَيْهِ﴾ أي الى الولد أن كلموه، فغضبوا عليها و﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ والمراد بالمهد حجر الأم، فَأنطقَ اللهُ عيسى عليه السلام معجزةً قاهرةً باهرة إذا كان نبيا منذ الولادة، أو إرهاصا. و﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آَتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ أي الكتاب

المختص بي وهو الإنجيل. وقيل: الإنجيل والتوراة ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ رفيع الشأن مخبرا من عنده ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ صاحِبَ بركة وخيرٍ لنفسي بعبوديتي لله وإخلاصي ومحبتي له ولغيري بإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من مائدة الرحمة أين ما كانت في الأرض أو في السماء ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ﴾ وفاءً بحق العبودية ومعراجا لروحي ﴿وَالزَّكَاةِ﴾ وفاء بحق المستحقين وابتهاجا لنفوسهم ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ أي وجعلني برّاً محسنا بوالدتي بخدمتها في حضرتها والدعاء لها في غيبتها ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ متكبرا على غيري ﴿شَقِيًّا﴾ ذا شقاوة وعصيانٍ لربي ولا ذا إتعاب وتعذيب لغيري ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ سلامٌ من مس الشيطانِ في أول أمري، ومن النقص في الإيمان في آخر أمري، ومن سوء الحساب ونقص الميزان في وقت البعث وأحوال الحشر.

﴿ذَلِكَ﴾ المولود المسعود المبارك وذلك الشخص الموصوف بتلك الصفات الحميدة ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ شخصية شريفة مِن والدةٍ عفيفة ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ وأقول هذا قول الحق الحي القيوم ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي يشكون ويتنازعونَ. فيقولُ اليهوُد: هو ساحر. ويقول النصارى: هو ابن الله. تعالى الله عن كل ذلك عُلُوّاً كبيرا! ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ ما صح وما استقام في إدراك المدركين وعقل العاقلين بالنسبة إلى واجب الوجود المستغني عن كل موجود ﴿أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ في عالم الإمكان والحدوث والشهود، فإن الواجب الوجود المطلق بريء مما هو يناسب الممكنات المستفيدة للوجود الموقت من إرادة الباري وقدرة ذات الحق ﴿سُبْحَانَهُ﴾ فننزهه تنزيهاً وجيهاً من هذه العلائق الغير المعقولة، فإنّ الافتقار إلى الولد انما للتعاون مع الغير ودوام السلسلة في السير، والباري

سبحانه غني مطلق في إيجاد كل موجود من كل عونٍ ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ وأراد وجوده ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ﴾ أي لصورته العلمية ﴿كُنْ﴾ أي كُنْ ذاعين أعيانيٍّ ﴿فَيَكُونُ﴾. وقوله تعالى ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ معطوف على قول عيسى عليه السلام إني عبد الله أي إني عبدالله وإن الله ربي وربكم فاعبدوه. هذا ما صرح به الواحدي وقرره. وكلام مستأنف مبني على حذف الأمر المشتق من القول خطابا لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم. أي وقل يا رسولي بعد حكاية قصة عيسى عليه السلام للناس: إن الله ربي وربكم فاعبدوه ﴿هَذَا﴾ الذي قررناه من وحدانية الله تعالى واستغنائه عن النسل ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ سَلَكَه الهُداةُ من الأنبياء والمرسلين وكلُّ ذي عقل سليم، وضلّ عنه كلّ ذي قلب سقيم. ونسأله تعالى أن يسلك بنا مسالك الأنبياء والمرسلين، ويوصلنا إلى لقائه ورضاه يوم الدين.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (38) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (39) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (40)﴾

قوله تعالى ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أي فاختلف اليهود والنصارى بينهم في شأن عيسى عليه السلام، فقال اليهود: هو ساحر مُرتابٌ. وقال النصارى: بل رسول من الله إلى أولي الألباب. أو فاختلفت فرق النصارى فيما بينهم، فقالت النسطورية: إنه ابن الله،

واليعقوبية: إنه هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء. وقال الملكانية: هو عبد الله ونبيه ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من اليهود والنصارى وغيرهم ﴿مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي من شهودهم وحضورهم في يوم عظيم مهول للحساب والجزاء ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي أسمع بالذين كفروا.

وأبصر بهم صيغة التعجب تفيد أن أسماعهم تدرك كلَّ صوتٍ ضعيف رقيق وأبصارَهم تُبصر كل شيء دقيق في ذلك اليوم فيدركون ما حاق بهم من الويلات والعذاب بعدما كانوا في الدنيا صُمّا وعميا لا يسمعون الخطاب من الرسل الكرام ولا يبصرونَ أي شيء يزجرهم عن سيء الآداب ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي يوم القيامة ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ عن طريق الحق المستبين ﴿وَأَنْذِرْهُمْ﴾ يا رسولي النذير ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ بعذاب يوم الحسرة الذي يتحسر الناس فيه ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي فُرِغَ من الحساب والميزان وأخذَ كلٌّ من الفريقين طريقه الى النار أو الجنة ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ عن ذلك ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بأنهم يأتيهم ذلك اليوم فينتبهون من النوم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ لا يبقى أحد منهم إلّا ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ لا إلى غيرنا فنعلم ما يستحقونه ويلقون جزاءهم.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50)﴾

قوله تعالى ﴿وَاذْكُرْ﴾ عطف على أنذرهم أي على ﴿اذْكُرْ﴾ السابق. أي واذكرْ في القرآن أو في هذه السورة إبراهيم عليه السلام. وقصته العجيبة العظيمة ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا﴾ ملازما للصدق لم يكذب قط مع أهله وأولاده وعترته وعشيرته في أمور دينه ودنياه و﴿نَبِيًّا﴾ استنبأه الله تعالى حين كانت الديار خالية عن دِثار التوحيد وشعارِ الإسلام، وغلب الجهلُ والتقليد على الأنام، وطَغتِ المادة على الهُمام. والصديق من صيغ المبالغة. والنبي من النبوة بمعنى الرفعة، أو من النبأ بمعنى الخبر لأن النبي رفيع المقام ومخبر عن الملك العلام. ومعنى الكلام أنه كان جامعا بين الصدق الوافي والنبوة وتقديم الصدق للدلالة على أن الله لا يأمر سحاب الكرم أن يُمْطِرَ النبوة على أهل الدناءة من الأمم، وإنما يأمره بالإمطار على أصحاب الهمم، والهمة لا تتحقق إلا حيث يكون الصدق والصبر والقوة على تحمل أذى الأمم. واذكر حاله وأدبه ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ وناداه نداء أدب واستحياء: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾ شيئا من المسموعات ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ شيئا من المبصرات في ذاته ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ من الأشياء أو شيئا من الإغناء.

وانظر إلى بلاغة قوله تعالى حكاية عن خليله حيث قال ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ ولم يقل له إنك جاهل بحقيقة الشريعة الإلهية وهي لا ترضى إلّا بالتوحيد، بل أفاده أنه جاءه من العلم من الله ما لم يأته وَتَرجى منه الإتباع وقال ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أي مستقيما يصل السالك عليه إلى ربه وينالُ منه كلَّ خير لديه. ثم بين له أنّ عبادة الأصنام عبادة للشيطان لأنه هو الذي يوسوس في قلب الإنسان أن يبتعد عن إطاعة قدسه ويتقرب من هواه ونفسه، ويعبد الأحجار والأخشاب التي ليس لها روح ولا فتوح فقال: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ فهو مستعص على من خَلَقَه ورَزَقُه وشملته نعمتهُ، والمطيع للعاصي عاصٍ، ثم ترقّي من هذا الطور الى مقام الخوف عليه فقال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي عذاب من الله المنان الذي اختص بالرحمانية، وأعاذنا الله وإياكم من عذابه، فإنّ الرحمانَ إذا عَذّبَ أوجعَ ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ أي قرينا في العذاب سَوْطٌ عليه وسَوطٌ عليك، فلا يَبْقى أيُّ وسيلةٍ لديك.

وبعد هذه المحاورة اللطيفة استنكر أبوه كلامه وانقلب عليه ولامَهُ و﴿قَالَ﴾ مستنكرا: ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي﴾ المختصة لي بالرعاية ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي والله لئن لم تنته عن هذا النوع من الكلام وتدعونا إلى عبادة الله وحده وترك الأصنام لأرجمنك بالحجارة، وهذا الرجم أفظع عذابٍ حيثُ فيه القتل والتحقير والتعذيب والتلطخ بالدماء. ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أي واتركني واحذرني زمانا كثيرا حتى أهدأ يَسيرا، ومع ذلك التهديد والوعيد وأمْرِهِ بالتغيب عنه إلى زمان بعيد كالمه وسالمه وقال لأبيه ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ ومع الجفاء الذي لديك ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ أي اترجى وأدعوه تعالى أن يغفر لك بأن يوفقك للإسلام فيجب

ما قبله من الآثام ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي إن ربي كان بليغا في البرّ بي وحفيا مغنيا بإكرامي والإحسان إليّ ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ أي أتباعد عنكَ وعن قومك ﴿وَ﴾ اعتزل ﴿مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وأهاجر بديني إلى محل غير محلكم ﴿وَأَدْعُو رَبِّي﴾ وأعبُدُه وحده ﴿عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ خائِباً ضائع السَّعي ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي فَلَما اعتزلهم ومعبودهم وأصرَّ على مقصوده وخالف مقصودهم ورموه في النار وصانه ربُّه عن احتراق جسده، وحفظه بعونه ومدده، وبَعَّدَه نمرودُ من البلاد العراقية، وهاجرَ الى أرض كنعان من مملكة الأردن أقررناه وأثبتناه وجزيناه وأكرمناه ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ﴾ من اسحق ﴿يَعْقُوبَ وَكُلًّا﴾ منهما ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنَا لَهُمْ﴾ أي لإبراهيم وإسحاق ويعقوب والموهوب النبوة والرسالة والاحترام والجلالة والصيانة عن التحقير والملالة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ أي وجعلنا لهم مكانة ومحبة في قلوب الناس حتى يذكروهم جيلا بعد جيل بلسان ناطق بمدحهم والثناء عليهم بوجه صدق موافق للواقع حالكونه عليا في المقال ينطق بما يرضى به ذو الجلال.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (51) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (52) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (53) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (56) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (57) أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (58)﴾

قوله تعالى ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى﴾ قدم على بيان حال إسماعيل لربطه بسيدنا يعقوب عليهم السلام أي واذكر في القرآن أو في هذه السورة أحوال موسى ابن عمران من ذرية يعقوب ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ لله في أخذ رسالته وتبليغها وتحمل الأذى عليها ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ أي أكرمه الله بالرسالة بعد أن أكرمه بالنبوة يستفاد من الآية الكريمة أن النبوة والرسالة وإن كانتا موهوبتين ولكن الله سبحانه له في إفاضتهما على عباده رعاية التدرج على الوجه المناسب لحكمته أي وكان رسولا حالكونه نبيا فالذوق السليم يستفيد أن نبوته تقدمت على الرسالة فإن النبوة صفة صفاء شخص قدسي والرسالة تزيد على ذلك بتخويل تربية من عداه من الجن والإنس ولكنه قدم في الربط الرسالة على النبوة رعاية للفواصل.

وأخذ يذكر مبدأ أحواله والشروع في استكماله ويقول ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ أي من الجانب الأيمن من جبل الطور عندما توجه موسى إلى الجبل، فإن الجهة ماعدا العلو والسفل إعتبارية فالمتوجه إلى القبلة في بلادنا يقع الشمال في يمينه والجنوب في يساره ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ أي وقربناه من المحل الذي كالمناه فيه حالكونه مناجيا مَعنا كرامة ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ أي لموسى ﴿مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ أي وهبا ناشئا من رحمتنا ﴿أَخَاهُ هَارُونَ﴾ عطف بيان ﴿نَبِيًّا﴾ معه يعاضده ويشدّ أزره إجابة لطلبه ذلك بقوله ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي﴾.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ بن ابراهيم لأنه الجانب الأيمن الأكبر سنا ومقدما على إسحاق

ولادة وينبوعا لعين رسالة محمد بن عبدالله الهاشمي القرشي العدناني القيداري الإسماعيلي فهو رئيس برأسه ورأس سلسلة ممتازة من قدسه ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ بالصبر على الذبح في قضية الرؤيا المشهورة، وبما وعد به الناس، فقد روي: أنه وعد رجلا أن يقيم له بمكان فغاب عنه حولا فلما جاءه قال له: أما بَرِحتَ مِن مكانك؟ فقال: لا والله ماكنتُ أخلف مَوْعدي. وثباتُهُ هناك كان على الوجه المعتاد من دوامه في تلك المنطقة وليس المراد الوقوف على محل معين بما لا يوافق الواقع. ﴿وَكَانَ رَسُولاً﴾ إلى الساكنين في أم القرى وما حولها على شريعة إبراهيم عليه السلام وصحفه المنزلة من الله العلام، إذ لا يشترط في الرسول أن تكون له شريعة مستقلة كما حقق في محله. وكان مع جمعه للصدق الذي هو من مهمات الأخلاق الحسنة وللنبوة والرسالة حائزا للجد والسعي فيه ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ﴾ قبل الناس ﴿بِالصَّلَاةِ﴾ وملازمتها في أوقاتها ﴿وَالزَّكَاةِ﴾ للمستحقين، ويجمع بذلك بين تصفية النفس بصلته مع ربه وتطهيرها من حب المادة باعطائها لمن فرضت له ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ لاستقامته في طاعته وعبادته وتبليغ رسالته ومرضيا أصله مرضوو بواوين لأنه من الرضوان فقلبت الواو الأخيرة ياء فصار مرضوى فقلبت واوه ياء على الأصل المقرر، وأدغمت الأولى في الثانية وكسر ما قبلها للمناسبة.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾ هو نبي قبل نوح بألف سنة. وهو أول من نظر في النجوم والحساب، وأول من خطّ بالقلم وخاط الثياب، وكانوا قبل يلبسون الجلود، وأول مرسل بعد شيث، وقد أنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة، كما أرسل على شيث خمسين، وعلى آدم عشرة، وعلى إبراهيم عشرة، وبها كملت الصحف المائة، وبعدها الكتب الأربعة: التوراة التي احتوت أحكام الشرع المعمول به في بني اسرائيل، وزبور داود كان إرشادا ومواعظ

وأذكاراً، وإنجيل عيسى، والقرآن المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (56) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (57)﴾ وهو شرف النبوة والزلفى عند الله تعالى. وفسره كثير من الناس بالسماء لكن الروايات تختلف في تعيين تلك السماء أهي الرابعة أو السادسة أو السابعة؟ وفي رواية عن الحسن أنه الجنة، ولا شيء أعلى منها سوى العرش.

وعن النابغة الجعدي أنه لما أنشدَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم الشعر الذي آخره:

بَلَغْنَا السماءَ مَجْدُنا وسـناؤنا   وإنا لنرجُو فوق ذلك مظهرا

قال عليه الصلاة والسلام له: ((إلى أين المظهر يا أبا ليلى؟)) قال: إلى الجنة يا رسول الله. قال: ((أَجّلْ إن شاء الله تعالى)) وأكثر القائلين برفعه حسّاً قائلون بأنه حي حيث رفع ﴿أُولَئِكَ﴾ المذكورون في السورة الكريمة ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بنعمه الدينية والدنيوية ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي ومن ذرية من حملنا مع نوح، وهم من عدا إدريس لسبقه عنه ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ﴾ أي ومن ذرية إسرائيل، وهو يعقوب عليه السلام، وكان منهم موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام وكانوا ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ أي ساجدين لله وباكين من خشْيتِهِ.

وسجدا بضم السين وفتح الجيم المشددة جمع ساجد، وبكيّاً أصله بُكُويٌ صار إياه بالإعلال. وهو جَمْعُ باكٍ كشهود وشاهدٍ.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (60) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (61) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (62) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (63) وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (64) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65)﴾

قوله تعالى ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ الخلف بسكون العين الأولاد سواء الجمع فيه والآحاد، وبالفتح البدل ولداً كان أو غيره. والمشهور أنه بالسكون: العقب السيئ، وبالفتح: ضده. أي فجاء بعدهم عقب سُوءٍ ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ أي تركوها، أو أقاموها مع إخلال بشروطها وأركانها، أو ما كانوا يصلونها بالجماعة ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ أي توغلوا في ما اقتضاه هواهُمْ من المعاصي عَلَى اختلافِ أنواعِها ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ وهو نَهْرٌ في أسفل جهنم فيه من المستقذرات ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت. وقيل: الغيّ الضلال. والمراد أنهم لا يجدون في القيامة طريق الجنة ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أي لا ينقصون من جزائهم شيئا من الجزاء. أو لا ينقصون شيئا من النقص وشيئا على الأول مفعول به، وعلى الثاني مفعول مطلق. وقوله ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ بدل من الجنة بدل البعض لاشتمالها عليها اشتمال الكل على الجزء، على أنها عَلَم لإحدى الجنات الثمان ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي متلبسة بالغيب عنهم. أي وعدهم عندما

كانوا في الدنيا وكانت غائبة عنهم ﴿إِنَّهُ﴾ أي الشأن ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ لمن وعد له بها، فإن الواعد هو الله ووعده حق لا خلف فيه.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي فُضولَ الكلام، وهو ما لا طائل تحته ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ الظاهر أن الإستثناء منقطع لأن السلام من غير صنف اللغو.

ويجوز أن يكون استثناء متصلا على اعتبار تأكيد المدح بما يشبه الذم، أي إلا لغواً على تقدير كون السلام لغوا، وليس كذلك. أو على أن المراد بالسلام الدعاء. وما دام أهلُ الجنة في غِنى من هذا الدعاء كان داخلاً في اللغو ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ والمراد بهذه الجملة استمرار نعيمهم إذ لا وجود لليل والنهار في الجنة، وإنما هناك حالة واحدة من النور والضياء كما في وقت الأسحار في الدنيا. ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ تلك إشارة إلى جنات عدن السابقة، فإن كانت عبارة عن قسم ممتاز من الجنان الثمانية فالمراد بمن كان تقيا المتصفون بالتقوى الكامل أي التقوى عن الكفر وعن الكبائر من المعاصي وعن الإنهماك في الدنيا، وإن كانت عبارة عن جنات يقيمُ فيها أهل الجنة من أي قسم من الثمانية فالمراد به من كان تقيا عن الكفر بالمعنى المقابل للإيمان، أي من آمن بالله ورسوله، ولو كانت له المعاصي لكنها إما توجب العذاب الموقت قبل الدخول في الجنة، أو يشملها العفو فيدخل في منزله المخصوص به منها.

وقوله تعالى ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ حكاية لقول جبريل عليه السلام؛ فقد روي أنه احتبس عنه صلى الله عليه وسلم أياما حين سئل عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فلما نزل قال له صلى الله عليه وسلم: لم احتبست عني حتى ضاق صدري واشتقتُ إليك؟ فقال: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي يعود الى الله الزمان الذي بين أيدينا من المستقبل وما خلفنا من الماضي

وما بين ذلك المذكور من زمان الحال. أي فلا تتنزل في زمان دون زمان إلا بأمره سبحانه وتعالى ومشيئته ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي ناسيا أحَدَ أنبيائه ورسله فضلاً عنك وأنت المبعوث رحمةً للعالمين، ولكن الحكمة اقتضت ذلك وكيف يكون ربك نسيا وهو ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؟ من الموجودات ولو بمقدار الذرة، وكل ذلك مرتبط به وبعلمه وإرادته وقدرته حدوثا وبقاء ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ مخلصا له ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ فإنه هو الذي يستحق أن يعبد ويسجد له ويصبر على مشاق تكاليفه وليس أحد شريكا له في الذات والصفات والأفعال والأسماء المختصة ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أي عديلا في الاسم؟ كلّا.

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (67) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (69) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (70) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (72)﴾

قوله تعالى ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ أخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنها نزلت في العاص بن وائل. وعن عطاء عن ابن عباس أنها نزلت في الوليد بن المغيرة. وقيل: في أبي جهل وقيل في ابي بن خلف.. أي ويقول أحد أولئك مستنكرا للبعث ﴿أئِذَا مَا مِتُّ﴾ وتمزقت وصرت رفاتا

﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ﴾ من مقر أجزائي ﴿حَيًّا﴾ ذا حياة مستقرة مع الحس والشعور والعقل؟ ! فيرد الباري على كفره الجاري ويقول ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ﴾ المستنكر ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ﴾ وأخرجناه من العدم إلى الوجود ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل الحالة التي هو فيها ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ فحيث خلقناه في حالته السابقة المنافية للوجود والشهود فلأن نبعثه بإعادة ما عدم منه وقد كان متصفا بالوجود في وقت، على ما اختاره بعض أهل السنة، أو بجميع المواد المتفرقة وإيجاد مثل ما كان فيها من الأعراض، على ما اختاره بعض آخر منهم أيضا.. أولى وأظهر. فما له لا يذكر تلك الحالة فيقع فيما يقع فيه من النكير؟ !

وبعد نقل ذلك الاستنكار من أهل الاستكبار يقسم الباري بالاختيار بذاته المقدسة وهو رب المخاطب المختار ويقول: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أي لنجمعن أولئك القائلين بما قالوا ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ أي قرناءهم من الإنس والجن الذين كانوا يغرونهم ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ حالكونهم باركين على الركب، وهو جمع جاث وأصله جثوو فأعل مثل إعلال عتوو ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي جماعة منهم تشايعت وتظاهرت وتعاونت على الباطل ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ أي عُتوّا ونُبُوّاً وارتفاعا عن الطاعة ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾ أي ثم لنحن أعلم بالمراتب الـمُرتبة للكافرين الذين هم أولى وأحق بجهنم دخولا، فندخلهم فيها الأول فالأول.

ثم التفت الباري تعالى وخاطب الناس عموما وقال: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ﴾ أي وما منكم من أحد ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أي داخل جهنم كما ذهب إليه جمع كثير من سلف المفسرين وأهل السنة ويؤيد بما رواه أبو سمية عن الرسول صلى الله عليه وسلم سماعا منه قال قال صلى الله عليه وسلم:

((لا يبقى برٌّ ولا فاجِرٌ إلا دخلها، فتكون على المؤمن برداً وسلاما كما كانت على إبراهيم عليه السلام، حتى إن للنار ضجيجا من بردهم ثم ينجي الله الذين اتقوا)) وذكر الرازي في تفسيره لهذا الدخول فوائد فراجعه ﴿كَانَ﴾ ذلك الدخول لكل فرد من الناس ﴿عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ أمرا واجبا منه تعالى بمقتضى إرادته وحكمته فالواجب بمعنى الثابت لا بمعنى المرفوض منه أو عليه، إذ لا إيجاب منه ولا وجوب عليه كما حقق في موضعه ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ربهم وابتعدوا عن الكفر بالله وبرسله وكتبه ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ أي ونترك الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بربهم في جهنم جاثين على الركب ذائقين عذابهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (73) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (74) قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (75) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (76)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا﴾ هذه الآية إلى آخرها حكاية لما قاله المشركون عند سماع الآيات البينات الناعية عليهم بسوء أعمالهم ومآلهم. أي وإذا تتلى عليهم الآيات الواضحات الموضحات للحقائق ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آَمَنُوا﴾ مستفهمين عنهم ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ منا ومنكم ﴿خَيْرٌ مَقَامًا﴾ أي مكانا ومنزلا ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي مكاناً ومجتمعا وهم في

غباوة وجهالة وضلالة وقساوة، ولا يدرون بما جرى على الأمم الطاغية العاتية ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي من أهل قرن ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾ من هؤلاء المشركين في زمانك؟ فـ ﴿قُلْ﴾ لهم في جواب مقالهم ذلك: ﴿مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ بطول العمر وهناء العيش ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ أي إما العذاب في الدنيا ﴿وَإِمَّا﴾ حلول ﴿السَّاعَةَ﴾ التي هي مآلهم الأخير للعذاب الوفير ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ إذا جاء وقت الإستبصار لهم ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ منهم ومن المؤمنين ومن هو ﴿وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ أي فئةً وأنصارا.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ في الدنيا إلى طريق السعادة. وهذه الجملة معطوفة على الشرطية الواقعة مقولا للقول أي وقل: من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا فيها، وقل: يزيدُ الله الذين اهتدوا هُدىً لإغاظة أولئك الذين كانوا في الضلالة ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ المختصة بأهل الهدى ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ ومرجعا وعاقبة وهي العاقبة الخالدة.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (77) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (78) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (79) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (80) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (82) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (84) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (85) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (86) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (87)﴾

قوله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآَيَاتِنَا﴾ أي بآياتنا التي من جملتها آياتُ البعث.

أخرج البخاري ومسلم والطبراني وابنُ حبان وغيرهم عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيّنا، وكان لي على العاص بن الوائل دين، فأتيته أتقاضاه، فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم حتى تموت ثم تُبْعَثَ. قال: فإني إذا مِت ثم بُعِثتُ جئتني ولي ثمَّ مالٌ وولد فأعطيكَ! فأنزل الله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾... الآية والهمزة للتعجب من حال أولئك الكافرين أي أنظرتَ فرأيتَ الذي كفر بآياتنا الباهرة التي حقها أن يؤمِنَ بها كلٌّ من اطلع عليها ﴿وَقَالَ﴾ مستهزئا بها مصدرا كلامه باليمين الفاجرة قائلا: والله ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ في الآخرة ﴿مَالًا وَوَلَدًا﴾ وكيف تجاسر على هذه اليمين الفاجرة ﴿أَطَّلَعَ﴾ عَلَى ﴿الْغَيْبَ﴾ الذي استأثر الله تعالى بعلمه ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ أي أم أعطاهُ الله تعالى عهداً وموثقا وقال له إن ذلك كائِنٌ لا محالة ﴿كَلَّا﴾ زجرٌ عن التكلم بالكلام السابق المؤكد باليمين ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي سنظهِرُ ما يَقُولهُ ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ بدَلَ ما يدّعيه مِن قبلِ نفْسه وهواه من إيتاء المال والولد، أي نطول له من العذاب ما يَستحقه ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي نَسْلُبُ منه ذلك ونأخذه أخذ الوارث التركة من مورثِهِ.

﴿وَيَأْتِينَا﴾ يوم القيامة ﴿فَرْدًا﴾ ليس معه ماله ولا ولدهُ الذان كانا معه في الدنيا.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آَلِهَةً﴾ أي وليس كذبهم مختصا بما سبق وليس القائل بالكلمات الفاسدة شخصا واحدا بل هم كثيرون لهم أكاذيب ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آَلِهَةً﴾ مزعومة ﴿لِيَكُونُوا﴾ أي تلك الآلهة ﴿لَهُمْ عِزًّا﴾ وعوناً ﴿كَلَّا﴾ ردع عن ذلك الاتخاذ وعن إفادته شيئا فإنهم ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ يوم القيامة أي يُنْطِق الله تلكَ الأحجار والأشجار بإنكار ما فَعَلُوا واستنكار عبادته ويشهد من كان له نطق بذلك ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي بدل أن يكونوا عزاً وعونا لهم يكونون من أسباب الهُونِ والحقارة والذل لهم، وإذا لم تعلم أسباب ذلك الغرور والأكاذيب الصادرة منهم فاعلم أنها إلقاء الشياطين.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وجَعَلناهُم قُرناء لهم مُسيطرين على قلوبهم ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أي تغريهم إغراءً على الأكاذيب والأباطيل وتُهيجهم على المعاصي وهم يستمرون عليها، لذلك ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أن يهلكوا من قريب فإنهم لا يفرون من قدرة الله ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ﴾ الأيام والأنفاس ﴿عَدًّا﴾ محدوداً، وهذه كناية عن اقتراب أجلهم فإن من كان محتضرا لم يبقَ له إلا أنفاسٌ قليلة قابلة للعد لقلتها حتى إذا هلكوا جاءَ وقتُ مجازاتهم ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ أي ركبانا بعز وكرامة وراحة ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ﴾ حالكونهم ﴿وِرْدًا﴾ أي عطاشا والورد مصدر ورد أي صار إلى الماء. وهنا بمعنى الوصف المفرد الواقع في معنى الجمع أي واردين ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ الضمير يرجع الى العباد المستفاد من ذكر المتقين والمجرمين أي لا يملك أحد منهم الشفاعة لأي واحد من العصاة المجرمين الّا من تحلى بفضائل وكمالاتٍ نفسية حاصلةٍ له من عبادة ربه بإخلاص واستأهل لأن يشفع لهم، وقد أذن له الرحمن بالشفاعة لهم كالأنبياء والمرسلين

والصالحين من العباد لاسيما سيدهم صاحب المقام المحمود صلى الله عليه وسلم فإنه فاتح أبواب الشفاعة لهم كما صرح به الصحاح. ونسأل الله أن يجعلنا من المستحقين لها بفضله ورحمته إنه قريب مجيب.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (97) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (98)﴾

قوله تعالى ﴿وَقَالُوا﴾ أي المجرمون من العباد المذكورين بقرينة المقول: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ وهم اليهود القائلون بأن عزيرا ابن الله، والنصارى القائلون بأن عيسى ابن الله، والمشركون الزاعمون أن الملائكة بنات الله. فرد الله عليهم على وجه الإلتفات من الغيبة إلى الخطاب، وقال ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ﴾ أيها القائلون بما لا يوافق ﴿شَيْئًا إِدًّا﴾ أي بشيء منكر لا يقادر قدره والأد بالفتح مصدر أَدَّ يَئِدّ أي جاء بشيء منكر وبالكسر اسمٌ للأمر الفاسد المُنكر العجيب ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ جملة مستأنفة لبيان عظم شأن ما افتروه يعني يقرب أن تتفطر السماوات من هيبة ذلك الإفتراء

﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ أي تسقط الجبال على قواعدها سُقوطاً ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ أي لأن دعوا للرحمن ولدا ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ما كل من في السماوات من الملائكة والجن والإنس ﴿إِلَّا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ أي إلا آتيه بصفة العبودية وفي حال كونه عبداً مملوكا له تعالى ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أي والله لقد ضَبَطَهم وأحاط بهم وعدهم شخصا شخصا ﴿وَكُلُّهُمْ آَتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ منفرداً من كل من يعاونه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ أي مَوَدَّةً في القلوب لإيمانهم وأعمالهم الصالحة. فقد أخرج البخاري ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إني قد أحببتُ فلانا فأحبوه، فينادي في السماء، ثم تنزل له المحبة في الأرض)). فذاك قولُ الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾... الآية ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي فإنما يسرنا القرآن الكريم وجعلناه على لغتكَ العربية الفصيحة ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ بامتثال الأوامر والنواهي ﴿وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ وهو جمع ألَدّ أي قوما شديد الخصومة مع الله ورسوله.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ وعيد للمشركين وسائر الكافرين الذين آذوا الرسول عليه السلام بالإهلاك أسوة بالكفار السابقين، كما أن فيه وعدا وتبشيرا للرسول صلى الله عليه وسلم بالنجاح والبقاء واللقاء ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ أي هل لك إحساس بواحد منهم ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾؟ أي صوتا خفيا. وأصل التركيب للخفاء والغيبوبة، والمعنى أهلكناهم بالكليةٍ واستأصلناهم بحيث لا ترى منهم أحدا ولا تسمع منهم صوتاً خفيا فضلا عن صوت عال. والمعنى محوناهم وأسماءهم وأما أسماء الأنبياء فباقية إلى الأبد.

سورة طه، مكية، وهي مائة وخمس وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآَنَ لِتَشْقَى (2) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (3) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا (4) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (8)﴾

قوله تعالى: ﴿طه﴾ من الفواتح التي تصدر بها السور الكريمة. وفي معناها أقوال مرَّت نظائرها في باقي الفواتح. واعتقد أنها من الرموز الواقعة بين الله وبين حبيبه. وقوله ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآَنَ لِتَشْقَى﴾ معناه ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب وتُهلكَ نَفْسَكَ بمكابدة الشدائد والأذى الواردة عليكَ من مجابهتهم ومخاطبتهم، ولا لإيصالهم إلى ما يراد فإن ذلك من أفعال الخالق. وقوله: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ إستثناء منقطع يعني لكن أنزلنا عليك القرآن إرشادا وتذكيرا لمن يخشى، أي لمن في قلبه رقة وخشية إذا سمع التذكير تذكر، وإذا صادف الوعظ والإرشاد تأثر. وقوله ﴿تَنْزِيلًا﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف أي نُزل تنزيلا. أو حالٌ من القرآن على تأويله باسم المفعول، أي حالكون القرآن منزلا

﴿مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا﴾ أي ومبدأ هذا التنزيل من الله الواجب الوجود الذي خلق الأرض التي ترونها بهذه المناظر العجيبة وتعلمونها محتوية على المعادن النفيسة. وخلق السماوات السبع العُلى، وعلى جمع عالية أو مصدر بمعنى العلو، والمضاف محذوف أي ذوات العلو، ومن كان قادرا على خلق هذه المواد بتلك الصفات إذا نزل كلاما لإرشاد الأنام على حبيبه الهمام لابد أن يبلغه إلى غاية المرام منه ويوفق رسوله الذي نزله عليه لتبليغه ونشر الإسلام.

وقوله ﴿الرَّحْمَنُ﴾ مرفوع على المدح أي هو الرحمن يريد من إنزال القرآن عليك أن يرحمك ويرحم الناس المتقبلين له. وقوله ﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ خبر بعد خبر للمبتدأ المقدر وهذه الجملة الجميلة المهمة المهيبة بدلالتها على استيلاء الرحمن على العرش وما تحته وأمثالها من قوله ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ و﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ وغيرهما فيها للمفسرين رأيان:

أحدهما: أنها مجازات مستعملة في العرف في معانيها المقصودة من استيلاء الباري ووجود قدرة البسط والقبض له، وإحاطة علمه بسائر المعلومات إلى غير ذلك فإن الله تكلم بها مع الناس العقلاء ولهم عرف معروف في المراد بها.

والثاني أنها باقية على معانيها الحقيقية، والإيمان بها واجبٌ لكن تفويض المراد إلى خالق العباد وتجريدها عن لوازمها الموجبة للجسمية والتمكن في المكان وغيرهما، بدليل الآيات المحكمات والأخبار الناطقة بأنه تعالى لا يحويه زمان ولا مكان وليس له أجزاء واحتياج إليها، وإلا فكل عاقل يؤمن بأن العرش وما سواه حادث فهل كان الله تعالى قبل خلق العرش في مكان آخر ثم تحول عنه إلى العرش؟ وإذا هُوَ في السماء فأين كان قبل خلق السماء؟ ثم هو في سماءٍ أي قطرٍ من الأقطار؟ تعالى عن ذلك علوا

كبيرا، ليس كمثله شيء، ولم يكن له كفواً أحَدٌ، وهو غني عن العالم والعالمين. فالحق أنها مجازات لمرادات مخصوصة للقرائن العقلية المحيطة بالموضوع، وإذا لم تحمل عليها فلا بد أن يؤمن بها مع تنزيه الباري عن كل ما يناسب الممكنات الخاصة ويؤيد ذلك الآيات التالية لها من قوله تعالى ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.

فإن الآية الأولى دليل على أن جميع محتويات السماوات والأرض وما بينهما من الموجودات الكائنة فيه التي لا يعلمها إلا الله.. مختصة بالله تعالى ومن آثار قدرته وتجليات تكوينه، وكلها كقطرة في بحر علومه اللا متناهية.

وذكر ما تحت الثرى لخفائه على العيون الناظرة۔ والمراد به ما تحت الطبقة الأخيرة من طبقات الأرض يريد أن ما اختفى على الورى يَجْلُو عَلَى الله ولَوْ تحت الثرى.

والآية الثانية تدل على أن علمه تعالى محيط بكل شيء بعد بيان إحاطة قدرته به وأن الجهر بالقول والإسرار به متساويان عنده فلا يزيده الجهر به علماً ولا الإسرارُ به يقتضى كتماً. كما يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور فلا يخفى عليه ما يحدث وراء الحجب والستور.

والآية الثالثة تدل على أن المنزلَ للقرآن الخالق للاكوان ذاتٌ واحد معلمٌ باسم الجلالة (الله) أي هو الله، ولا إله إلا هو أي لا معبود بحق سواه فإن ما سواه هو الذي سواه، ولولا هو ما كان له ذاته ولا ماتهواه، وان له الأسماء الحسنى التي هي أحسن الأسامي لدلالتها على تنزيه المسمى بها من كل نقصان يتصوره الإنسان. وتلك الأسامي، وإن كانت متعددة

في التعبير المعقول وتحرير المدلول، لكنها كلها ما عدا اسم الذات تدل على صفات تليق بوحدة الذات وعلى وحدته يتحقق الفرق بين الواجب والممكن الوجود

عباراتنا شتى وحُسْنُكَ واحِدٌ وكلٌّ على شيءٍ من الحسن

وكل من هذه الآيات تعبير عن وجوب وجوده وحياته وعلمه وإرادته وقدرته وكلامه وسمعه وبصره، وأنه ليس من نوع الأعيان ولا مما يحتويه الذكر والبيان فسبحانه من إلهٍ ينطق كل موجود بأنه واجب الوجود وان ما سواه مخلوق وبه جاء إلى عالم الشهود وكل من أفراد تلك الموجودات مسخر لنوع من المقصود وخادم حسب إرادة الملك المعبود، فلا اله غيرُه ولا معبود سواه ومن أراد الفوز بالسعادة في دنياه وأخراه فليلزم إيمانه به وكماله ثم يلتزم تقواه.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (16)﴾

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ جملة مسوقة لبيان
أنباء موسى وإرساله إلى أطغى طاغٍ وأعصى عاص في
عصره. وكان يخاف منه خوفا شديداً، ومع ذلك فقد أطاع
وذهب إليه وبلغه ما أمره به ربه، وأنت من أولئك الرسل
وعليك التأسي بهم في تحمل ما ينالك من أذى الكفار
المتمردين. والإستفهام للتقرير وقيل لا إستفهام حقيقة. وهل
بمعنى قد. وقيل: الإستفهام إنكاري، ومعناه: إنه لم يأتك إلى
الآن نبأ موسى بهذا التفصيل المذكور هنا، والحديث بمعنى
الخبر، ويصدق على القليل والكثير. ويجمع على أحاديث بغير
القياس. وقال الفراء: نرى أن واحد الأحاديث أحدوثة ثم جعلوه
جمعا للحديث. وقال الراغب: الحديث كل كلام يبلغ الإنسان
من جهة السمع أو الوحي في يقظة أو منام، ويكون مصدرا
بمعنى التكلم، وعليه يتعلق به الظرف أي ﴿إِذْ رَأَى نَارًا﴾ في
وقت لحاجة إليها، ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ أي أقيموا مكانكم
﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أي أبصرتها إبصارا بيناً لا شبهة فيه ﴿لَعَلِّي
آتِيكُمْ مِنْهَا﴾ أي أجيئكم من النار ﴿بِقَبَسٍ﴾ أي بشعلة مقتبسة
تكون على رأس عود ونحوه، فقبس بمعنى مقبوس وهو المراد
بالشهاب القبس وبالجذوة في آية أخرى، ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ
هُدًى﴾ أي هاديا يدلني على الطريق. رُوي أن موسى عليه
السلام استأذنَ شعيباً في الخروج من مدين إلى مصر لزيارة
أمه وأخيه، وقد طالت مدةُ جنايته بمصر ورجا خفاء أمره، فأذِن
له وكان عليه السلام رجلاً غيوراً، فخرج بأهله ولم يصحب رفقة
لئلا ترى أمرأته، وكانت على أتان، وعلى ظهرها جوالق فيها
أثاث البيت، ومعهُ غنم له، وأخَذَ عليه السلام على غير الطريق
مخافةً من ملوك الشام، فلما وافى وادِىَ طُوى وهو بالجانب
الغربي من الطور ولدت زوجته له ولدا في ليلة مظلمة شاتئة
مثلجة، وكانت ليلة الجمعة، وقد ضل الطريق وتفرقت

ماشيته ولا ماء عنده، وقدح فصلد زنْدُهُ، فبينما هو كذلك إذ رأى ناراً على يسار الطريق من جانب الطور، فقال لأهله ما قال.
﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أي أتى النارَ التي آنَسَها وكانت كما قال ابن عباس في شجرة عناب خضرةٍ يانعة حتى وقف منها قريباً ينظر إليها وبينما هو كذلك إذ ﴿نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أي أزِلْهما من رجليك ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ تعليل لموجب الخلع المأمور به وبيان لسبب الأمر بذلك من شَرَف البقعة وقدسها. وروي أنه عليه السلام حين أُمِرَ خَلَعَهما وألقاهما وراءَ الوادي. وطوى علم لذلك الوادي، ومن نونه صرفه باعتبار المكان، ومن لم ينونه جَعَله غير مُنصرف للعلمية والتأنيث باعتبار البقعة.

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ أي اصطفيتك من الناس أو من قومك للنبوة والرسالة ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ ويُقال لك ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ وحدي ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ أي لتذكرني بإقامتها وقوله ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ﴾ تعليل لوجوب العبادة وإقامة الصلاة أي إن الساعة كائنة لا محالة ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ ولا أقول آتيةٌ في ذلك الوقت المعين بالذات حتى يبقى قدر الإيمان بالغيب وإتيانها المحقق ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ فيه فمن عبدني وأقام الصلاة لذكري إستحق الجزاء بالخير في جنتي، ومن خالف ذلك خولف في حقه على حسب مخالفته وابتعاده عن رحمتي ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ قيل الضميران راجعان للصلاة، وقيل: ضمير عنها راجع الى الصلاة، وضمير بها إلى الساعة أي فلا يمنعك عن العبادة وإقامة الصلاة من لا يؤمن بالساعة وحلول يوم الجزاء ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي ما تهواه نفسه من اللذات الحسية الفانية فتهلك، فإن الغفلة عن الساعة وما فيها من الجزاء مقتض للشقاء والهلاك الأبدي أعاذنا الله عنه.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (35)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ شروعٌ في بيانِ ما كلفه به من الأمور المتعلقة بخلعة النبوة والرسالة، وتقريرٌ له بأن ما عنده لا يزيد على كونه عصاً من الخشب، وأن ما يراه منه بعدُ فإنما هو من خوارق العادة التي يخلقها خالق الكائنات والنواميس المعتادة وغير المعتادة فيها حتى يطمئن قلبا في تبليغ رسالته. اي وما حقيقة تلك العصا التي أخذتها بيمينك؟ وما آثارها ومنافعها؟ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ أي حقيقتها خشب من الأخشاب المعلومة، وأما منافعها وعوارضها فهي أني ﴿أَتَوَكَّأُ﴾ أي أعتمد ﴿عَلَيْهَا﴾ وأتحاملُ في المشي والتخطي الممتاز على الحفراتِ والأنهار ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ أي أخبِطُ بها أوراق الأشجار وأضربها لتسقط على غنمي فتأكلها ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ أي حاجات أخرى جمع مأرب بمعنى

الحاجة، وعُوملَ في وصفه معاملة المفرد فقال أخرى كبشرى، ولم يقل أُخرَ جمع أخرى، وذلك في غير الفواصل وفيها أجودُ وأحسن.

وقد روى الإمام أحمد في تعيين هذه المآرب: إنه كان لها شعبتان ومحجنٌ تحتهما، فإذا طال الغصن حناه بالمحجن، وإذا أراد كسره لوّاه بالشعبتين، وكان إذا وقع في البرية حيث لا ظل له ركزها ثم عرض بالزندين الزند الأعلى والزند الاسفل على شعبتيها وألقى فوقها كساءه فاستظل بها ما كان يرتفع، وكان إذا ورد ماء يقصر عنه رشاؤه وصل بها، وكان يقاتِل بها السِّباع عن غَنَمِهِ، وكان إذا شاء عليه السلام ألقاها على عاتقه فعلق بها قوسه وكنائنَهُ ومخلاته وثوبه وزاداً كان معه.

ولما ذكر له تعالى ما علمه منها قال تعالى له: ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ لترى مِن شأنها ما ترى ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ تمشي وتنتقل بسرعة فخاف منها موسى ﴿قَالَ﴾ تعالى له ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ منها ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ حتى يكون عودها إليها معجزة أخرى مضافة الى الأولى وخوف الرسل على الطبيعة الأنسية والغريزة النفسية وعدمه على العلم بالهيبة القدسية، فإنها إذا وَرَدت على النفس منعت الخوفَ، ولا تخاف إلا من جانب القدس وقوله تعالى ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ والجناح: اليد والعضد والإبط والجانب وهو المراد. وهذه الفقرة إضافة معجزة أُخرى إلى ما علمه سابقا توثيقا له وتطمينا وتأمينا لنفسه من جانب قدسه. أي واضمم يدك إلى إبطك أو الى جانبك تخرج بيضاء منيرة مُشرقة كأنها مشعلة مصباح ترى بها ما أمامكَ وذلك حاصل من غير سوء اعتراها من برص أو علّة أخرى حالكون هذه الظاهرة آيةً أخرى من الآيات التي أُوتيتها ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ أي آتيناكها لنريك بعض آياتنا التي هي كُبريات الآياتِ لأن خلقَ الحياة في غصن

يابسٍ من نَباتٍ ثم عوده إلى حالة اليبس والممات وإشعال مادة ليس فيها الضوء ذاتا ولا ربطٌ بما فيه ذلك معجزة أيةُ معجزة!

ولما اعْدَدتُ لك هذهِ المُعداتِ فـ ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ ملك الأقباط ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ أي جاوز الحد في التكبر والطغيان، فإن الإنسان يمكن أن يدعي ما يصلُ إليه من العقل والعلم والإمارة والأفكار، ولكن لا يمكن أن يصل إلى الربوبية وقهر السماوات والأرض وما فيها. ثم إن الإنسان العاقل المعتدل هو الذي يعيش مع العقل بالأمان ويعامل به مع بني الإنسان كما يحب أن يعامل به في دنياه وهو المعبر عنه بأهل الوجدان، وإذا وصلَ إلى درجة التغابي عن تعذيب الناس وقتل الأبرياءِ وهتك الأعراض ونهب الأموال فقد ذهب إلى جانب اليبس والشقاء وجحد إنسانيتهِ وكرامته الإجتماعية، وسنة الله تعالى جرت على أن إنساناً كذلك لا يفوته القضاء المبرم الذي يأتيه ليلا أو نهارا سرّاً أو جهارا، كما أن سنة الله جرت بإسماعِهِ المواعظ الزواجر لعله يرجع إلى الاعتدال.

ولما علم موسى عليه السلام بأمره تعالى وأنه مأمور بالقيام بهذا الأمر الخطير الذي يحتاج في القيام به إلى حلم وصبر وقابلية تامة دعا ربه وقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ أي وسعه بحيث يسع ما يرد عليه من الأذى والكلام المؤلم من فرعون وأتباعه ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ وسهل هذا الأمر الخطير الذي لا يقدم عليه إلا أصحاب الهمم والعزائم المتينة المؤيدة منك. وشرح الصدر بسطه بنور إلهي وسكينة منه تعالى كما وهبه لموسى وأسكن قلبه بحيث لم يضطرب بمواجهة فرعون ومجابهته ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ روى أنه كان في لسانه رتة من جمرة أدخلها فاه في صغره. وذلك أنّ فرعون حمله يوماً فأخذَ خِصلة من لحيته لما كان فيها من الجواهر فتطير منه، فدعا بالسياف. فقالت آسيةُ بِنتُ مزاحِم امرأته، وكانت تُحِبُّ موسى عليه السلام،:

إنما هو صبيّ لا يفرق بين الياقوت والجمر فأحضروا لديه وأراد أن يمد يده الى الياقوت لحسنه، فحول جبريل عليه السلام يده إلى الجمرة فأخذها فوضعها في فيه فاحترق لسانُه. وفي ذلك إرهاصٌ له عليه السلام حيث لم تُحرق النار يدَه، وحِكمةٌ حيث أن يده كانت آلة لإهانة فرعون بجر لحيته.

وقوله ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ جواب للطلب وباجابته يحصل مزيد من الإطمئنان له في قبول دعواته في مهماته، ومقصوده أن تزول تلك العُقدة المانعة من سلاسة أقواله ليفهم الناس كلامه في بيان مرامه، وقد أجابه ربه بالإستجابة كما سيظهر ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31)﴾ أي واجعله لي معاونا في تحمل أعباءِ الرسالة وتبليغها. والوزير من الوزر بمعنى الحمل الثقيل، أي مساعدا يحمل معي بعض أعبائي العسيرة. وقوله ﴿هَارُونَ﴾ عطف بيان إذا لم يشترط التوافق في التعريف والتنكير، وإلا فبدل منه. وقوله ﴿أَخِي﴾ عطف بيان لهارون لدفع توهم إرادة شخص آخر مسمى بذلك الاسم.

وقوله ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ أي اشدد به قوتي، بيان لحاجته إلى المعونة في الأمر وقوله ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ رجاء لإعطائه شرف الرسالة، وقوله تعالى ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34)﴾ غاية للأدعية الثلاثة الأخيرة. وقوله ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ أي عالما بأحوالنا وبأن ما دعوتك به من مصالحنا غايةٌ في إظهار عجزه وضعفه عن أداء ما كلف به بدونِ عون منه ومزيد رعاية وعناية إلهية، وهو كذلك.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (36) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (37) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (40) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41)﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ إعلانٌ لاستجابة طلباتِ موسى عليه السلام ورغباتهِ والسؤل بمعنى المسئول كالخبز بمعنى المخبوز، أي قد أعطيت كل ما طَلبته مني من: شرح الصدر، وتيسر الأمر، وإمدادك بأخيك هارون عليه السلام في حمل أعباء الرسالة، وإشراكه لك في ذلك الأمر ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ في وقتٍ غير هذا الوقت، يعني أن إجابة طلبك هنا كانت منة منا عليك كما كانت لنا منة أخرى من غير طلب وهي ما تحققت ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾ أي ألهمنا أُمك بأمر مهم جدا عندما خافت عليك من زبانية فرعون.

وتفسير الإيحاء: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ أي ضعي ولدك موسى في صندوق ﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ أي ألقيه في نهر نيل ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ أي بالشاطئ وهو الجانب الخالي من الماء ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ جواب للأمر بالإلقاء، وتكرير العدو للمبالغة في عداوته. وفي سوق صيغة الأمر للبحر وهو غير فاهم بناء على تشبيهه بعاقل فاهِم مطيع للأوامر، ففي اليم إستعارة بالكناية وتوجيه الأمر إليه تخييل وفيه إشارة إلى أن اليم سيطيعني في إنجائك وإغراق عدوك، وقوله تعالى:

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ معطوف على قوله أوحيت إلى أمك فتكون واقعة في حيز بيان المنة المراد بها الجنس.

روي أن أمه عليه السلام حين أُوحي إليها ما أُوحي جَعَلته في تابُوتٍ، من خشب، وسدت خروقه، وفَرشَت فيه نِطْعاً، وقيرَته، وألْقَته في اليم، فبينما فرعون في موضع يشرف على النيل وامرأته معه إذ رأى التابوت عند الساحل. فأمر به ففتح، فإذا صبيٌّ أصْبحَ الناس وجْهاً، فَأَحبّه هو وامْرأته حبّا شديداً، وكان بحيث إذا رآه أيُّ إنسانٍ أحَبَّهُ.

وقوله ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ متعلق بقوله ﴿أَلْقَيْتُ﴾ على أنه عطفٌ على مقدر أي ليتعطف عليك ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ أي ولِيفْعل بك الصنيعة والإحسانَ في رعايتي ومراقبتي لك وقوله ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾ ظرف لتصنع أي تمشى أختك إلى بيتِ فرعون ﴿فَتَقُولُ﴾ لأهله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ﴾ أي يضمه إلى نفسه ويخدمه بالإرضاع والحضانة والـمُلاحظة. فلبي أهلُ فرعون كلامها ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائِك ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ من فراقك، وما يأتي عليك من العوارض ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ هي نفس القبطي المتكاونِ مع الإسرائيلي المستغيث بموسى واسمه قانون ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ الناشئ من قتله اي مخافة الله وعقابه على القتل، ومخافة آل فرعون من قتله في قصاصه. ونجاته من الأول بالمغفرة حين قال ربّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي. ومن الثاني بالـمُهاجرة من مِصْرَ إلى مدْين ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ أي ابتليناك ابتلاء لأن فتوناً مصدر كجلوس ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ بيان لنجاته باعتبار المهاجرة، أي فهاجرتَ من مصر إلى مدين وبقيتَ هناك على الهناء في أهل مدين، وتزوجت ﴿ثُمَّ﴾ ألقيت الى قلبك حبّ لقاءِ الأهل فـ ﴿جِئْتَ﴾ إلى المكان

الذي قررته ﴿عَلَى قَدَرٍ﴾ وتقدير أي في الوقت الذي عينته لك ﴿يَا مُوسَى (40) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أي وإنما عاملتك بهذه المعاملة الجميلة والوجوه المناسبة لأني خَلقتكَ لِتكونَ من خواصي وأحبائي شبهه فيما خوله من الكرامة بمن قربه الملك واستخلصه لنفسه.

﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآَيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآَيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (47) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48)﴾

قوله تعالى: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآَيَاتِي﴾ إستئناف سيق لبيان المقصود من الإصطناع لنفسه جل جلاله، يعني ما دام الأمر كذلك فاذهب أنت يا موسى وأخوك هارون مع آياتي البيّنات ومعجزاتي القاهرات الباهرات مِن: العصا، واليد البيضاء، وإجابة باقي المطالب... او مع سائر الآيات التي ستحتاجون إليها في ترويج أمركم وغلبتكم على المقصود ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ أي ولا تفترا ولا تهِنا في ذكري ونشر توحيدي وتمجيدي ودعوة الناس الى شريعتي. وجمع هارون مع موسى عليهما السلام في الخطاب مع غيبته للتغليب باعتبار أن نبوته ورسالته لما كانتا باقتراح سيدنا موسى فكأنه حاضر معه أبدا ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ ومن سنتنا أنه كلما طغى جبار في الأرض وتجاوز الحدّ أن نكسِر شُهرته

ونقطع نصرته ونبيدَ أسرته، لاختصاصنا بالكبرياء والتزامنا معونة الضعفاء، لكنه رجل جبار عنيد لا يقبلُ دماغُه سماعَ الكلام الشديد ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ مناسبا ولا تعنفاه في قولكما وارفقا بِهِ في الدعاء حتى تكونَ الحجة لكما في انتقامنا منه و﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾ ويتأمل في حاله ومستقبله فيذعِنَ للحق ويُؤمِنَ ﴿أَوْ يَخْشَى﴾ أن يكون كما تصفانه له فيتوجه أيضا إلى الإيمان فإنه ينشأ من العقل والتفكر والتذكر، أو من خوف العقاب من الرب المتعالي المصيطر. وهكذا شأن العباد المدعويين إلى الإيمان إما يستعملون العقل والتذكر حتى يتبصروا، أو يخافون من الابتلاء فينقادون. وبعد ذلك يتدرجون بالمهلة حتى يصير الإيمان المشوب بالخوف إيمانا واقعيا متسرباً إلى القلب والمشاعر.

وقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ بإسناد القول إليهما يفيد أنه أوحى الى هارون وهو بمصر أن يتلقى أخاه موسى عليهما السلام فجاء إليه. وقيل سمع بإقباله فأتى إليه. وعلى كل حال فقالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا ويعجل بإصدار الأمر بعقوبتنا، ولا يصبر إلى إتمام كلامنا معه في الدعوة، أو أن يطغى في مقام قدسك ويتجاوز بالقول بما لا يناسب ذات الحق أو أن يطغى ويأمر بإبادة جميع الإسرائيليين الموجودين في مصر. ﴿قَالَ لَا تَخَافَا﴾ من ذلك ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ بالحفظ والصيانة عما يضركم أو يضر أهلكم ﴿أَسْمَعُ﴾ كلامَ الطرفين ﴿وَأَرَى﴾ كليهما ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ الذي خلقك، أرسلنا إليك للتفاهم معك في الإيمان بربوبيته والإذعان لحكمه بالعدل والإحسان، فإن كنت تقبل ذلك ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وأطْلقهُم من الأسر والسجن حتى يعودوا إلى أرض الشام، ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ بإبقائهم على ما كانوا عليه من الأسر والحبس والتحقير والتسخير للأعمال، ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ﴾

عظيمة ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ شاهِدةٍ على رسالتنا ﴿وَالسَّلَامُ﴾ من العذاب والردى ﴿عَلَى مَنِ اتَّبَعَ﴾ الحق والهدى بتصديق ما ألقى إليه من الرسل فإذا أطعتَ سلِمْتَ من كل عذاب فـ ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ﴾ بآياته البينات ﴿وَتَوَلَّى﴾ عن قبولها.

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51) قَالَ عِلـمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (52) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (53) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (54) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (55) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56)﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ معناه قال فرعون بعد سماع كلامهما متكبرا عن إسناد الرب إليه: فإذا كنتما رسولي ربكما الذي أرسلكما فأخبراني من ربكما الذي أرسلكما سائلا عن شخصيته وصفته المميزة له؟ فـ ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ والخلق مصدر بمعنى الإيجاد والإبداع أي أعطى كُلَّ فرد يسمى شيئا من الموجودات خلقه وإبداعه وإخراجه من العدم إلى الوجود، أي ربنا الله الذي هو الموجدُ لكل موجود، أو هو بمعنى المخلوق وإضافته الى الشيء للملابسة والإختصاص. أي أعْطى كلّ فرد من أفراد الموجودات من الأعيان وأجزائها وأعراضها الوصف المخلوق الذي يناسبه

بحسب ما خُلِق له ويَطلُبُهُ لسانُ استعداده فأعطى الإنسانَ من حيث هو إنسان تصويره وتقويمه، ورفعَ رأسه إلى السماء وجعل رجليه إلى الأرض، ويديه الى الجانبين وخلق أجزاءه من: الرأس، والوجه، والسمع، والبصر واللسان، والحلق، والحلقوم، والصدر، وما فيه، وما دونه ما يناسبه ويوافقه. أي خلقَ المخلوقات على أحكم وجه وأتقنه على ما أراده الباري من تخصيصه بحصةٍ زائدة عالية أو سافلة أو مناسبة ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ وأرشد ذلك الموجود إذا كان من ذوي العقل المتفكر أو الحواس الى معرفة ربه أو العلم بحاجياته وما يتطلبه، أو هداه إذا كان عاقلا إلى الإستدلال على وجود خالقه أو على وسائل تطوره.

وأما سؤاله عنه بكلمة ما كما في سورة الشعراء فكان بعد السؤال الأول لأنه لما وصفه بتلك الأوصاف المختصة المفيدة لهويته الذهنية طلب ماهيته، أو كان بينهما لقاءات فمرة يسأل عن هذا وأخرى عن ذلك ﴿قَالَ﴾ فإذا كان ربكما موصوفا بما قلت، وهو يستدعي أن يعبده الإنسان جيلا بعد جيل ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ التي عصت وتكبرت ولم تهتم بعبادته وإطاعته ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ وهي من الغيوب التي لا يعلمها إلا الله تبارك وتعالى الذي ثبتَ وتحقق معلومه ﴿فِي كِتَابٍ﴾ بمعنى الصفة الذاتية الكاشفة للمعلومات أزلا وأبدا أو بمعنى اللوح المحفوظ المحتوي على كل ملحوظ و﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي﴾ ولا يخطئ أي شيء في مكانه فيعلمه علما يقينا ﴿وَلَا يَنْسَى﴾ ذلك المعلوم، فمعلومه معلومه أزلا وأبدا ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ تستقرون فيه ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا﴾ أي وجعل لكم فيها سبلا أي طرقا تعبرون عليها لكسب المعايش والمصالح من كافة الوجوه ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ جمع شتيت أي متفرقة ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ أي قائلا لكم على لسان رسوله كلوا مما

تجدونه أي تحصلون عليها، وارعوا أنعامكم الإبل والبقر والغنم منها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التصرف والخلق والإبداع ومتعلقاتها ﴿لَآَيَاتٍ﴾ بينات وبراهين ساطعات ﴿لِأُولِي النُّهَى﴾ أي لأصحاب العقول على وجوب وجود ذلك الرب الذي سألتنا عنهُ. والنُّهى بضم النون المشددة وفتح الهاء جمع نهيةٍ بمعنى العقل لأنه ينهى عما لا خير فيه ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي قائلا: منها خلقناكم في ضمن خلق أبيكم آدمَ ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ بالإماتة وتفريق الأجزاء ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ بجمع أجزائكم وتأليفها على الهيئة التي نُريدها ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ الموجبة للإنتباه والرجوع الى الحق مدة بقاء موسى بينهم قبل أمرنا بخروجه ببني إسرائيل كلها وهي الآيات التسع المختصة بموسى ﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعون موسى من فرط عناده ﴿وَأَبَى﴾ الإيمان والطاعة لقوة عتوّه.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (58) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (61) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (62) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الـمُثْلَى (63) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (64) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (67) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (68) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (69) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70)﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾ إستئناف لكيفية مخاصمته لموسى ومعاندته معه فقال له مستنكرا ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ وديارنا بسحرك الـمُدْهِش لعقول الناس، وتحل محلنا في الإستيلاء عليها ﴿يَا مُوسَى﴾ فإنا نعلم أن لا وسيلة لك إلى ذلك إلا سحرك، وأن عندنا سحرة ماهرين في ذلك الفن ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ فإن كنتَ صاحبَ صدقٍ في المقابلة والمعارضة ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أي وعداً ﴿لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ أي في مكان للإجتماع متساوين في الوصول إليه.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: ﴿مَوْعِدُكُمْ﴾ أي اعِدُكم بالإجتماع معكم ومع سحرتكم وزمانُ وعدكم ﴿يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ الرسمية المقررة في كل سنة يتزينون فيه ويزينون أسواقهم ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ عطف على الزينة أي ويومُ حَشْرِ الناس واجتماعهم في وقت الضحى وارتفاع الشمس الى ربع النهار، وعند ذلك يمكن اجتماع الناس على اختلاف أصنافهم وأفرادهم في المحل المعهود.

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ﴾ أي انصرفَ عن المجلس، أو تولى الأمر بنفسه مهتماً به ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ أي أصحاب كيده مِن السحرة وما يحتاجون إليه ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ في الموعد المقرر، وكذلك أتى موسى عليه السلام. واجتمع السحرةُ والمتفرجون على الواقعة ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى﴾ على ما هو شأن الأنبياء والمرسلين والناصحين المخلصين للسحرة: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن تقولوا لما يظهر على يَدَيَّ من المعجزات أنها سحر، أو لما يظهرُ منكم أنه مما يعارَضُ به آياتُ اللهِ المخلوقةُ لتأييد رُسُله ﴿فَيُسْحِتَكُمْ﴾ أي فيستأصِلَكُم ﴿بِعَذَابٍ﴾ هائِلٍ مُبيدٍ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ على الله تعالى أي انسانٍ كان ﴿فَتَنَازَعُوا﴾ أي السحرة ﴿أَمْرَهُمْ﴾ أي في أمرهم الذي أُريد منهم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ في كيفية المعارضة وتجاذبوا أطراف الكلام وتشاوروا ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ وبالغوا في إخفاءِ الكلام حتى لا تتسرب أسرارهم إلى موسى أو أخبار تنازعهم وتخاذلهم إلى فرعون ﴿قَالُوا﴾ بطريق الإسرار ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ وإن مخففة من المثقلة وهذان مبتدأ واللام لام الفرق وساحران خبر ﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ أي أرض مصر بالغلبة والإستيلاء عليها ﴿بِسِحْرِهِمَا﴾ الذي يدهشُ عقولَ الناس ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الـمُثْلَى﴾ مؤنث الأمثل، أي بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب في معيشة الدنيا وإدارة أهلها وحفظ البلاد والعباد من الأعداء.

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ الفاء فصيحة أي فإذا كان الأمر مبيناً على عمل السحر لغاية مادية وهي إخراجكم من أرضكم واستيلاؤهم عليكم ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ وأهله واجعلوه مُجْمَعاً عليه بحيثُ لا يتخلف عنه منكم أحَدٌ ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ مصطفين فإن ذلك أخوفُ للناظرين ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ من طلب العلو وسعى له، أو من قد علا وغلبَ على استعمال المزيد بمعنى المجرد.

ولما أن تم الشور وعزموا على مباشرة الأمر ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ﴾ جهازَ عملِك أولاً ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ﴾ نحن ﴿أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ قال موسى عليه السلام غير مكترثٍ بما يعملون: ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾ أولا كُلَّ ما تلقُونه فـ ﴿أَلْقُوا﴾ أجْهِزَتهم السحرية ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ لـمُالـمُلقاةُ في الميدان ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ أي إلى موسى تخييلا ناشئا ﴿مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا﴾ حيايا ﴿تَسْعَى﴾ والسر أنهم موهوا تلك المواد بالزئبق فَلَمّا ضَربَتْها الشمسُ تدفأت وتحركت واهتزت في عين موسى وخيل إليه أنها حيات تسعى ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ أي فأخفى موسى خوفا منها فأوحينا إليه ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾ مما توهمت ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ في ذلك العصر على سحرة مصر فإنهم على باطل وأنت على الحق، وإذا جاء الحق زهق الباطل وكان زهوقا ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أي وألق عصاك التي تهتم بها كأنه نقدٌ في يمينك ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ أي تبتلع ما صنعوه ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ أي حيث كانَ وأينَ أقبل.

توهم بعضُ الناس من قوله تعالى ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ أن السحر ليس بشيء، ولا يفيد شيئا واقعيا. ولكن ذلك توهم باطل، لأن لا شيئيته إما من حيث العمل وإما من حيث الغاية، وكلاهما موجود واقعي لأن الأسباب كيفما كانت فهي أمور واقعية كحبال السحرة وعصيهم، وتمويهها بالزئبق وغيرها مما فعلوا، والناتج كان تخييلا لموسى عليه السلام وإلقاءً في خياله أنها تضره حتى خاف منها، ولذلك نهاه ربه بقوله ﴿لَا تَخَفْ﴾ فالسحر علوم وأعمال تنتج نتائج كما قال تعالى ﴿فَيَتَعَلـمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ غيرَ أن هذا العمل عمل مذموم شرعا لابتنائه على

تعلم مقدمات مذمومة ومزاولة أشياء غير مشروعة، فهي حيلٌ ودسائس وأمور مستنكرة تُباشر للوصول إلى غايات فاسدة غير مشروعة، ولذلك نهت عنه الشريعة السمحة فهو في بعض الصور كاغتيال إنسان بريء بأعمال منكرة بذيئة وفي بعض الصور تنتج أقبح منه أو ما هو أدون كخدْعٍ في أخذ شيء بسيط منه. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: ((إذا أخذتم الساحِر فاقتلوه)) وقوله تعالى ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ المقصود الفلاح والظفر في مقابلة الحق كسحر السحرة في مقابل موسى عليه السلام، أو الفلاح في الآخرة فإن ثوابها لمن آمن بالله وعمل صالحا واستقام عليه.

ولما أمرَ اللهُ تعالى موسى بإلقاء ما في يمينه ألقاه ولَقَفَ جميعَ ما ألقاه السحرة وعلموا أن ما بيد موسى معجزة ربانية لا عملٌ مفتعلٌ من الساحر، فأخذتهم هيبةٌ رحمانية قدسية غلبت على ما عندهم من الكبرياء النفسية ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ والملقي هُو الله بهيبته الخارقة للطاقات، والسجود سجود إيمان بعظمته في المعجزة الخارقة للنواميس الطبيعية و﴿قَالُوا آَمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ ودخلوا في سلك عباد الله المؤمنين به وبرسله وبما أتى إلى البشر من سُبُلِهِ.

ولما علم فرعون بما جرى ضاقت عليه السماء والأرض إلى ما تحت الثرى حيث غلب صاحبُ الحق على باطله وطالب الآجلِ على عاجله، ولاسيما أن السحرة سخروا به ولم يستأذنوه صورةً، وهذا الأمر يخدش كيانه وينبش بنيانه فقال:

﴿قَالَ آَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَـمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آَمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (76)﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ آَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ﴾ أي قال فرعون للسحرة مهدداً لهم ومتوعداً إياهم: آمنتم لموسى قبل أن تطلبوا الإجازة مني وآذَنَ لكم في هذا الأمر الخطير؟ وهذا إخبار على سبيل الإستنكار. وقد قرأ الأكثر أآمنتم على الإستفهام الإنكاري ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وهو منكم وأنتم منه، وتبين أنكم قد تآمرتم عليّ، فإذا كان الأمر كذلك ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ أي اليد اليمنى والرجل اليسرى، ثم اليد اليسرى والرجل اليمنى ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي على جذوعها تصليبا مشددا لا تنقطع أعضاؤكم عنها ومستمرا حتى تتمزقوا عليها ﴿وَلَتَعْلَـمُنَّ﴾ أي والله لتعلمن عند ذلك ﴿أَيُّنَا﴾ أي أنا أو موسى ﴿أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ سيطرة وعتاباً. يريد أن موسى خوفكم على مخالفتكم بالتعذيب ولذا كنتم أطعتموه، وأنا أهددكم بالتصليب وسيظهر لكم تفاوت تعذيب كل من الجانبين لكم.

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ قالوا مُجيبين لفرعون على تهديده ووعيده غير مكترثين به: لن نؤثرك ولن تختارك بالإيمان والإنقياد على ما جاءنا من الله رب العباد من البينات الواضحات أي المعجزات التي تقهر الألباب وتذعن النفس من هيبتها لِرب الأرباب ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ أي ولن نؤثرك على الإله الذي خلقنا من العدم إلى الوجود ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ أي فاحكم في حقنا بما أنت حاكم به ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي إنما تحكم بما تراه في هذه الحياة الدنيا فحسب، ومالنا رغبة في البقاء فيها ولا رهبة من عذابها ﴿إِنَّا آَمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ التي اقترفناها من الكفر والمعاصي ولا يؤاخذنا بها في الآخرة ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ أي وليغفر لنا ما اكرهتنا عليه من السحر في مقابل من أرسله الله بالحق لإرشاد الخلق ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ في حد ذاته ﴿وَأَبْقَى﴾ ذاتا وأدوم جزاء ثوابا أو عقابا ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ بان مات على الكفر والمعاصي ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فينتهي عذابه ﴿وَلَا يَحْيَا﴾ حياة طيبة هنيئة ينتفع بها ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا﴾ به عز وجل وبرسوله ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا﴾ أي المنازل الرفيعة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ أي تطهر من دنس الكفر والمعاصي.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (77) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (78) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (79) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (80) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (81) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (82)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى﴾ بيانٌ لما انتهى إليه أمر فرعون وقومه والمرادُ أنه لما ظهر أمر موسى وغلب معنويا على فرعون وقومه واستمر زمانا على ذلك، وأراد أن يبطش فرعون به وبأتباعه ﴿أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي ببني اسرائيل الذين اختصوا بعنوان عبوديتي صابرين على ما ابتلوا به من فرعون حتى لا يضربهم فرعون ولا يدمرهم واذهب بهم إلى أن تصل الى البحر واذا وصلت ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ﴾ بعصاك، والأصل اضرب البحر ليصير لهم طريقا ﴿يَبَسًا﴾ أي يابسا لا ماء فيه ﴿لَا تَخَافُ دَرَكًا﴾ أي لا تخاف أن يدرككم فرعون وجنوده من خلفكم ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ أن يغرقكم البحر من أمامكم.

ولما أوحي اليه ذلك سرى بهم ليلا ولما اطلع الناس على ذلك ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ أي تبعهم ومعه جنوده، وقيل اتبع متعد الى اثنين هنا كما في قوله تعالى ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾. والمفعول الثاني جُنوده، والباء سيفُ خطيبٍ أي اتبعهم فرعون جنوده ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ وفي الآية الكريمة إيجاز حذف أي فنجا موسى عليه السلام وقومه، ثم اقتحم فرعونُ وجنوده اليم تعقيباً لهم، فغشيهم من اليم ما غشيهم بحيث لا يعرف مقداره ولا يوصف عيارَه ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾ حيث سلك بهم مسلك الكفر والضلال وذهب بهم إلى هذا البحر فغرقهم مع نفسه ﴿وَمَا هَدَى﴾ أحدا منهم الى طريق الرشاد لا في الدنيا ولا في الآخرة.

والمراد بذلك التهكم بفرعون في عقيدته الباطلة وأعماله السافلة حيث تسبب في إهلاك نفسه وإهلاك من معه.

ثم بعد إنجاء بني إسرائيل وإهلاك عدوهم قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾ فرعون وأتباعه حيث يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ بالنصب صفة للجانب، ليصعد موسى عليه السلام ويأخذ أحكام ربه تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ الترنجبين والسماني حيث كنتم في التيه ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ وقلنا لكم على لسان موسى لا تطغوا في مارزقناكم بالإخلال بشكره أو بغصب حصة الناس وضمها إلى حصتكم ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ أي سقط من علو الإيمان والشكر والإنصاف إلى درك الكفر وكفران النعمة والإعتساف ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ﴾ من الشرك وسائر المعاصي ﴿وَآمَنَ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ مستقيما عند الشرع الشريف ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أي لزم الهداية والإستقامة عليه. والاهتداء الثبات على الهُدى.

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (86) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (88) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (89) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (91)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ بيانٌ لِما جَرى بينه وبين الله تعالى من الكلام عند ابتداء موافاة الميقات بموجب المواعدة المذكورة يعني أن الله قرر له أن يأتي إليه في الميقات مع النقباء السبعين. والمراد من التعجيل تقدمه عليهم. أي أيَّ شيء عجل بك عن قومك فتقدمتَ عليهم؟ ﴿قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ قال عليه السلام: يا رب إن قومي أولاء الناس الموجودون المباشرون للمجيء معي وإنما تقدمت عليهم وعجلت في الوصول إلى الميقات لترضى اعمالي وسرعة امتثالي في الوصول إلى ساعة الجلال، واعتقدت أن تأخرهم عني بخطى قليلة لا يقدح في أمري بل هو الغاية في إطاعة الله. فسؤال الرب سبحانه وتعالى عن سبب العجلة وتقدمه عليهم في الوصول إلى الطور، والجواب بأنه الإستعجال في الوصول اليك وتحصيل الرضا منك، واني أطعت أمرك في المجيء معهم إليك، وإنما أخطأت في عدم اعتبار حضورهم معي في زمان واحد، ولم أعلم أن حضورهم معي شرط في الامتثال ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ أي قد أوقعنا قومك في فتنة من بعد مجيئك الى ميقاتنا.

وفتنتهم أنه أضلهم السامري الصائغ الزائغ في الدين، ذلك أنه قال لهم بعد أن غاب موسى عليه السلام عشرين ليلة: أنه قد كملت الأربعون، فجعل العشرين ليلة مع أيامها أربعين ليلة وليس من موسى عين ولا أثر وليس إخلافه ميعادكم إلا لما معكم من حلي القوم وهو حرام عليكم. فجمعوه وسلموه إليه فأذابه وصبهُ في قالب العجل، فَطَلَع عجلاً جسداً له خوار. والمراد بقومك هنا الذين خلفهم مع هارون. ولما سمع موسى ما أفاده ربه استرجع وتأثر، ولكنه ماذا يفعل بعد أن وقعت الواقعة؟ فبقي على الطور واستوفى الأربعين؛ ذا القعدة وعشر ذي الحجة، وأخذ التوراة.

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ﴾ بعد ذلك ﴿غَضْبَانَ﴾ على الذين أحدثوا هذا الحادث المهم ﴿أَسِفًا﴾ على دين الله وضياعه في قومه بعد كل ما تحمله من الأذى لاستخلاصهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ لا سبيل لكم الى انكاره وهو إعطاء التوراة وتشريع النظام في الحياة؟ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ أي أفطال عليكم زمانُ إنجاز ما وعد به؟ ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ﴾ شديد لا يعلم مداه ﴿مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (86) قَالُوا﴾ أي القوم المستخلفون الواقع فيهم ما وقع لموسى: ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ﴾ بالثبات على الدين وإيثاره على غيره ﴿بِمَلْكِنَا﴾ أي باختيارنا واستيلائنا على شئوننا ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا﴾ أي أحمالا ثقيلة ﴿مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ الأقباط وهو ما استعرناه منهم من الحلي لرسم الزينة في العيد الرسمي، فأتانا السامري وأضلّنا بكلامه وشوش علينا حساب غيابك، وجعل عدم رجوعه من أثر شؤم تلك المواد المستعارة ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ إليه وصنع لنا أسوءَ صنيعة ﴿فَكَذَلِكَ﴾ أي فمثل ذلك القذف الذي قذفناه إليه ﴿أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ ما وصل إليه مِنا وما كان عنده، فألقاها في النار وصبها في قالب العجل ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا﴾ حالكونه ﴿جَسَدًا﴾ أي جثة ذا لحم ودم أو جسداً

مصبوباً من ذهب لا رُوح فيه ﴿لَهُ خُوَارٌ﴾ إعتيادي لأنه خلق الله فيه الروح او خوار اصطناعي بجعل منافذ فيه مصنوعة على أوضاع خاصة تدخل فيها الرياح والنفخات القوية في أوقات خاصة ﴿فَقَالُوا﴾ أي السامري ومن معه وتبعه في دجله: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ أي فغفل عنه وتركه وذهب يطلبه في الطور. فأنكر عليهم الباري تعالى بقوله ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أي لا يرجع إليهم كلاما ولا يرد إليهم جوابا لا بنفسه مع مختار القوم ولا من المختار إلى القوم ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي لا يقدر أن يدفع عنهم ضرا أو يجلب اليهم نفعا.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل رجوع موسى إليهم: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ أي ما حصلتم على شيء إلا أن فتنتم به، فإن الحصر المستفاد من إنما قد يكون بالنسبة إلى الفعل بالقياس الى مقابله الا بالقيد المذكور بالقياس الى قيد آخر كان يراد إنما فتنتم به لا بغيره ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ المنان بالرحمة والفياض بالنعمة الثابت بالقدرة ﴿فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ لكم بالثبات على ما ترككم عليه موسى ﴿قَالُوا﴾ لهارون ردا عليه ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ﴾ أي على العجل وعبادته ﴿عَاكِفِينَ﴾ أي مقيمين ﴿حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ ويرشدنا إلى ما هو خير لنا.

﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (98) كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (99) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (100) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (101) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (102) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا

عَشْرًا (103) نَحْنُ أَعْلَـمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (104)

<368>

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي ما المانع لك إذ رأيت القوم ضلوا سبيلَ الحق بعبادة العجل ولم ينظروا الى فساد عملهم ذلك أن تتبعن؟ وكلمة لا تستعمل عادة كسيفِ الخطيبِ في خطبة العبادة أي ما منعك عن اتباعي في التمسك الشديد بالنظام ومنع القوم عن الفساد ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ لك بحسن سياستهم ورعاية شئونهم ﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ أي ولا بشعرِ رأسي ولا تَلُمْني على حالي ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي إني ما تعاركْتُ ولا تحاملتُ عليهم فوق المعتاد، لأني خشيت من أن تقول لي في نهاية المطاف فرقتَ بين بني إسرائيل، وجعلتهم فرقتين متقابلتين؛ فرقة مطيعة وفرقة عاصية، ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ﴾ ولم تُراعِ قولي في حُسن إدارتهم والعناية بهم.

ولما اعتذر هارون من سكوته وعدم النزاع الزائد معهم وعلم أن أساس الفتنة كان من السامري، وكان رجلا من عباد البقر وقع في مصر ودخلَ في بني إسرائيل، وامتزج معهم ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ أي ما هو الداعي المهم الذي ساقك ودعاك إلى أن تبتدع هذه الفتنة العظيمة من عبادة العجل؟ ولم ذلك؟ ﴿قَالَ﴾ السامري مجيبا له: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أي تفطنت لما لم يتفطنوا له واطلعت على ما لم يطلع الناس عليه وهو أني رأيت يوم خروجنا من مصر رجلا راكبا على فرس وكنت أنظر إلى حوافره كلما وضعها على محل من الأرض ورفعها إخضر وحصل فيه نبات، فعلمت أن في ذلك سر الحياة ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أي من أثر حافر فرس الرسول ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ على الحلي المذاب الذي سبكته في قالب العجل حتى دخلت فيه الحياة ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أي زينته وحسنته إليَّ ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ﴿فَاذْهَبْ﴾ أي من بين الناس ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي أن لك في الحياة نصيبا من المرض الساري الى المجاور بحيث تقول للناس: لا مساس بيني وبينكم ولا جوار حتى لا تبتلوا بما ابتليت به، وذلك أنه ابتلى بحمى شديدة يصيح من وجعها، وإذا اقترب منه أحد أصيب بها، فتحامى الناس وتحاموه حتى مات ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ في الآخرة ﴿لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ أي لن يخلفك الله ذلك الوعد بل لينجزه البتة إضافة الى عقوبتك في الدنيا ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي إلى العجل الذي صرت مقيما على عبادته مع من معك ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ بالنار ﴿ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ﴾ أي لنذرينه ﴿فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ فأنجز ما هدد به، وأحرق العجل حتى صار رمادا، ثم أذرى ونثرَ رماده في النيل إذراء بليغا بحيث لم تبق منه مادة وأثر.

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ تمييز محول عن الفاعل أي وسع وشمل علمه كل شيء مهما كان ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ خطابٌ مع الرسول صلى الله عليه وسلم بطريق الوعد المنجز أي مثل ذلك البيان الصادق الصريح السالم نقص عليك من أنباء ما سبق من الوقائع والحوادث التي لها علاقة بالتشريع والتوحيد ﴿وَقَدْ آَتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ كتابا يذكر ويتلى بمر الأيام محتوياً على القصص المفيدة لأهل الاعتبار والاستبصار، من أقبل عليه أخذَ أجرا و﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي لم يؤمن به ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ أي حملا ثقيلا من العقوبة ﴿وَسَاءَ﴾ لهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ذلك ﴿حِمْلًا (101) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ بدل منه باعتبار أنه مبدأه، والمراد به الجسم المصور الذي ينفخ فيه الملك المأمور به مرتين: مرة لخراب العالم ونسف الجبال وإعدام الحياة، ومرة أخرى بعدها بمدة أربعين سنة كما روي ذلك للبعث وإعادة الحياة والحشر في العرصات ﴿وَنَحْشُرُ الـمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ في العيون أو في الأبدان، إذ تزرق الأبدان من مكابدة الشدائد ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يتكلمون بخفض الصوت والإخفاء لشدة هول المطلع قائلين: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ من الليالي، يقللون مدة مكثهم في الدنيا لزوال الإدراك التام، أو لهول ما عندهم من الآثام، أو لقلتها بالنسبة إلى ما يرى من طول تلك الأزمان والأيام ﴿نَحْنُ أَعْلَـمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وحقيقة ما يتكلمون عنه ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ وأفضلهم تقريرا وبيانا ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ واحدا، والمراد إلا زمنا قليلا جدا.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (107) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (108) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (109) يَعْلَـمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (110) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (111) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (112) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (113) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآَنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (114)﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ السائلون منكرو البعث من قُريش؛ وقيل: جماعة من ثقيف، وقيل: أناسٌ من المؤمنين، أي إنهم يسألونك عن أحوالها في اليوم الموعود، ﴿فَقُلْ﴾ في جوابهم ﴿يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ يجعلها سبحانه وتعالى كالرمل ثم يرسلُ عليها الرياح فتفرقها في الجوّ، فإنْ إحداث الجبال وإعلاءها ونصبها في أماكِنها، وقلعها وتمزيقها وتفريقها إلى أجزاء ترابية ناعمة تنشرها الرياح في الجوّ كل ذلك من الأمور الممكنة السهلة على صاحب القوة القاهِرَة التي لا تبقي ولا تذر ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي فيجعل الجبال المتمزقة إذا وقعت على سطح الأرض ﴿قَاعًا﴾ سهلا مستويا مع الأرض، أو أنه إذا مزقها ونشرها في الجو والتحقت بالهواء بقي محلُّها قاعاً مستوياً من الأرض ﴿لَا تَرَى فِيهَا﴾ أي في مقار الجبال ﴿عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ العوجُ عبارة عن عدم استقامة تدرك بالبصيرة لا بالبصر، والأمت نُتُوٌّ وارتفاع يُدْرك بالعين ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ أي خَفِيت لتجلي الحق بالهيبة والرهبة على أهل

الموقف ﴿فَلَا تَسْمَعُ﴾ من المصوتين ﴿إِلَّا هَمْسًا﴾ أي صوتا خافتا يشبه النجوى ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ أي إلا من شافع أذن له الرحمن في الشفاعة ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ أي رضي قوله للمشفوع له. أو لا تنفع الشفاعة أحداً من المذنبين إلا مذنبا أذن الرحمن في الشفاعة له ورضي قولَ الشافِعِ لأجلهِ ﴿يَعْلَـمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ أي لا يحيط علمهم بمعلوماته تعالى فعلماً تمييز محول عن الفاعل، وقيل المراد لا يحيط علمهم بذاته وصفاته ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ أي ذلت وخضعت وانقادت خضوع العبد الذليل والأسير العاجز لذاته الحي بالذات والقيوم القائم بذاته المقيم للأرض والسماوات ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ أي خسرَ هنالك ﴿مَنْ حَمَلَ﴾ على ذمته ﴿ظُلْمًا﴾ سواء كان على نفسه بالإشراك بربه، أو على غيره بالتعدي على دينه أو نفسه أو أهله أو ماله أو عقله وأحواله. وكل ما ضر بالغير وصدر منه فهو ظلم منه عليه إلا ما كان في وجه مشروع.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ مقابل لقوله تعالى وعنتِ الوجوه للحي القيوم، أي ومن يعمل من الأعمال ما يعد من الصالحات وهي ما يترتب عليه ثواب ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بما يجب الإيمان به من الله ورسوله وما جاء به من عند الله ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ من أحد عليه، أما من غير الله تعالى فلأنه لا مجال فيه لأحد هناك وليس المقام مقام الاستعلاء والتعدي، وأما من الله تعالى فلانه لا يُنسَبُ اليه ظلم ولا يعمل إلا ما يستحقه العبد بمقتضى وعده، وذلك معنى قول المفسرين للظلم بمنع ثواب المستحق بموجبِ الوعد بأن لا يثاب ويُحبط عمله ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ وكسراً له بمنع بعضٍ من ثوابه. وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما: فلا يخاف أن يظلم فيزداد في سيئاته، ولا أن يهضم حقه فينقص من حسناته.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ عطف على قوله ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ﴾ أي ومثل إنزال الآيات البينات في شأن الساعة والبعث والحشر ومخاوف الناس ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي القرآن حالكونه ﴿قُرْآَنًا عَرَبِيًّا﴾ أي بلغتهم ولهجتهم مفهوما واضحا ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ أي غيرنا وجوه الوعيد من الوعيد على الكفر الى الوعيد على ما دونه من المعاصي والسيئات ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي الكفر والمعاصي ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي عظة واعتباراً مؤدياً إلى التقوى ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أي فتبارك وتعالى الواجبُ الوجودِ المصيطرُ على العالم أن يكون في إنزاله للكتاب وإرساله للرسول شيء غير محتوٍ على الحكم والمصالح، ذلك لأنه الملك الحق الثابت ذاته بذاته، وذاتٌ شأنهُ ذلك لا يصدر منه إلا ما فيه الحكم والمصالح بالنسبة الى برياته.

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآَنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي وإذ تنبهت على عظمة ذاته وحكم آياته وحسن تصرفه في برياته فاعلم أن الوحي المنزل عليك صدر بوجه حق متقنٍ حتى تسمعه وتفهمه وتعيه وتبلغه للمكلفين، وذلك مقدر من الله ومقرر، فلا تعجل بقراءة كلمات القرآن من قبل أن يقضى ويتم من جانب جبريل الأمين وحيه إليك، تمهل وتريث حتى تأتيك الجملة بتمامها فتقرأها وراء قراءته، وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ لأنه كان صلى الله عليه وسلم إذا ألقى اليه جبريل عليه السلام القرآن يتبعه عند التلفظ بكل حرف وكل كلمه مخافة أن يصعد الملك من حيث نزل ويفوت عليه حفظ الكلمات من الآيات الكريمة، فنبّه على ذلك وأمر بالتريث والتمهل، ﴿وَقُلْ﴾ في نفسك عند نزول القرآن، أو بلسانك في سائر الأزمان ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ بألفاظ القرآن ومبانيه، وفهماً بمعاني القرآن ومغانيه[4]. أو زدني علما بما ينفعني

---

[4] مغاني: جمع مغنى بمعنى المنزل والمراد الهدف.

علمه في عالم الوجود الى وقت الحضور ولقائك في اليوم الموعود، فإن لله سبحانه كلمات ومعلومات وكل ذلك مما يمكن أن يلقى الى رسله في البريات، وفوق كل ذي علم عليم.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آَدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (116) فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (119) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آَدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (120) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آَدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (122)﴾

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آَدَمَ مِنْ قَبْلُ﴾ لما نبه الله سبحانه وتعالى حبيبه على التمهل والتؤدة في أخذ القرآن من جبريل عليه السلام وأن العزم والقوة على الضبط في الأمور متصورة في كل حال ذكره بما جرى من أبي البشر وأن الإنسان بطبيعته مستعجل قليل الصبر والعزم فينبغي لمن يأتى بعده أن يجعل ذلك الوضع الذي جرى عليه درسا ثابتا لرعاية أموره، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آَدَمَ﴾ أي وصيناه وقررنا له بعض الأمور المهمة من قبل الحادثة من جملتها عدم قربان الشجرة ﴿فَنَسِيَ﴾ وصيتي وعهدي ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ أي تصميما وثباتا قويا على حفظ ما وصي به فوقع في مخالفة

ما نهيته عنه فجرى ما جري ووقع ما وقع. وبيان ما عهدنا إليه يندرج فيما يلي ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ﴾ سجود الشريف والإجلال والاحترام ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ عن السجود إستكباراً وإستنكاراً لسجود الفاضل بزعمه للمفضول ﴿فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا﴾ الذي رأيته أبيا عما أمرته به وهو إبليس ﴿عَدُوٌّ لَكَ﴾ لانك كنتَ سببا لما أتى عليه ﴿وَلِزَوْجِكَ﴾ لأنها من متعلقاتك النافعة لك في الحياة ومعين العدو عدو كعينه ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ﴾ بحيله ودسائسه ﴿فَتَشْقَى﴾ وتتعب بمتاعب الدنيا، فإنك إذا بقيت في الجنة بقيت مسعوداً متنعما ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ لأن غذاءك بما تتغذى به من الثمار، ولباسك ما تتستر به من اللباس الساتر كالدراري أحسن أنواع الستار ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ أي لا تصيبك شمس فتتدفأ بها ولا يصيبك الظمأ والعطش.

قال الشهاب: الآية فيها سرّ بديع من أسرار المعاني، وهو الوصل الخفي وسماه الاتصاف (قطع النظير عن النظير) وهو أنه كان الظاهر أن يقال: لا تجوع فيها ولا تظمأ، ولا تعرى ولا تضحى. ووجه أنه عدل عن المناسبة المكشوفة إلى مناسبة أتم منها، وهي أن الجوع خلو الباطن والعرى خلو الظاهر، فكأنه قيل: لا يخلو باطنك وظاهرك عما يهمهما، وجمع بين الظمأ المورث حرارة الباطن والبروز للشمس المورث حرارة الظاهر، فكأنه قيل: لا تؤلمك حرارة الباطن والظاهر. إنتهى باختصار.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ أي فأنهي الشيطان وسوسته إليه ﴿قَالَ يَا آَدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ من اضافة السبب أي على شجرة يكون الأكل من ثمرتها سببا لخلود آكلها. وقوله ﴿وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ أي ومملوك لا يفنى يعني تلك الشجرة. أو المراد رئاسة على الحياة والمتاع بحيث لا يفنى أمدها. وسيدنا آدم خلق بشراً مركباً من الصفات والغرائز

الإنسانية، وكان قابلا لنسيان عهد ربه فنسيه، فأكل منها وأكلتْ زوجته حواء معه كما قال تعالى ﴿فَأَكَلَا﴾ أي هو وزوجته ﴿مِنْهَا﴾ أي من الشجرة ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ أي عوراتهما فإنهما قبل الأكل كانا مستورين بغلاف نوريٍّ كالصدف، ولم يكن لهما حاجة إلى الأكل والهضم والدفع، فلما أكلا احتاجا، فكشف اللهُ عنهما اللباس وظهرت عوراتهما لخروج الخارج ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ أي فشرعا يلزقان ورق الجنة بعوراتهما حتى لا تتبين ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ﴾ بأكل الشجرة ﴿فَغَوَى﴾ أي ضل عن مطلوبه الذي هو الخلود لان كل آكل فانٍ زائلٌ، أو عن المطلوب الذي يليق بالقصد وهو البقاء في الجنة الى اللقاء، وهذه الحادثة كانت قبل الإنباء وحدوثها، وإن كان عن نسيان، لكن النسيان لا يخلو عن النقصان لاسيما بالنسبة إلى من خاطبه ربه بالإحسان.

ولما جرى عليه ما جرى ألهمَهُ اللهُ الإلتجاء والإنابة اليه والتوبة فالتجأ وأناب وتاب. ﴿ثُمَّ﴾ قبل الرب سبحانه وتعالى دُعاءه و﴿اجْتَبَاهُ﴾ واختاره واصطفاه للنبوة والرسالة حَسَبَ علمه ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي رجع إليه بالرحمة ﴿وَهَدَى﴾ أي إلى الثبات على التوبة والى النبوة والرسالة والى الأبوة للأنبياء والمرسلين.

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (126) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (127) أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (128) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى (129)﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ إستئناف لبيان ما صدر منه تعالى في حق آدم وحواء لما تاب عليه واجتباه فيقول: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ أي إنزلا من الجنة إلى الأرض الواقعة في محل أسفل من العرش بدرجات لا تحصى. والخطاب له ولحواء واسكنوا فيها على ما هو المعتاد، وكلوا واشربوا من رزقها وتناسلوا فيها ليكثر منكما البشر بما في علم الله حالكونكما معهم في كل جيل ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ بسبب التجاذب والتدافع بينكم فيما يجري لأن كل إنسان حائز للقوة النطقية والشهوية والغضبية، وكل يريد مستحباته ويكره مستنكراته ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ أي كتاب وشريعة منزلة ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير للإهتمام ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا يَشْقَى﴾ في الآخرة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ أي كَفَرَ بِهِ وأنكره ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ والضنك الضيق، أي فإن له في الدنيا معيشة وحياة ضيقة شديدة بانحباس الصدر وقلة الصبر ومعاناة كل أمر عسير، فإن المؤمن شاكر على النعم وصابر على النقم، ومع ذلك، فهو وسيع الصدر بما ينتظره من الأجر، وأما الكافر فهو حريص وطموع في السراء للزيادة وبعيد عن الشكر والطاعة والعبادة وبائس وجزوع في الضراء وتضيق عليه الدنيا مع وسعتها ويائس عن الجزاء في الآخرة إذ لا يؤمن بها حتى ينال خيرها ﴿وَنَحْشُرُهُ﴾ أي من أعرض عنه

﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ في البصر أو في البصيرة ويؤيد الأول قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ وقوله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ أي في الدنيا ﴿قَالَ﴾ الله تعالى في جوابه: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ أي تركتها ترك المنسي الذي لا يذكر أصلا ﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ أي تترك في العمى والعذاب جزاء على الحساب ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء ﴿نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ بالإنهماك ولم يُؤمن بآيات ربه ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ أي أشد من عذاب الدنيا على الإطلاق وأكثر بقاء منه.

وقوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ إستئناف لبيان التذكير والتفكير في أحوال الأمم الطاغية الباغية السابقة، فإن كل عاقل عالم يعلم بمطالعته أو بمجاورته أحوال من مضى وعصى وما جاء عليه من ربه جزاء له في الدنيا. أي أفلم يهد لهم ولم يبين لهم طريق الهداية ما يستفاد من مضمون قوله تعالى ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي من أهل القرون الخالية كقوم عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وغيرهم ممن اطلعوا عليه حالكونهم ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ ويتقلبون في ديارهم مشاهدين لآثار عماراتهم البالية التي كانت قوية مستحكمة عالية ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ أي لأولي العقول الناهية عن مباشرة أعمال تشبه أعمال أولئك الأمم العاصية. ومضمون الآية المذكورة كثرةُ الـمُهْلكين والمعذبين من الأمم الظالمة التي حقها أن يعتبر بها العقلاء.

ثم استأنف الباري تعالى لبيان حكمة عدم نزول العذاب على الكفار الموجودين في عصره عليه السلام بقوله ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ وهي تقدير تأخير العذاب عنهم ﴿لَكَانَ﴾ العقاب الذي يستحقونه ﴿لِزَامًا﴾ أي لازما لهؤلاء الكفرة بحيث لا يتأخر عن جناياتهم ساعة وقوله

﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ عطف على ﴿كَلِمَةٌ﴾ أي ولولا كلمة سبقت في تقدير التأخير وأجل مسمى معين لتقرير المصير لجرى عليهم ما يليق بهم.

﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آَنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (130) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (131) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (132)﴾

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ أي فإذا علمت أن جزاء الاعمال لابد منه، وأن تأخيره بحسب التقدير.. فاصبر على ما يقولون من كلمات الكفر وسوء الأدب مع الله تعالى وعلى ما يفعلون ويقولون لك ولأتباعك، ولا تضطرب فإن كلا من الناس ذاهب الى يوم جزائه، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وصل وأنت متلبس بحمده تعالى ربك الذي أوصلك إلى ما وصلته ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ أي صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ أي صلاة الظهر والعصر ﴿وَمِنْ آَنَاءِ اللَّيْلِ﴾ أي وبعض أوقات الليل وساعاته والمراد صلاة المغرب والعشاء. وآناء أفعال جمع أنى بكسر الهمزة وفتحها مقصورا جمع على أفعال فصار أأناي، قلبت الهمزة الثانية ألفا والياء بعد الألف همزة، فصار آناء.

﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ أي الصبح والمغرب وكررهما لمزيد الإعتناء بهما.

ومن المفسرين من قال: إن الآية تدل على الصلوات الخمس وزيادة. أما دلالتها على الصلوات فلأن الزمان إما أن يكون قبل طلوع الشمس أو قبل غروبها فالليل والنهار داخلان في هاتين العبارتين، فأوقات الصلوات

الواجبة دخلت فيهما. بقي قوله ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار للنوافل من سنة الوتر والتهجد في الليل وسنة الإشراق والضحى في النهار. وهذا كله إذا حملنا التسبيح على الصلاة وأما اذا حملناه على التنزيه والإجلال فالمعنى إشتغل بتنزيه الله تعالى في هذه الأوقات علاوة على فعل الصلوات الواجبة والمندوبة لتكون من عداد الذاكرين لله ذكرا كثيراً ولا تكون من الغافلين. وقوله ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ مربوط بقوله ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي وسبح في هذه الأوقات رجاء أن تنال عنده تعالى ما ترضى به نفسك من الثواب.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أي الى الزخارف والمغريات التي متعنا بها أصنافا منهم من الأولاد، والأموال، والمنازل، والملابس، والمطاعم، وغيرها من الرتب... ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بدلٌ من محل به أو منصوب بما يستفاد من متعنا، أي وجعلناه زهرة الحياة الدنيا. وقوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ متعلق بمتعنا أي متعناهم بها لنختبرهم فيه ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ أي ما ادخر لك في الدنيا من الخدمات الإسلامية ونشر الحق في ربوع العالم وفي الآخرة من اللقاء والرضاء والخلود في النعماء ﴿خَيْرٌ﴾ مما متعنا به هؤلاء ﴿وَأَبْقَى﴾ فإنه خالد أبدَ الآبدين ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ﴾ أي من معك في بيتك أو من تبعك في دينك ﴿بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي استمر واستقم واثبت عليها في العسر واليسر، وَأدِّها حَقَّ الأداء بخشوع، وإذا مر ببالك أن الاشتغال بها ربما يضرّ بأمر المعاش فلا تبال بهذا الهاجس ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وما أعطيناه لا مانع له ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ الحميدة في الدنيا والآخرة ﴿لـ﴾ أهل ﴿التَّقْوَى﴾ لأن من اتقى ما يخالف أحكام مولاه راعاه بالحق وتولاه وهو يتولى الصالحين.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآَيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (133) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آَيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (134) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (135)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآَيَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ حكاية لبعض الأقاويل الفارغة التي تعودوها. أي هلا يأتينا بآية أي معجزة أو بجملة منزلة واضحة من ربه تدل على صدقه في دعوى الرسالة ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ رد من جانب الباري سبحانه وتكذيب لهم بأنه أتتهم آيات القرآن الكريم التي هي أم الآيات السماوية وأس المعجزات، وتحتوي على ما كانت في الصحف الأولى، فإنكار إتيانه بما اقترحوه ذنب جديد وكذب عظيم اقترفوه. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ﴾ إستئناف لتقرير كونِ القرآنِ آية بينةً حاويةً للمعجزة والحُكم الالهي مع أنهم ينكرون ويقترحون الآية البينة، وهم، وإن كانوا وما يزالون منكرين، لكنا أتينا بما تقرر من سنتنا وهو الإنذار قبلَ الإهلاك، وإرسال الرسل لقطع معذرة الكل لأنا لو أهلكناهم بعذاب مستأصل من قبل إنزال القرآن ﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ مع آيات ﴿فَنَتَّبِعَ آَيَاتِكَ﴾ التي أرسلت ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ﴾ بالعذاب ﴿وَنَخْزَى﴾ بدخول النار.

﴿قُلْ﴾ يا حبيبي ﴿كُلٌّ﴾ من الجانبين أنا وأنتم ﴿مُتَرَبِّصٌ﴾ لمآل الأمر إلى أن يأتي وقتهُ ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ له ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أي المستوي ومن أصحاب الصراط المنحرف، وستعلمون من ضَلّ من الجانبين ﴿وَمَنِ اهْتَدَى﴾ منهما.

الجزء السابع عشر

<383>

سورة الأنبياء، مكية، وهي مائة واثنتا عشرة آية

نزلت بعد سورة ابراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَـمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (3) قَالَ رَبِّي يَعْلَـمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (4) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (5) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (6)﴾

قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ المراد بالناس فيه المشركون بدلالة ما بعده من الآيات عليه. وآثر الحساب على الساعة لأن غفلتهم منها لغفلتهم منه وخوفهم منها على الغرض لخوفهم منه، والإقترابُ محقق لأن الرسول إحدى آيات الساعة، ولأن كل آت قريب ويقترب آناً بعد آن ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي في غفلة عظيمة وجهالة

تامة منه، لأنهم لا يؤمنون بمن يأتي به ويزعمون أن لا كتاب ولا حساب ﴿مُعْرِضُونَ﴾ عن الآياتِ البينات والمعجزات الدالة على أن يكون لهم سؤال وجواب. ومن صفات أولئك الناس الناسين لحقوق الله أنه ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ﴾ نازل ﴿مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ جديد نزوله ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ﴾ والحال أن ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ويستهزؤن به ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ غافلة عن أنه ذكرٌ نازل لإرشاد الناس إلى الحق وزجرهم عن الباطلِ من الشرك وغيره من المعاصي ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَـمُوا﴾ أي الذين ظلموا أسروا النجوى أو الذين بدل من ضمير الفاعل أو ورد على أن الواو حرف للجمع لا ضمير له قائلين ﴿هَلْ هَذَا﴾ الرجل المدعى للرسالة ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ في الصورة والهيكل بما يدهش عقولكم ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ﴾ وتعملون بمدلوله ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ صاحبه على مثالكم.

وكل هذه العبارات شاهِدَةٌ على أن الناس انغمروا في الغفلة والجهالة بحيث لم يعترفوا بشيء من الفضائل والكمالات العلمية والعملية المكسوبة والموهوبة، وذلك حمق وسفاهة ليس فوقها شيء. ولما قالوا ذلك دافع الله سبحانه وتعالى عن رسوله وحكى من جهة قدسه ما قاله عليه الصلاة والسلام في مجابهتهم من أنه ﴿قَالَ﴾ أي الرسول ﴿رَبِّي يَعْلَـمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي أن الله تعالى يعلم كل قول ناشئ من أي قائل في السماء والأرض ويعلم سركم وجهركم ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقال سرا كما يقال جهراً ﴿الْعَلِيمُ﴾ بجميع المعلومات الخفية والجلية، وسيعاقبكم في وقته.

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ ولما كان القدح في القرآن الكريم قدحاً فيه صلى الله عليه وسلم نقول: إنهم أضربوا عن كون الرسول ساحرا يأتي بعمل متقن وعبارات رقيقة تسيطر على الألباب إلى أنه يغمى عليه وتأتيه صور فاسدة مخلوطة من الزين والشين،

وبعد انتباهه وخلاصه عنه يلقيه الى الناس، أي بل هو مثل نائم بالليل تأتيه رُؤىً مخلوطة من المتقابلات المستحيل جمعها.

ولما كانت هذه الدرجة تقدح الكلام لا المتكلم لأن النائم والمغمى عليه ليس عليهما وزر انتقلوا إلى أنه كاذب مُفترٍ على الله ويتعمد صنع عبارات تدل على أمور أرضية وسماوية وطبيعية وغيبية ويلقيها إلى الناس لخدعهم والغلبة على عقولهم. ولما كان المفتري قد يكون على صورة معقولة واقعية وهم لا يعترفون بأن كلامه معقول واقعي قالوا إنه شاعر ينظم الكلام بحسب المقام ولا يهمه أن يكون صحيحا مطابقا للأعيان أو فاسدا يروق في البيان، وقالوا بل هو شاعر، وإذا كان صادقا في دعوى الرسالة وكلامه كلاما منزلا من الله تعالى فليأتنا بآية كما أرسل بها عيسى من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، أو موسى من العصا واليد البيضاء وغيرهما. ولكنهم عموا عن إبصار الأعيان وغفلوا عن إدراك الحقائق فإنهم يعلمون أن السحر فن من الفنون يحصل بالتعلم بمزاولة أعمال دقيقة عن إتقان وأخذٍ عن أستاذ ماهر ولم يروه صلى الله عليه وسلم يتغيب عن مكة لتعلم ذلك العلم، ولم يكن في مكة من يعلم ذلك ويعلمه الناس وينشره فلم يكن ساحرا ولا كلامه سحرا، كما علموا أنه عليه الصلاة والسلام قد يجلس بين الناس ويأتيه الوحي بدون عُروض النوم وإرخاء الأعصاب، وعندما يتلوه على الناس فإذا هو كلام يبين حقائق ماضيةً معلومٌ اجمالها لأهل التواريخ، أو حقائق كونية أرضية أو سماوية يعجز عن فهمها الناس ماعدا العلماء الراسخين، وقد يأتي بأشياء تقع في المستقبل حسب ما ذكره، وقد يذكر ما يتعلق بجزاء الأعمال في عالم الغيب عالم الآخرة التي يؤمن بوجوده كل عاقل منصف يحسب للأعمال الحسنة والسيئة حسابها، ووجود جزائها، فإذا ليس هو براء يرى الطَّيفَ المخلوط، ولا مُغمى عليه تأتيه أشياء غير مضبوطة، وإذا

أمعنوا النظر في القرآن الكريم علموا أن مهمات ما فيه هي الدعوة إلى القول بوجود خالق الأرض والسماوات ووحدته وجزاء الأعمال والى صلة الأرحام وصيانة النفوس والأموال والعقول والاحترام وكل ذلك مما يعترف به العاقل الذي لم يكذب ولم يفتر على الواقع.

ويبقى القول بمجيء البعث والنشور وعالم الآخرة وهذا هو الذي جاء به عيسى وموسى وسائر الأنبياء والمرسلين، فإذا كانت الشبهة من أهل الكتاب فهم مؤمنون به، وإن كانت من المشركين فليعلموا أنهم قائلون بواجب الوجود، غير أنهم يدعون وجود الشريك له. وعلى كل تقدير فالقول بوجود الواجب تعالى يوافق ويؤيد وجود عالم الآخرة ويحقق الجزاء فتبين أن ما أتى به الرسول صلى الله عليه وسلم حق وليس كلاما مُفترى. وأما دعوى أنه شاعر وكلامه شعر فليعلم المتنبه أنه كلام ساقط لأن الشعر موضوع على تفاعيل وموازين خاصة مباينة لعبارات القرآن الكريم، وأن الأشعار تُصاغ وتحسن بالأكاذيب والـمُفْتعلات والأمور اللاغية التابعة للأهواء وكيف ذلك مع قوله تعالى ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾.

وأما اقتراحهم أن يأتي بآية كما أتى بها الأولون فهو اقتراح جاهل أو متجاهل، وذلك: لأن المنصف يعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء بأعجبَ مما أتى به الأولون لأن ما أتى به الأولون كان على نسبته الى الله وخلقه وإيجاده، ولم يكن لهم عمل فيه، وأي صنعٍ لموسى في قلب العصا حيةً وتحويل الحية الى العصا، وأي عمل كان لعيسى في إحياء الموتى لولا إعادة الله الروح إليهم؟ وأما أعمال الرسول وأخلاقه الخارقة من صدقهِ في السراء والضراء وصبره على البلواء وشكره على النعماء ودوامه في الجهاد ومجاهدة النفس وطاعة القدس وحلمهِ وحكمه وحكمته وشجاعته

وسخائه... كل ذلك اشياء تنبع من القوة الإنسانية وتعتبر من آثاره، وهي من أفضل ما يُنسب الى شخص يدعي الرسالة من الله. ثم معجزة الإسراء والمعراج والقرآن الكريم الحاكي عن الغيب والشهادة المتحدي لجميع الفصحاء والبلغاء الى المعارضة مع عجز الكل عنها وما تواتر عنه من سائر الخوارق... كلها معجزات خارقة ومواهب بارقة. واليهود والنصارى يؤمنون بزعمهم بأنبياء بني اسرائيل ورسالتهم ولم يكن لغير موسى وعيسى عليهما السلام تلك المعجزات، فيلزم من قولهم إذا كانوا هم القائلين به أن لا يكونوا رسلا، والمشركون يعترفون برسالة إسماعيل وإبراهيم ولم يتواتر منهم إحياء الأموات، وأمثال عصا موسى ويده البيضاء. والحق الحقيق بالتصديق أن الرسالة اختيار وهبي من الله الكريم لعبد من عباده متصف بكمال العقل السليم والخلق المستقيم بعثه الله لإرشاد الأنام إلى الاعتراف بالخالق ودينه ويوم الجزاء، وليست المعجزة شرطا أساسيا للرسالة فضلا عن نوع خاص منها، فاقتراح ما اقترحوه من العناد وقوله ﴿مَا آَمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي ما آمَنتْ قبلهم من أهل قرية أهلكناها باقتراح الآياتِ لما جاءتهم أفهم يؤمنون لو جئت بها وهم أعصى منهم وأشقى. وفيه تنبيه على أن عدم الإتيان بها للترحم عليهم إذ لو جئتهم بها ما آمنوا واستوجبوا عذابَ الإستئصال.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَـمُونَ (7) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (8) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الـمُسْرِفِينَ (9) لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (10) وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (11) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (12) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (13) قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (14) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (15)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ جوابٌ لما زعموه مِن أنّ الرسُول لابُد أن يكون ملكاً، أو إذا كان بشراً وجبَ أن يرسلَ معَ آياتٍ كُبرى ملموسة محسوسةٍ كما أرسل بها الأولون. وحاصلهُ أن دعواهم ذلك يعارضها مجيء الرسل الأولين من البشر وقد كان بعض منهم له المعجزات وبعضهم لا فيقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ من الشرائع والأحكام وغيرهما من القصص والمواعظ على حسب مناسبة ظروف الرسالة ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ والعلم بإرسال الرسل ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَـمُونَ﴾ أنتم في حد ذاتكم ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ﴾ أي الرسل ﴿جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ يعني وما جعلناهم جسداً مستغنيا عن الغذاء وقد كانوا يعتادون النوم والإنتباه، والمرض والشفاء، والبلاء والجفاء، وسائر ما يردُ على امثالهم ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ في الدنيا أبداً ودواما، أو ماكثين مدة كثيرة تتجاوز العادات المستمرة في الدنيا.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الـمُسْرِفِينَ﴾ يعني ولما بلغ الرسل ما أمروا به عارضهم الكافرون وآذوهم فوعدْناهم بالنصر المبين وإهلاك أعدائهم ﴿صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ ونصرناهم عليهم

﴿فَأَنْجَيْنَاهُمْ﴾ أي الرسل ﴿وَمَنْ نَشَاءُ﴾ من المؤمنين بهم ﴿وَأَهْلَكْنَا الـمُسْرِفِينَ﴾ أي الكافرين المتجاوزين عن الحدود. ثم قال سبحانه وتعالى توبيخاً للكافرين المعرضين عن القرآن ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا﴾ مُوجها للعقلاء إلى الخير في الدارين وموجباً للسعادة الأبدية و﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي ذكركم في التأريخ العالمي بأن ذلك الكتاب منزل بلسانكم ومنزل على نبي منكم تتشرفون بشرفه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما في ذلك الكتاب من الفوائد العامة وإعلاء قدركم خاصة ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ فيه بيان لإهلاك المسرفين.

والقصم الكسرُ بتفريق الأجزاء وإذهاب التئامها بالكلية. يعني وكم كسرنا ومحوْنا ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ معمورة مغمورة بالرجال والأبطال ﴿كَانَتْ﴾ تلك القرية أي أصحابها ﴿ظَالِمَةً﴾ بسبب كفرهم بآيات الله ومعاداة الرسل ومعاندة المؤمنين ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ أي بعد إهلاكها وتدميرها بمن فيها ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ لن يكونوا منهم أو لم يكونوا على دأبهم ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا﴾ أي أهل القرية الظالمة ﴿بَأْسَنَا﴾ وعقابنا ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ فكم من الأوبئة نزلت عليهم فركض الناس الى الأطراف خوفاً من الإتلاف؟ وكم من جيوش للأعداء وَرَدت عليهم ففروا وانهزموا الى البلاد؟ وكم من القحط والغلاء أو الغارة الشعواء، او السيول الجارفة سالت بهم وفر الباقون الى أماكن قاصية لتحصيل المعيشة والأرزاق؟ ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ أي فقال لهم الله تعالى بلسان الرسل أو قال لهم الملك كهاتف غيبي أو قال لسانُ حال البلاد المعمورة سابقا لا تركضوا من المحل ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ من النعم واللذائذ الموجبة للبطر ﴿وَ﴾ إلى ﴿مَسَاكِنِكُمْ﴾ وقصوركم الـمُشيدة ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ عما جرى عليكم ونزل بأنفسكم وأموالكم فتجيبوا السائلين عن علم وتقولوا كل ما جرى علينا كان من نتائج اعمالنا كما قال تعالى.

﴿قَالُوا﴾ جوابا لسؤال الحال بالحال أو قالوا قبل ذلك لما يئسوا من الخلاص ﴿يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (14) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ أي تِلك الجملة ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ أي جعلناهم بمنزلة النبات المحصود والنار الخامدة في منع القيام والدوام.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (17) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (19) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (20) أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (23)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ إستئنافٌ للإرشاد وتنبيه لعقلاء العباد على أن هذه الكائنات المرتبة من الأرض إلى السماوات، وما فيهما من النيرات والأمور العجيبة النفيسة من المعادن والحيوانات والنباتِ، مع هذهِ الحركات المتوازنة المتنسقة لا يتغير حال أيّة منطقةٍ مِنها على ما خلق فيها من الفصول والمواسم... أمور وحقائق ثابتة ولها آثار عجيبة، ولا يليق أن يُقال إنها العوبة، غافل لاه لاعب. فإذا تحقق عند أهل البصيرة قوله تعالى

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لأن اللّعب هُو الفعل الذي لا يقصد به مقصدٌ صحيح، وحاشاه أن يُخلق ذلك كذلك. وفي الوقت عينه إشارة الى الإستدلال على وجود ذاته الواجب بآثاره النافعة الجامعة للنظام يستدل بها المقرون بالحكم والمصالح، فإن مطلق الأثر يدل على المؤثر، والأثر البديع على الوجه المتقن الـمُحكم الذي يُعجِبُ الناظرين من أهل الأبصار والبصائر يَدل على مؤثر عظيم جبار قادر مقتدرٍ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، كما أنه إشارة إلى الاستدلال بهذا العالم البديع على أن إرسال الرسل حقّ يطلبُ مراعاته فإن هذا العالم الواسع بما فيه من الموجودات وبالأخص الإنسان المدني بالطبع المتطور الجاذِب الدافع لا يعيش بدون النظام، والنظام إذا كان صنعيا فكل قوم يصنعونه على ما ينفعهم ولا ينظرون الى منافع غيرهم، فلزم أن يكون النظام إلهيّاً جامعا يصلحُ به أمور الناس كلهم وعلى ذلك أرسل الله تعالى الرسل الى العالم بشيرا ونذيرا وأنزل عليهم الكتاب الجامع لسعادتهم في معاشهم ومعادِهم، فيجب على كل عاقل الإنقياد له، والسعيد من التزمه وجعله منهجا له لينال السعادة، والشقي من أنكره وجعل نفسه بحيث تعمل على ما تهواه، ولو كان أخس عادة.

ثم قال لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ أي لو كان الباري مريداً لاتخاذِ لهوٍ لاتخذه في عالم الغيب بحيث يخصه وما اتخذ صورة عيانية لكم تتفرجون عليه وتقضون به شهواتكم، أو لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا لأن الملك المسيطر يختص بما يريده لنفسه، لكن التالي باطل لأن اتخاذ اللهو بمعنى الأمر الذي لا يكون له عاقبة حميدة ممتنع، فكذا المقدم وهو إرادة اتخاذ اللهو، فإذاً ليس في العالم وأجزائه إلاّ الأعيان والأعراض المقرونة بالحكم الراسخة. ومنها بعث الرسل وإرشادُ الناس إلى السبلِ وتقرير المصير بالثوابِ والعقاب للكل.

فليس في عالم الإمكان للهو مِن مكانٍ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ وهو إرادة التشريع وطلب الطاعة والمعرفة من المكلفين ﴿عَلَى الْبَاطِلِ﴾ وهو عمل اللهو واللعب الفارغ عن الخير فيه ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ أي فيمحقُ ذلك الحقُّ وهو خلق الكائنات لإطاعة رب الأرض والسماوات، الباطلَ الذي لم يكن فيه حكمة فيما مضى ولا فيما هو آتٍ ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ يعني ولما دمغ الحقُّ الباطلَ فاجأنَا العلم بأن الباطل ذاهبٌ عاطِل. ومن هذا البيان يظهر أن مصير الكفر الى الفناء ومصير الكافرين الى الدمار ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ﴾ يا قريشُ ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ الله به من اتخاذ الشريك أو الولد، أو اتخاذ اللهو واللعب إلى الأبد.

ولا يفتقر الباري إليكم ولا إلى غيركم ولا إلى السماوات والأرض ومن فيهما ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي مسخر منقاد يعمل فيهم ما يشاءُ ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ من الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ أي لا يتعظمون عنها ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي ولا يتعبون من عبادته. ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي في الأوقات كلها ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي لا يأتيهم الفتور عنها.

وقوله تعالى ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ حكاية لأشد جناياتهم أعني اتخاذ آلِهَة غير الله يعني أبَلْ اتخذوا من آلهة من أجزاء الأرض من الحجارة والمعادن والجص هم ينشرون، حالكونهم هُمُ الذين يبعثون الموتى في يوم القيامة للميزان والحساب وتعيين الثواب والعقاب؟ وهذا القيد هو الذي يدور عليه التشنيع والتجهيل فإن المواد الجامدة الهامدة لاحسَّ لها ولا شُعُور حتى تكونَ لها قدرة ويتوهم منها أنها تبعث الموتى، ويقول لرد ذلك: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ أي لو كان فيهما آلهة بصفة الكمال المقتضية لوجوب الوجود والخالقية المقتضية للمعبودية لفسدتا، أي لم تتكون الأرض والسماوات

من أساس لأنّ هذه الآثار لا يمكن إبداعُها وإحداثها من العدم إلا بذات واجب الوجود غير قابل للعجز والمنع ولو كان آلهة موصوفة بتلك الصفات وجب أن يكون من شأنها منع الغير عن آثار غير محبوبة عنده فيلزم جواز منع هذا لذاك وذاك لهذا وإمكان المنع لأيٍ إله يوجب أن لا يكون واجب الوجود فلم يكن شيء منهما إلهاً واجب الوجود فلم يحدث العالم ولم تتكون السماوات والأرض لكن التالي باطل لتكونهما مشاهدة وعيانا فالمقدم وهو تعدد الآلهة بتلك الصفة باطِلٌ، وهذا هو حقيقة معنى الآية الكريمة فتكون دليلا قطعيا على امتناع تعدد الآلهة الموصوفة بوجوب الوجود.

وأما حملُ الآية الكريمة على معنى أنه لو كان فيهما آلهة لعارضّ كلٌّ الآخر وتنازعا باقتضاء هذا لحركةِ الشيء المعهودِ والآخر لسكونه حتى تُمنعَ الملازمة بسندِ جواز توافقهما على شيء معين ويحتاجَ إلى إثبات الملازمة ببنائها على الغالب من التعارض بين المشركين فليس بشيء يعتمد عليه في أمثال هذا المقام المهم. نعم يجوز اعتباره على أن يكون دليلا خطابيا لا غيرُ.

ولما ثبتت نظافة ساحة التوحيد عن توسخها باعتبار الشريك قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي أنزه غاية التنزيه الذاتَ الموجودَ المعلم باسم الجلالة ﴿ألله﴾ المنعوت بربوبيته للعرش المحيط بعالم الإمكان عما يزعمون من إسناد الشريك إليه. وفي نعته برب العرش إشارة إلى استدلال آخر على وحدته بأن الله رب العرش الذي لا يصلُ العقلاءُ الى وصفه كمال الوصف، فكيف يمكن أن يكون له شريك في ربوبيته لذلك؟ ولما انفرد الخالق المعبود بوحدة الذات ووحدة ذاته تقتضي امتيازه بصفات لا يمكن أن توجد في غيره تبين أنه الكامل المطلق، وسبحان

الله الكامل المطلق أن يعمل شيئا فاسدا خارجا عن الحكمة ولذلك ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ على وجه النقد والاعتراض لأن أعماله مصونة عن العيب ولا يسأل عن سر خلقه لشيء وحكمته لأن آثار الذات الأزلي الأبدي لا تتناهى ولا تسعُ علم أي عالِمٍ أسرار خلقه وخليقته ولا يستوعبها، وإنما يظهر بعض الحكم على بعض عباده إذا شاء ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ أي ومن عداه من المكلفين يسألون عن لمية أعمالهم الإكتسابية وكيفيتها، لأنهم ناقصون ذاتاً بالإمكان والحدوث، وصفةً بثبوتها لذلك الموصوف، وعملاً لمقارنته للقصد المؤف. فإن أعمالهم ناشئة عن قدرة تابعة لإرادةٍ ترجح جانباً على جانب لأغراض نفسية وعوارض شخصية وتلك لا تخلو عن العيوب قطعا.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَـمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (24) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (26) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (27) يَعْلَـمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (28) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (29)﴾

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً﴾ إضرابٌ وانتقالٌ من بيان بطلان كون ما اتخذوه آلهةً الى الاستدلال على ذلك ببيان خلوها عن

خصائص الألوهية، وهي ظهور آثارها الثابتة الدالة على ألوهيتها فيقول لحبيبه عليه السلام: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المتخذين من دون الله آلهةً ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على ما تدعونه من اتخاذ الآلهة ﴿هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾ أي هذا الذي تلوته عليكم من أدلة توحيده تعالى واتصافه بالكمال المطلق ذكرٌ ودليلٌ لمن معي من أمتي، وذكر ودليل لمن قبلي من أمم الرسل السابقين، فأتوا أيضا بدليل سليم يدل على اتخاذ الشركاء ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَـمُونَ الْحَقَّ﴾ إضرابٌ عن طلب الدليل منهم على دعواهم الى أنه لا ينبغي أن يتكلم معهم لأن أكثرهم لا يعلمون الحق ولا يميزونه عن الباطل، وأقلهم مغمور بينهم وأذلُّ، ولا مجال له حتى يظهر في ميدان سماع الحوار ﴿فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ مستمرون على الإعراض عن الحق وسماع أدلة التوحيد.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ﴾ الى بني إسرائيل أو غيرهم ﴿إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ﴾ أي الى ذلك الرسول ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ وخصوني بالعبادة ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ استئناف لبيان نوع آخر من خرافاتهم وهو أن لله الرحمن الرحيم ولداً فقالت بَطْنٌ مِن خزاعة: الملائكة بنات الله، واليهودُ: عزيرُ ابن الله، والنصارى المسيحُ ابن الله... ﴿سُبْحَانَهُ﴾ وتعالى عن اتخاذه للولد بأي وجهٍ لا من الملائكة ولا من الرسل ولا من غيرهم، لأن التناسل فرع الاحتياج الى حفظ النوع وهو تعالى أزلي وأبدي وحي بذاته وقيوم لخليقته من أرضه وسماواته وغيرهما ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ أي مُكرمُون عند الله باختيار الملائكة للعبادة والطاعة المستمرة وعزير والمسيح بالإصطفاء والرسالة لتبليغ أوامره إلى عباده ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي لا يتقدمون على الله بكلام، وهذه كناية عن أنهم لا يقولون

شيئا حتى يقوله تعالى ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ﴾ تعالى ﴿يَعْمَلُونَ﴾ لا يعصُونَ الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون.

﴿يَعْلـمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ويراقبهم في كافة سرهم وجهرهم ولا يجول في خاطر أي واحد منهم الا ما يرضى به تعالى ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ﴾ يوم القيامة ﴿إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ من المؤمنين الذين يستحقون الشفاعة لغفران الذنوب أو الإخراج من العذاب، أو لرفع الدرجات، وشفاعتهم ممنوعة عن الكافرين ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ أي وهم بسبب مخافتهم المستمرة من هيبة الله وعظمته مرتعدون خائفون غاية الخوف ومضطربون غاية الإضطراب ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ أي من الملائكة وغيرهم إني إله من دونه تعالى ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ كسائر المجرمين ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ بإسناد ما لا يليق بهم الى انفسهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (30) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (31) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (32) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33)﴾

قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ يعني لم لا يستدل الكفار الملحدون حسب ما يسمعونه من كتب الحكماء السابقين واللاحقين بسيطرتنا على العالم على وحدتنا وكمالنا الذاتية

والوصفية والفعلية؟ ألم يعلموا بأنفسهم أو بحسب الإستفادة من الغير أن السماوات والأرض كانتا كتلة واحدة في بدء الخليقة ففتقناهما وميزنا بعضهما عن بعض وجعلنا بعضها أرضا واقعة في جو خاص ومحل معين وجعلنا بعضها سماءً أعلى منها. أو ألم يعلموا أن السماوات كانت واحدة فجعلناها سبع سماوات طباقا؟ والارض كانت قطعة واحدة فقسمناها الى سبعة أقسام من الارض القشرية والترابية وغيرها. أو ألم يعلموا أن السماوات والأرض كانتا في ذاتيهما ملتحمتين يابستين لا يحصل منهما شيء ففتقناهما وجعلنا السماء ممطرة والأرض منبتة أي رتبنا أمورهما، وجعلنا طبقات السماوات الأثيرية بعضها فوق بعض وميزنا الأرض إلى مواد معدنية وغيرها والى جبالٍ شاهقة وأراضٍ نافعةٍ واسعة وعيون نابعة وأنهار جارية ﴿وَجَعَلْنَا﴾ أي وخلقنا ﴿مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي كل جسم نام حساس متحرك بالإرادة كثيفة الخلقة. أو خلقنا من الماء كل نام يزيد في الأقطار فيشمل النباتات ولا يشمل الملائكة والجن مطلقا لأنها ليست مركبات مادية كثيفة. ويقرب من هذه الآية الشريفة قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ ووجه كون الماءِ مبدأ ومادة للحيوان أو الدواب أنه أعظمُ مواده وكثرة إحتياجه إليه فإن الحي لا يعيش بدون رطوبة في بدنه ودمٍ في عروقه. وقال جماعة المراد بالماء النطفة سواء دخلت في الرحم كما في الحيوان الوَلُودِ أو في البيض كما في الحيوانات البائضة ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ بذلك المالك الحي القادر العليم الذي خلقَ الكائِناتِ من الأرض والسماوات ورتبها بما يفيدُ البريات.

﴿وَجَعَلْنَا﴾ أي وخلقنا ﴿فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ جمع راسية بمعنى ثابتة أي جبالا ثوابت مغروزة في الأرض لفوائد جليلة منها حفظ الأرض ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي تميل وتضطرب بهم في حركاتها اليومية والسنوية لأن الكرة

المتحركة اذا لم تتعادل أجزاؤها لم تتناسق حركتها فلها اقتضاء سرعة من الجانب الخفيف وبطء من الجانب الثقيل. ولما تعادلت بغرز الجبال فيها على وجه مُنسق كما قرره الباري تعالى اعتدلت حركتها ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿فِجَاجًا﴾ جمع فج وهو شقة يكتنفها جبلانِ. وقال الزجاج: كل مخترق بين جبلين فهو فجّ. وقال بعضهم: هُو مطلق المعبر الواسع سواءٌ كان بين جَبَلين أم لا، وقوله ﴿سُبُلًا﴾ جمع سبيل بدل من الفجاج لأنها موسعة للسابلة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ الى الاستدلال بهذه الآثار على وحدة القادر المختار، أو لعلهم يهتدون بالسبل الى السير الى مقاصدهم.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا﴾ للأرض وأهلها ﴿مَحْفُوظًا﴾ عن البِلى والتغير والإنفطارِ والسقوط الى المركز حتى يأتي زمانُ انفطارِها، أو محفوظا عن النفوذ فيها والخروج عنها الا بسلطانٍ منا، أو عن الشياطين واستراق السمع. وهذا مقيد بعصر الرسالة الخاتمة ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا﴾ الدالة على عظمة رافِعها وحافظها، أو عن كشف آياتها المودعة فيها كالكواكب والقمر والشمس ﴿مُعْرِضُونَ﴾ ذاهلون غافلون لا يستدلون بها، أو معرضون عن السعي في كشفها باقتناء العلوم الفلكية ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي وهو الذي خلق ستار الظلمة على نصف الكرة بمجيئ وقت غروب الشمس إلى طلوعها، وخلق أنوار النهار على سطحها بطلوعها الى وقت الغروب وخلقَ الشمس لإفادة الأنوار في سطح الأرض حتى تحصل الظلمة في السطح المقابل والقمرِ لخلق الأضواء إذا جاء الستارُ وقت الليل ﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿فِي فَلَكٍ﴾ ومدار خاصٍ ﴿يَسْبَحُونَ﴾ يستمرون في السباحة.

ففلك القمر ومداره قريب من الأرض حتى يقال اليوم إنه من توابع كرة الأرض. وفلك الشمس في مدار أعلى بما لا يعلمه إلا الله والسِّباحة تشعر بأن السماء أثير صافٍ قابل للخرق والذهاب والإياب والطلوع

والغروب.

وما اشتهر من امتناع الخرق والإلتئام كلماتٌ لاكتها العقول الـمُبتلاةُ بالأوهام، وصيغة الجمع ملاحظةٌ للكل وعلامة الجمع لتنزيلهما في هذا العمل العجيب منزلة العقلاء. ثم الظاهر من الآية الكريمة هو أن كُلاًّ من الشمس والقمر يجري في فلكه ويتحرك في ملكه وهذا بالنسبة الى القمر مسلم معلوم وأما بالنسبة الى الشمس فقد قيل انه مجاز من نسبة صفة المراقب المجاور الى مجاوره يعني أن الأرض هي التي تتحرك ولكن الواقف عليها يعتقد أن الشمس هي المتحركة، وإلا فالشمس ثابتة في محلها كمركز لحركات دوائر المجموعة الشمسية وهي باقية في الوضع. نعم إنه قد اشتهر في العصر الأخير أن الشمس تتحرك بمجموعتها في فضاء العالم الواسع الى ما شاء الله تعالى، وذلك عائد الى علم العليم الخبير، وعليه اعتقادي فإن الخالق هو العالم ﴿أَلَا يَعْلَـمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (34) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (35) وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (36) خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (37) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (38) لَوْ يَعْلَـمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (39) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (40) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (41)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ نزلَ لما قال الكفار نتربص بهِ ريْبَ المَنونِ، أي أنه بَعْدَ مدة يموت ودينه يفوت ونخلص من بث فكرة التوحيد. فقال سبحانه وتعالى: وما جعلنا لبشرٍ من قبلك كائناً من كانَ الخلود والدوامَ والبقاء مادامت الدنيا باقية، بل لكل أمة أجل ولكل أجل كتابٌ فكما أنك تموت فهم يموتون فاسألهم أفهم الخالدون دونك؟ كلّا لا خلود لأحمد ولا لمحمود ولا لشقي ولا مسعود. وبموتِ الشخص اذا كان سائرا على الحق وناشرا للحق لا يموت دينه وديدَنُه. وهكذا كان الزمان وكذلك يكون فلا ينفع أهلَ الضلال موتُ أهل الهدى وهم بعدهم أو قبلهم يموتون ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ المر على مذاق الطبع الحيواني ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾ أي بالمكروه والمحبوب هل يشكرون على الثاني ويصبرون على الاول؟ ﴿فِتْنَةً﴾ أي إبتلاء، فهو مصدر مؤكد لما قبله ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ لا الى غيرنا ونحن نعلم بأحوالهم عند الإبتلاء وعلينا الجزاء وإلينا المصير.

﴿وَإِذَا رَآَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي المشركون ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي محل هزء أي مهزوء به قائلا على وجه التهكم: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آَلِهَتَكُمْ﴾ بسوء ويرفض عبادتهم ﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ الذي شملت رحمته كل شيء ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ فانظر إلى سوء شعورهم يهزأون بالنور ويعززون الخشب الموزور! وقوله ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ نزل لبيان استعمال الكفار المستحقرين لمواعيد الرسول بالعقاب والعذاب والمستعجلين له على أساس إنكارهم له فقال خلق الإنسان أي هذا النوع بأسره من عجل أي من طبيعة غالب صفاته الغريزية الاستعجال لما يهواه، وبما أنه غالبٌ فيه فكأنه

خلق منه، وإن كان العرض محتاجا للجوهر ولا ينشأ الجوهر منه ﴿سَأُرِيكُمْ آَيَاتِي﴾ أي سأجعلكم ممن يرون بأمّ العيون صنوف عذابي من القتل والفتك والهتك والحقارة والخسارة في الدنيا والعذاب والعقاب في الآخرة ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي أولئك المستعجلون: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي متى وقت وقوع الساعة الموعود بها ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ أيها الرسول وأتباعه ﴿صَادِقِينَ﴾ في مجيئه وحلوله فأجابهم الله تعالى بما يتحقق فيه مما يدهش العقول وقال ﴿لَوْ يَعْلَـمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي شدة عذابهم وحدة النار عليهم ﴿حِينَ﴾ يقعون فيها و﴿لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ عند إحاطتها بجوانبهم ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ من غيرهم حتى تبعد عنهم لعلموا شيئا هو أشد الأشياء عليهم هوْ لا ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ﴾ أي الساعة ﴿بَغْتَةً﴾ أي فجأةً مفعول مطلق لتأتيهم على غير لفظه، أو مصدر في موضع الحال أي مباغتة لهم فتبهتهم، أي فتجعلهم في بهت ودهش وتحير ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي رد الساعة التي فاجأتهم ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي يمهلون ليستريحوا أقلَّ وقتٍ وزمان.

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ من آبائِك وأعمامِك شرفاء كُرماءَ عند الله فصبروا على أذى الإستهتار واستهزاء الكافرين بهم فنجوا من كل مكروه ونالوا عند الله كل محبوب، ووصلوا الى كل مطلوب مرغوب ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾ أي من أولئك الرسل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من وجوه الحقارة والنذالة والبذاءة التي استعملوها مع أولئك الرُّسُل المكرمين.

﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (42) أَمْ لَهُمْ آَلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (43) بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآَبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (44) قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ (45) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (46) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَـمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (47)﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أمرٌ من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يقولَ لهؤلاء المستهزئين: كيفَ تتجاسرون على الله وهو الحافظ لجميع العالم؟ وإلا فقولوا لي ﴿مَنْ يَكْلَؤُكُمْ﴾ أي من الذي يحفظكم ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ الطرفين لكل نائبة وحادثة ﴿مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي بأسه الشديد بالنار أو الحديد، أو من كلّ بلاء جديد. ولا شك أنّ المجيب المؤمن يقولُ: أللهُ هو الحافظ للمخلوق من باسٍ يأتي من الخالق، وإذا كانت من لابتداءِ الظهور وجب أن يُجابَ بأن الحافظ للإنسان هو ملائكة الرحمن، فقد قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾.

﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي أعرض عن سؤالهم عمن يحفظهم من بأس الله، فإنهم أناس مُعرِضون عن ذكر ربهم، ولا يجيبون بما فيه إسناد العمل إليه ابداً.

﴿أَمْ لَهُمْ آَلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ إعراض عن وصفهم بالإعراض عن الله تعالى إلى بيان اعتمادهم على غيره تعالى من آلهة مفتعلة مصنوعة من أحجار وأخشاب، ويعتقدون أن مولاهم وناصرهم آلهة تمنعهم عن كل

ضارّ من دوننا، أي من غيره تعالى ولا يسندون ذلك العمل إلى الله قطعاً. ولكنهم أخطأوا في ذلك فإنهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ إذا أراد شخص أن يكسرهم، ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي ولا هم يصحبون ويؤيدون بناصرٍ ينصرهم ويدافع عنهم ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ إضرابٌ عن إلقاء النوع السابق من الكلام إلى وعيدهم بأنهم يستحقون أشد العذاب لأنا متعنا هؤلاء وآباءهم بالملذات والمشتهيات في سنين طويلة حتى طال عليهم العمر وبقوا منطبعين بما هم فيه ويعلمون أن العاقبة لهم ومن عداهم كزبدٍ ما له أمد.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ فنحولها الى ديار المسلمين بعدَ أن كانت من ديار الكافرين، وجعلنا المسلمين غالبين عليهم بحيث لم تبق لهم شأفة وشوكة ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ على الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بعد مشاهدتهم ذلك. وقيل في معنى الآية: أفلا يرون أنا نقتدر على كل تصرف في الأرض والسماوات ونأتي الأرض ننقص من مادتها الترابية ونقشرُها مِن كلِ جانب كما ننقص من كرة سائر الكواكب الى القمر والشمس كذلك. فما دام أنّ لنا قدرةً كذلك وأردنا أن نأتي بدين الإسلام فلا شك في تحقق ما أردنا من إعزازه وإعزازِ الرسول المبعوث به أفهم الغالبون على ذلك الرسول الجليل بعد كل ذلك؟ كلاّ ثم كلاّ.

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ أي أنذركم من جانبه تعالى على الوحي الصادق بما تستعجلون به من الساعة وعذابها وليس الإتيان به من شأني ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴾ ولكن لا يسمع الناس المبتلون بآفة في السمع دعوة الرسول لهم إلى الحق إذا هم ينذرون، أي إذا أتاهم بالإنذار والمراد لا يسمعون كلامه سماع إجابة، ومعَ ذلك فهم أناس ضِعاف

لا يقاومون أية مصيبة تأتيهم ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ أي والله إن أصابهم شيء قليل من آثار عذاب الله الوارد عليهم ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ متحسرين متأسفين متندمين عما كانوا عليه: ﴿يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أنفسنا بإبائنا عن سماع كلام الله وكلام رسوله الأمين ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ أي ونضع الموازين العادلة التي توزنُ بها صحائف الأعمال ﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي فيه فلا تظلم نفس أية نفس كانت شيئا من الظلم أيّاً كان ﴿وَإِنْ كَانَ﴾ الوزن ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ أي مقدار حبة كائنة من نبات خردل وهي في غاية الصغر ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي جئنا بها للحساب حتى لا تضيع ﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ للدقائق في الأعمال، فإنه لا يعزب عنه مثقالُ ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين.

﴿وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْـمُتَّقِينَ (48) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (49) وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (50) وَلَقَدْ آَتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (54) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ تفصيلٌ لما أجمل في قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ أي والله لقد آتيناهما كتاباً جامعاً بين كونه فارقا بين الحق والباطل وضياء يستفاد منه للخروج من ظلمات الجهل والضلال ﴿وَذِكْرًا لِلـمُتَّقِينَ﴾ أي الذين يريدون تقوى اللهِ وطاعته ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ أي يخافون ربهم والحال أنه غائب عنهم لقوة الإيمان، أو يخشون ربهم في وقت الغيب عن الناس فلا يباشرون الذنوب والآثام ﴿وَهُمْ مِنَ﴾ لقاء ﴿السَّاعَةِ﴾ وهولها وما يلقونه بعدها من الحشر والحساب والميزان والنار ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون بالاستمرار. ﴿وَهَذَا﴾ القرآن الكريم ﴿ذِكْرٌ﴾ يتذكر به من تذكر ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير البركة والخير من نفحات رحمة المتكلم به، فإن الكلام صفته (أنزلناه إليك لتنذر به ام القرى ومن حولها) الى نهاية أقطارِ الكرة ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ أي منكرون أنه أنزل من الله على رسوله، أو أنه منزل ولكن ليس فيه خير وبركة. كلاّ فإنه يعلم ما فيه من البركة كلّ من في قلبه حركة، فقد سمعناه وأثار في القلوب نور الرحمن، وأنار القلوب بنور الإذعان والإيمان، ووجدْنا مِن قراءته علينا في بعض الأحيان فَوْحاتٍ تُعطر الصدور بالروح والريحان.

﴿وَلَقَدْ آَتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ أي الرشد المناسب له لمقاومته أعظم عاتٍ متكبر في الزمان ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي قبل موسى وهارون ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ على سبيل النصح والإرشاد وإرخاء العنان: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ أي ما حقيقتها؟ أهي هياكل موجودة في ذاتها؟ أم تماثيل ركبتموها من أجزاء متباينة؟ فهل تستحق أن تعبدَ؟ أو ما وجهُ عبادتكم لهذه التماثيل التي أنتم لأجل عبادتها عاكفون ومقيمون وملازمون لأداء شعار العبادة؟ ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ أي ما ندري

فهرس الكتاب

واتينا موسى الكتاب وجعلناه هى لبني اسرائيل.	167
وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الارض مرتين.	168
متى تكون المرة الثانية.	169
عسى ربكم ان يرحمكم.	171
ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم.	172
وجعلنا الليل والنهار ايتين.	174
وكل انسان الزمناه طائره في عنقه ونرج له يوم القيامة كتابا.	175
حكم الناس المتوطنين في المناطق النائية.	176
وكم اهلكنا من القرون.	176
من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد.	177
وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه.	178
هل تؤدي الاولاد حقوق الوالدين.	180
وات ذا القربى حقه.	181
ولاتجعل يدك مغلولة الى عنقك.	182
ولا تقربوا الزنا.	183
وتقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق.	184
ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي احسن.	185
افاصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا.	187
استحالة وجود شريك لله.	188
واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالاخرة حجابا مستورا.	189
وقالوا ااذا كنا عظاما ورفاتا اانا لمبعوثون خلقا جديدا.	190
وقل لعبادي يقولوا التي هي احسن.	191
قل ادعوا الذين زعمتم من دونه.	193
وما منعنا ان نرسل بالايات الا ان كذب بها الاولون.	195
واذا قلنا لك ان برك احاط بالناس.	196
شيء عن قدرة الله.	197
واذا قلنا للملائكة اسجدوا لادم.	198
ان عبادي ليس لك عليهم سلطان.	199